روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

لشباب اليوم

الملحمة

وقصص أخرى

Looloo
www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت. ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢

- مع بدء العـــد التنـــازلى ، نحو القـــرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيـل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضـارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم

د. نبيل فاروق

قبـل أن تقـرأ ..

من المؤكّد أن هذا الكتاب ، الذى بين يديك الآن ، ليس أحد الأعداد المعتادة ، فى سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠

إنه عدد خاص ..

خاص جدًا ..

هذا لأن العدد كله يدور حول موضوع واحد ..

وعالم واحد ..

عالم خاص ..

ومثير ..

وغامض ..

إلى أقصى حد ..

ذلك العالم السرى ، الذى تدور فى كواليسه أكبر وأضخم وأعنف الحروب ، دون أن يدرى العامة عنها شيئًا ..

أىّ شىء ..

العالم ، الذى قال عنه الخبراء ، إن هزائمه فضائح ، ونجاحاته لا يدرى عنها أحد شيئًا ..

ومن المؤكد أننى مثلكم ، مغرم بهذا العالم حتى النخاع ، منذ كنت فى العاشرة من عمرى ..

ولا تجعلوا هذا يدهشكم ..

ففى تلك الفترة من عمرى ، كان العالم كله يتابع بشغف كامل مغامرات وأفلام العميل رقم صفر صفر سبعة ..

(جيمس بوند) ..

عالم مبهر مثير يحبس الأنفاس ، كنا نتابعه على الشاشة بعيون متسعة ، وأفواه فاغرة ، وأنفاس ترتجف فى الضلوع ، وتنحبس مع كل موقف مثير أو مفاجأة مبهرة ..

ومع نجاح أفلام المخابرات ، فى جذب عدد هائل من المشاهدين ، ومن الإيرادات بالتالى ، انهالت أفلام الجاسوسية على السينما والأدب ، وحتى البرامج الإذاعية ، وأصبحت سمة من سمات الستينات ، ولمحة ما زالت أعماقى تحمل بصماتها ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

ثم بدأت الموجة تنحسر ، كما يحدث دائمًا ..

وتراجعت موجة أفلام الجاسوسية ..

ولكن الأثر ، الذى تركته فى كيانى ، لم ينحسر أو يتراجع قط ..

ومع مرور الزمن ، تضاعف شغفى بهذا العالم ألف مرة ، فرحت أبحث فى لهفة ، وأقرأ فى نهم كل ما يقع تحت يدى من روايات الجاسوسية ، بالعربية والإنجليزية ..

وفى المرحلة الجامعية اختفى هذا الشغف لبعض الوقت ، خلف صعوبات ومتاعب الدراسة فى كليات الطب ، والتى تلتهم فى المعتاد كل ساعة ودقيقة وثانية ..

ولكن العجيب أن العشق الكائن فى أعماقى ، كان يطفو دائمًا على السطح ، كلما خلوت إلى نفسى ، أو جالست أوراقى وقلمى ..

ففى كل مرة ، كنت أخطّ بضعة أسطر ، أو أضع بعض الرسوم ، فى محاولة لصنع رجل مخابرات ، يحيا فى نفس العالم ، الذى بهر حداثتى وشبابى ..

رجل مخابرات مصرى ..

عربى ..

ولعل زملاء الدراسة الجامعية ما زالوا يذكرون محاولاتى المتصلة ، فى ذلك الشأن ..

حتى الذين استهانوا بها ..

أو سخروا منها ..

ثم جاءت البداية فجأة ، بعد سنوات قليلة من تخرّجى ..

ووفقنى الله (سبحانه وتعالى) إلى إخراج بطلى للوجود ..

وانطلق كل المختزن فى أعماقى ..

وبعدها تطوّرت الأمور بسرعة ..

ووجدت نفسى غارقًا حتى النخاع ، فى نفس العالم الذى عشقته لسنوات وسنوات ..

واليوم ، وكتجربة جديدة ، أقدّم لكم لمحة من ذلك العالم ، فى كتاب واحد ..

ملحمة كاملة من البطولة ..

والفداء ..

وإنكار الذات ..

ولأن هذه المناسبة لا تتكرّر كثيرًا ، فهى فرصة مناسبة

لأقدّم الشكر لعدد ممن كان لتعاونهم أكبر الأثر ، فى خروج هذه التجربة للوجود ..

تجربة تقديم كتاب متنوّع عن الجاسوسية ..

كتاب يجمع بين الواقع ..

والتاريخ ..

والخيال ..

أقدّم شكرى الجزيل للسيّد (علاء) ..

والسيّد (أشرف) ..

والسيّد (لبيب) ..

وأقدّم الكثير من الشكر والعرفان بالجميل ، باسم كل مواطن مصرى ، لجهاز المخابرات العامة بأكمله ..

نشكره لكل ما قدّمه لنا ولهذا الوطن من خدمات ..

لكل ما عرفناه ..

ولكل ما لم نعرفه ..

وحتى ما لن نعرفه أبدًا ..

ففى كل الأحوال ، وتحت كل الظروف ، يكون العمل من أجل هدف واحد ..

(مصر) ..

من أجل أمنها ، وأمانها ، وسلمها ، وسلامتها ..

مهما كانت المتاعب .. ومهما كان الثمن .

د. نبيل فاروق

لم تكن عقارب الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحًا ، فى ذلك اليوم الشديد الحرارة ، من أيام يوليو ١٩٧١ م ، عندما انتبه سكان المنطقة المحيطة بمبنى المخابرات العامة المصرية ، إلى أن المكان يستعد لاستقبال زائر غير عادى ، فقد تضاعفت إجراءات الأمن ، وبدت ملحوظة ـ على غير المعتاد ـ واحتلّت ناصية الشارع المؤدى إليه سيارة كبيرة ، من سيارات الشرطة ، وحولها عدد من الضباط ورجال المرور ، وظهر عدد من الرجال فى ثياب مدنية ، عند بوّابة المبنى ، وملامحهم تحمل

ذلك الجمود ، الذى لا يشفّ قط عما تنطوى عليه نفوسهم ، فى حين تختفى عيونهم خلف مناظير داكنة ، أضفت عليهم مزيجًا من الغموض والرهبة ، يتناسبان بحق مع المكان ، الذى يغلفه الصمت والسكون طوال الوقت تقريبًا ، كما لو كان أطلالاً مهجورةً ، على الرغم من كل ما تموج به أعماقه من نشاط جم ، لا يتوقّف ليلاً أو نهارًا ..

ولم يكن الأمر بحاجة إلى الكثير من الاستنتاج ، لمعرفة هوية ذلك الزائر ، بل ولم يكن هناك وقت للتفكير والتخمين ، فلم يكد رجال الأمن يستقرون فى مواضعهم ، حتى أسرع رجال المرور بإيقاف سيل السيارات ؛ لإفساح الطريق لموكب الزائر ، الذى ظهر بسرعة ، واتخذ طريقه نحو المبنى ، وعبر بوّابته الرئيسية ، التى أغلقت بعدها ، وتلاشت مع إغلاقها مظاهر الأمن والحراسة ـ أو أنها لم تعد علانية ـ فى نفس الوقت الذى سمح فيه رجال المرور للسيارات بمواصلة السير ، فانطلقت تتدفّق كنهر ميكانيكى ، وكل ركابها يبتسمون فى ارتياح ، بعد أن تعرّفوا وجه رئيس الجمهورية فى ذلك الحين ، الرئيس (أنور السادات) ، وأدركوا أنه فى طريقه لزيارة المخابرات العامة ..

وكان من الطبيعى أن يذهب رئيس الجمهورية ، كل حين وآخر ، لزيارة رجال المخابرات فى عرينهم ، على الرغم من اجتماعاته المنتظمة مع رئيس الجهاز ، والتقارير اليومية ،

التى ترد إليه منه ؛ فزيارته لهم تختلف كثيرًا عن زيارتهم له ..

إنه يستطيع بينهم أن يلمس ذلك الجهد الخرافى ، الذى يبذلونه طوال الوقت ، والذى تصله نتائجه أوّلاً فأوّلاً ، كما أنه سيجد هناك كل ما يحتاج إليه ، أو يرغب فى معرفته ، دون إضاعة لحظة واحدة ، فى إحضاره من المبنى إلى القصر الجمهورى ، ومع وجود كل الإمكانات الحديثة المتاحة داخل المكان ، والتى يصعب نقلها لضخامة حجمها ، أو حساسية تشغيلها والتعامل معها ..

ثم إن هذه الزيارة بالذات كانت أكثر منطقية ، بعد أن هدأت الأمور ، التى اشتعلت فى منتصف مايو من العام نفسه ، وانتهت باستقرار (أنور السادات) على مقعد الرياسة ، وإجراء تغييرات جوهرية بين معاونيه ، ووزرائه ، ومستشاريه ..

ومع تحديده لموعد الزيارة ، طلب الرئيس عقد اجتماع خاص ، يضمّ كل رؤساء الأقسام فى الجهاز بلا استثناء ..

وفى هذا الاجتماع ، ترك الرئيس انطباعًا لدى رجال المخابرات بأنه واحد منهم ، يتحدّث لغتهم ، ويفهم مشاعرهم وأحاسيسهم ، ويدرك طبيعة عملهم ، والتضحيات التى يبذلونها من أجله ، و ..

وحانت لحظة طرح الأفكار ، والإفصاح عما فى الصدور ..

وكعادته كلما استعدّ لاستجماع ما لديه ، وتسديد أهدافه بدقة ،

أشعل الرئيس (السادات) غليونه فى تأنٍّ ، ونفث دخانه فى بطء ، قبل أن يدير عينيه فى الحاضرين ، ويشرح لهم السبب الحقيقى للاجتماع ..

لقد طرح عليهم رأيه ، فى ضرورة وضع خطة بالغة الدقة والسرية ؛ للتمويه على جهاز المخابرات الإسرائيلى وخداعه ، كوسيلة حتمية لدحر الجيش الإسرائيلى ، الذى أحاط نفسه بهالة أسطورية وهمية ، أوحت بأنه أقوى جيوش العالم ..

وعلى الرغم من أن الاجتماع قد استغرق ما يزيد على الساعات الخمس ، إلا أنه اقتصر على مناقشة بعض الأفكار ، ومراجعة بعض المعلومات ، ووضع الخطوط العريضة لخطة الخداع ، ولم يتطرّق قط إلى تفاصيلها ، التى ترك الرئيس مهمة وضعها للرجال ، الذين انتقاهم بدقة ، ووضع على كاهلهم المسئولية كاملة ..

وانصرف الرئيس عائدًا إلى مقر الرياسة ، وترك خلفه رجاله ، الذى واصلوا الاجتماع لثلاث ساعات أخرى ، قبل أن يصدر قرار بالاجماع ، ببدء تنفيذ أضخم خطة فى تاريخ المخابرات العامة ..

خطة الخداع ، والتمهيد لحرب أكتوبر ١٩٧٣ م ..

ولم يكن الأمر هينًا أو بسيطًا ، فكل خطوة ، وكل نقطة ينبغى دراستها بمنتهى الدقة والاهتمام ، والتعامل معها على نحو بالغ الحذر ، بحيث يمكن إعداد الجيش للحرب ، وتمهيد

الطريق لها ، واتخاذ كل الخطوات الضرورية اللازمة دون أن يشعر جهاز المخابرات الإسرائيلى ، أو أية أجهزة أمنية أخرى للعدو بحدوث هذا ..

باختصار ، ينبغى إحضار فيل ضخم ، وتمريره تحت أنف نمر يقظ ، دون أن يشم ذلك النمر حتى رائحته ، أو ينتبه إلى وجوده ..

وعلى الرغم مما يبدو عليه الأمر ، من استحالة حدوث هذا ، انطلق رجال الرئيس فى عملهم بمنتهى الحماس ، كما لو أنهم على أتم ثقة بقدرتهم على انجاز هذا العمل الرهيب ، وتحطيم حاجز المستحيل ..

وطوال الأشهر التالية ، نشط عملاء المخابرات فى (سيناء) ، و (تل أبيب) ، و(القدس) ، وفى صفوف الجيش الإسرائيلى نفسه ، لجمع الصور ، والوثائق ، والأقوال والخرائط ، وحتى الشائعات ، لتغذية الجهاز بأكبر قدر ممكن من المعلومات ، التى هى عصب العمل ، فى ذلك العالم السرى الغامض ، وعنوان التفوّق فيه ..

ثم حانت لحظة اختبار طارئة ، فى شتاء عام ١٩٧٢ م ، عندما هطلت الأمطار فى غزارة غير طبيعية على (القاهرة) ، مما أدى إلى تعطل بعض المرافق الحيوية فى العاصمة ، وغرق السيارات حتى نصفها فى ميدان التحرير نفسه ، وانقطعت الاتصالات الهاتفية ، مع التيار الكهربى ، فى عدد من الأحياء

المكتظة بالسكان ، مما دعا الكاتب الساخر (أحمد بهجت) إلى كتابة مقال لاذع فى جريدة الأهرام ، للسخرية من هذا الموقف ، وختمه بسؤال عما يمكن أن يحدث ، لو تكرَّرت هذه الأمطار الغزيرة ، ونحن فى قلب الحرب ..

والتقطت المخابرات العامة هذا التساؤل ، وطرحته فى اجتماع خاص ، ناقش الفكرة بجدية تامة ، ثم تقدَّم بتقرير خاص فى هذا الشأن للأجهزة المسئولة ، مع فكرة ذكية خطرت للرجال ، لاستغلال الموقف لصالح خطة الخداع ..

وفى أوَّل حديث عام للرئيس ، بعد نشر المقال ، وبناء على تقرير المخابرات العامة ، أشار إلى ما كتبه (أحمد بهجت) ، وإلى أن هذا التساؤل مثير للدهشة ؛ لأن الحرب ستؤدى حتمًا إلى تخريب أكثر بشاعة ، ثم التقل بسرعة إلى نقطة أخرى ، وكأنما يلقى تعليقًا عابرًا ..

والتقط الإسرائيليون الطُعم ، واتسعت ابتسامتهم فى زهو وظفر ، لأن عبارة الرئيس تعنى أنه واثق من أن أية حرب قادمة ستمتدّ حتمًا إلى العاصمة ، وتعنى بالتبعية أنه يخشى اندلاع مثل هذه الحرب ، وسيتردَّد كثيرًا فى إشعالها ..

وكان هذا بالضبط ما تريد لهم المخابرات العامة أن يفهموه ..

وهذا مجرَّد اختبار عابر ، أما الاختبار الحقيقى لنجاح الخطة وبراعتها ، فكان فى الفترة التى سبقت حرب أكتوبر بعدة أشهر ..

ففى تلك الفترة ، كانت الاستعدادات الأخيرة للحرب تجرى على قدم وساق ، وأخطر ما يمكن أن يحدث هو أن ينتبه الإسرائيليون إلى هذا ، أو أن يستنتجوا حتى أنه يحدث ..

وكان على رجال الرئيس أن يدرسوا كل موقف ، وكل مشكلة ، وبمنتهى الدقة ؛ فى محاولة للبحث عن وسيلة لعلاج هذا ، أو إخفاء ذاك ، أو التمويه على تحركات ما ، فى مكان ما ..

وكانت اجتماعاتهم تمتدّ ـ فى بعض الأحيان ـ إلى ما يزيد على الساعات العشر المتصلة ، التى لا تتخللها سوى دقائق معدودة لتناول طعام بسيط ، أو لارتشاف أقداح الشاى والقهوة ..

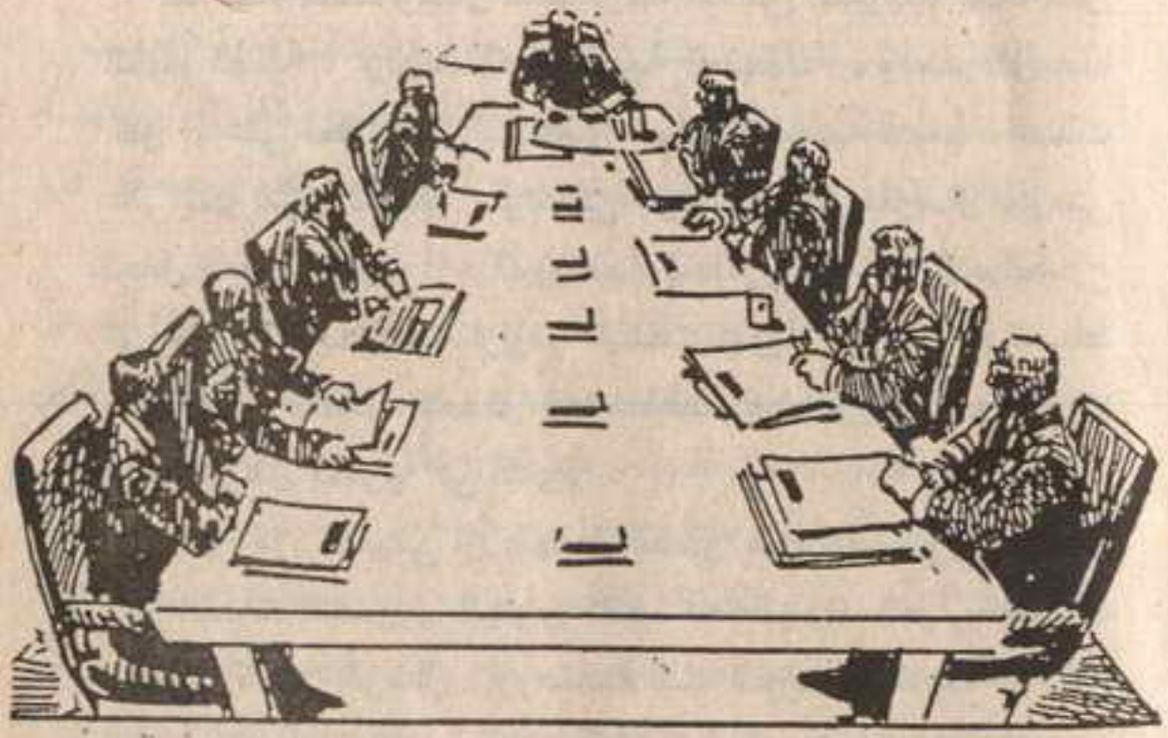

ولكنهم ، وفى كل مرة ، كانوا يحطمون المستحيل ، وينتصرون على الموقف ، ويجدون حلاً لكل مشكلة ..

وبدأ هذا مع مشكلة تدريب الجنود على خطة العبور ، بعد أن جمع عملاء المخابرات ، على مدى سنوات عديدة ، معلومات تكفى لبناء عدة نماذج متفرِّقة ، لعدة قطاعات من خط (بارليف) ، فى الصحراء الغربية ، فلو أن أحد عملاء العدو أو جواسيسه أمكنهم الاطلاع على هذه التدريبات ، أو حتى معرفة موقعها ، فقد يفسد هذا عملية العبور كلها ، عندما يحين الوقت المناسب ..

لذا فقد أحاط رجال المخابرات مناطق التدريب بعدد من الخيام البالية ، والأكشاك الخشبية المتهالكة ، وأمام كل هذا ألقوا ، على نحو يوحى بالإهمال ، بلافتة خشبية قديمة ، مالت على نحو مثير للشفقة ، واختفى جزء منها فى الرمال ، وهى تحمل عبارة تقول : « المؤسسة المصرية العامة لاستصلاح الأراضى » ، بحروف بارزة ، تجمَّعت عليها الأتربة ، وتساقط منها بعض النقاط ، كما لو أنها سقطت بفعل الرياح ، وتعاملت معها عوامل التعرية فى قسوة ..

وكان من الطبيعى أن يتجاهل العدو هذه المناطق ، خاصة وأن معدات التصوير الجوى عنده قد أظهرت العبارة نصف المطمورة فى الرمال ، ورصدت تلك العربات القديمة ، التى تحمل اسم شركة مقاولات ، أنشئت خصيصًا لهذا الغرض ،

وهى تحمل العمال إلى الموقع ، دون أن يدرك الخبراء الإسرائيليون ، أو يتصوَّروا لحظة واحدة ، أن هؤلاء العمال الزائفين هم فى الواقع جنود (مصر) البواسل ، فى سبيلهم للتدرّب على اقتحام نماذج خط (بارليف) وتدميرها ..

وعندما كان من الضرورى إرسال قوافل الدبابات إلى الجبهة ، درست المخابرات الموقف ، ونصحت باتخاذ قرار بنقل ورش التصليح الرئيسية إلى الخطوط الأمامية ، ثم بدأت الدبابات تصاب بأعطال عديدة ؛ تستلزم ذهابها إلى ورشة الإصلاح ، فى طوابير واضحة معلنة ، على نحو خدع جواسيس العدو وعيونه ، الذين تصوَّروا أن كل هذه الدبابات فى طريقها إلى الورشة بالفعل ، حتى كانت لحظة الحرب ، التى انطلقت فيها الدبابات ، بعد أن استعادت نشاطها وقدراتها بغتة ، لتعبر القناة ، وتواجه دبابات العدو على الضفة الشرقية ، وتكبِّدها أكبر خسائر فى تاريخها العسكرى ..

أما معدات العبور ، الهدف الرئيسى لكل عملاء وجواسيس العدو ، فقد استغلّ رجال الرئيس فى أمرها تلك الفكرة ، التى كوَّنها العدو ، عن ضعف خبرتنا وكفاءتنا ، فسرَّبت تقريرًا سريًا ، يحدِّد كمية مبالغ فيها من المعدات ، باعتبار أن هذا هو العدد الذى حدَّده الخبراء المصريون ، وتم استيراد هذه الكمية بالفعل ، على نحو أثار سخرية العدو الإسرائيلى ، وتندّره على هؤلاء الخبراء ، الذى لا يمكنهم حتى إجراء مثل هذه الحسابات ،

خاصة وأن الشحنة قد وصلت إلى ميناء (الإسكندرية) بالفعل ، وتم استلامها على نحو بالغ الإهمال ، وبإجراءات أمنية توحى بالاستهتار واللامبالاة ، وظلت ملقاة على رصيف الميناء حتى المساء ، عندما أتت سيارات الجيش لنقلها إلى منطقة صحراوية فى ضاحية (حلوان) ، وتم تكديسها على مرمى البصر من طريق ممهَّد ، وغطاها الجنود بشباك مهترئة ، تكشف منها أكثر مما تستر ..

ووسط كل هذا الإهمال المتعمَّد ، كانت الخطة الحقيقية تدار ببراعة مدهشة ، تستحق إعجاب العدو قبل الصديق ..

لقد نقلت سيارات الجيش الكمية الزائدة من المعدات فحسب ، وتم تخزينها فوق مصاطب خاصة ، جعلتها تبدو فى ضعف حجمها الأصلى ، فى حين قامت سيارات أخرى ، تحمل شعار شركة مقاولات خاصة ، بنقل الكمية التى تحتاج إليها عملية العبور ، فى أثناء تظاهرها بنقل بضائع أخرى ، تم وضعها على رصيف الميناء ، بالقرب من معدات العبور ، واتجهت بها إلى الجبهة مباشرة ..

وحتى فى الجبهة نفسها ، كانت خطة الخداع مستمرة ..

فعلى سبيل التمويه ، صنع الفنيون فى الجيش المصرى عددًا كبيرًا من الهياكل الخشبية لدبابات وعربات مصفحة ، وعربات رادار ، وأخفوها داخل حفر شبيهة بتلك التى توضع فيها المعدات الحقيقية ..

وضحك الإسرائيليون حتى احمرَّت أعينهم ، وانتفخت صدورهم ، على هذه الخطة الساذجة ، التى انكشفت لخبرائهم بكل سهولة ..

ولكن لم تكد الحرب تندلع ، حتى تحوَّلت ضحكاتهم إلى شهقات دهشة ، وعضات كادت تقتلع الشفاه ، عندما اتضح لهم ، بعد فوات الأوان ، أن تلك النماذج الخشبية كانت تخفى فى جوفها القوارب المطاطية ، والأجزاء العائمة ، التى برزت فجأة من باطن الأرض ، عندما حانت لحظة العبور ..

وحتى المشكلات المحتملة ، لم يهملها رجال المخابرات فى حساباتهم ، فقبل اندلاع حرب أكتوبر بثلاثة أشهر ، طرح أحد الرجال فكرة ارتفاع استهلاك المصابيح اليدوية ، فى أثناء فترة الإظلام الإجبارية ، التى تصاحب فى المعتاد اندلاع الحروب ، وأكَّد أن السوق سيحتاج حتمًا إلى كميات منها ، قبل بدء المعركة ، ولو تم استيراد هذه الكميات على نحو رسمى ، سترصد أجهزة مخابرات العدو هذا ، وتستنتج منه أننا نستعد للحرب ، لذا فمن الضرورى البحث عن وسيلة للحصول على هذه المصابيح ، دون استيرادها بالطرق الرسمية ...

وبعد أيام قليلة من طرح المشكلة ، التقى أحد المهربين بشاب حاذق ، على دراية كبيرة بمسالك الصحراء وخلجان الشاطئ ، وساعده هذا الشاب على تهريب كمية من قطع

غيار السيارات ، مما عقد أواصر الصداقة بينهما ، فتم الاتفاق بينهما على تهريب صفقة ضخمة من المصابيح اليدوية ، واستأجرا لهذا الغرض ثلاثة مخازن بالفعل ، واحد فى الصحراء الغربية ، والثانى فى بدروم فسيح فى (الإسكندرية) ، والثالث عبارة عن جراج فى (العباسية) فى (القاهرة) ..

وتم كل شىء بنجاح ، ووصلت الصفقة بالفعل ، وتعامل معها الشاب بحذر بالغ ، وعلى الرغم من هذا ، فقد أطبقت عليها الشرطة ، فى أثناء نقل الشحنة ، وألقى القبض عليهما ، وتمت مصادرة المصابيح ـ طبقًا للقانون ـ وطرحت للبيع فى المجمعات الاستهلاكية بأسعار متواضعة ، قبل اندلاع الحرب بشهر واحد ..

وغنى عن الذكر أن ذلك الشاب الحاذق لم يكن سوى أحد عملاء المخابرات المدربين ..

ومع اقتراب الحرب أكثر وأكثر ، راحت خطة الخداع تسير بخطوات أوسع ، وتلتقط أنفاسها فى حرارة وحماس ..

لقد قدَّر الخبراء ـ آنذاك ـ أن عمليةَ العبور ستؤدى إلى إصابة نصف قوات الموجة الأولى ، ثم يتناقص العدد تدريجيًا مع الموجات التالية ، وهذا ما لم يحدث بالفعل ، عندما تم العبور ، إذ لم تتجاوز نسبة الخسائر ١٠ ٪ ، ولكن الخبراء رأوا أن هذا سيستلزم إخلاء عدد من المستشفيات المدنية ، مع

قيام الحرب ، للمساعدة فى عمليات استقبال الجرحى والمصابين ..

ولأنه من المستحيل أن يتم هذا ، دون أن ينتبه العدو ، وبشدة ، إلى استعدادات قيام الحرب ، فقد هبّ رجال المخابرات لبحث المشكلة ، وتقديم النصيحة المناسبة بشأنها ..

وفى اليوم التالى مباشرة ، قرَّرت إدارة شئون الضباط ، فى القوات المسلَّحة ، بتسريح ضابط طبيب من الخدمة ، ولم يكد هذا الطبيب يعود إلى الحياة المدنية ، حتى تسلَّم وظيفته السابقة فى وزارة الصحة ، وتم تعيينه فى مستشفى (الدمرداش) ، الذى وقع عليه الاختيار ، ليكون أوَّل القائمة ..

ونظرًا لكفاءة ومهارة هذا الطبيب ، فقد كشف بعد تسلّمه العمل بفترة قصيرة ، أن ميكروب التيتانوس يلوِّث معظم عنابر المستشفى ، فأسرع بتقديم مذكِّرة فى هذا الشأن ، دارت حولها مناقشات ومحاورات ليومين كاملين ، بعدهما تم إخلاء المستشفى تمامًا من المرضى ، لتطهيره من الميكروب ..

وفى اليوم التالى مباشرة ، نشرت جريدة الأهرام الخبر ، وتساءل أحد الصحفيين عما إذا كان التلوّث قد وصل إلى بعض المستشفيات الأخرى أم لا ، وبناء على ما جاء بالمقال ، صدر قرار بإجراء تفتيش على باقى المستشفيات ، ولم يكد أوَّل

أكتوبر يأتى ، حتى كان العدد المطلوب من المستشفيات قد تم إخلاؤه نهائيًا ، ونشرت جريدة الأهرام تحقيقًا علنيًا حول هذا الأمر ، مع صور للأسرّة الخالية ، وعمليات التطهير المستمرة ..

ومع بداية أكتوبر ١٩٧٣ م ، وصلت خطة الخداع إلى ذروتها ، وارتفعت درجة حرارتها إلى الخط الأحمر ، فقد حملت الصحف إعلانًا عن رحلات عمرة رمضان ، التى يقوم بها الضباط والجنود ، من خلال القوات المسلحة ، وطلب منهم الإعلان أن يتقدّموا بطلباتهم ، فى نفس الوقت الذى وجّه فيه المشير (أحمد إسماعيل) الدعوة إلى وزير الدفاع الرومانى ، لزيارة (مصر) يوم الإثنين ٨ أكتوبر ، وأعلن فى بيان رسمى أنه سيكون فى استقباله شخصيًا ، لدى وصوله إلى مطار (القاهرة) ..

وفى نفس الفترة تقريبًا أعلن بصفة رسمية عن الاستعداد لاستقبال الأميرة الإنجليزية (مارجريت) ، التى أبدت رغبتها فى زيارة (مصر) ، صباح الأحد ٧ أكتوبر ، وطارت طائرتها بالفعل ، من (لندن) إلى (روما) ، وبلغ الأمر حدًا اجتمع فيه رجال المخابرات المصرية مع قائد الجناح الجوى (بارينكوت) ، الملحق بالسفارة البريطانية ، فى الساعة الواحدة بعد ظهر السبت ٦ أكتوبر ؛ لرسم خط سير الطائرة ،

وتأمين وصولها ، وهم يعلمون أكثر من غيرهم أن مطار (القاهرة) سيتم إغلاقه فى الثانية وخمس دقائق بالتحديد ، عند نشوب الحرب ..

أما قائد القوات الجوية ـ حينذاك ـ اللواء (محمد حسنى مبارك) ، فقد كان يعتزم زيارة الجمهورية العربية الليبية ، بصحبة عدد من ضباط السلاح الجوى المصرى ، يوم الجمعة الخامس من أكتوبر ، كما أبلغ السلطات الليبية لاسلكيًا ، إلا أن ظرفًا قهريًا حال دون قيام الرحلة فى موعدها ، فتقرّر تأجيلها إلى عصر اليوم التالى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ..

وقبل هذا الموعد بساعات معدودة ، كان الطيران المصرى يعبر قناة السويس ، ويعلن بدء معركة المصير ..

وفى نفس اللحظة ، التى كان فيها أحد الجواسيس المصريين ، فى الصفوف الأمامية للجيش الإسرائيلى ، يبلغ القوات المصرية أوّلاً فأوّلاً ، عن الأهداف التى ينبغى قصفها ، والتى صرخ فيها (موشى دايان) ، وزير الدفاع الإسرائيلى فى وجه الجنرال (شموئيل جونين) قائد جبهة (سيناء) ؛ ليوبخة على فشله فى تشغيل أنابيب النابالم ، وإشعال النيران فى مياه القناة ، دون أن يدرى أن المصريين قد أفسدوا فاعليتها بخطة مدهشة ، كان الرئيس (أنور السادات) يشعل غليونه فى مقر قيادة المعركة ، وينفث دخانه المعطّر فى استمتاع ظافر ، وهو يتابع أخبار القتال ..

وفى أعماقه ، اتخذ الرئيس قراره بضرورة مكافأة الرجال ، الذين كان لهم الفضل ـ بعد اللّه (سبحانه وتعالى) ـ فى تحقيق عامل المفاجأة ، وخداع العدو ، ونجاح عملية العبور ..

كل رجال الرئيس .

★ ★ ★

اختبر معلوماتك

حتى فى هذا الباب ، كل شىء سيختلف عن المعتاد ..

صحيح أنك ستجد أسئلة وعدة أجوبة لاختيار الجواب الصحيح من بينها ، كما يحدث فى كل مرة ..

ولكنك ستدرك أنها ليست ككل مرة ..

فى هذا الكتاب بالذات ، ستدور الأسئلة كلها حول العامل الرئيسى ، الذى يربط كل الموضوعات بعضها ببعض ..

الجاسوسية ..

كل الأسئلة ستتطرّق إليها ..

وتدور حولها ..

وتصطدم بها ..

وهذا يعنى أن سؤالنا سيظل على ما هو عليه ..

مع اختلاف جوهرى ..

فنحن سنسألك ، بعد أن تجيب ، وتراجع الأجوبة فى نهاية الكتاب ..

هل أنت مثقف ..

جاسوسيًا ؟!

★ ★ ★

١ ـ تم إنشاء جهاز المخابرات العامة المصرى رسميًا فى عام :

□ ١٩٤٨م . □ ١٩٥٤م . □ ١٩٥٧م .

٢ ـ (رأفت الهجان) ، مسلسل تليفزيونى ناجح ، من إعداد الكاتب الراحل (صالح مرسى) ، عن واحدة من أنجح عمليات المخابرات العامة ، فى قلب (إسرائيل) ، والاسم الحقيقى للشخصية الرئيسية فى الحياة الواقعية ، هو :

□ رفعت الهجان . □ رأفت الجمال . □ رفعت الجمّال .

٣ ـ عند إنشاء جهاز المخابرات العامة ، كان أوّل مدير له هو :

□ زكريا محيى الدين . □ أمين هويدى . □ صلاح نصر .

٤ ـ الاسم الذى يُطلق على جهاز المخابرات العسكرية الإسرائيلى هو :

□ الموساد . □ أمان . □ الشين بيت .

٥ ـ فى العمليات الخارجية للمخابرات ، يحرص الرجال على وجود مكان خاص ، يمكنهم أن يلتقوا فيه ، دون أن يجازفوا بكشف أمرهم ، ويطلقون على هذا المكان اسم :

□ الوكر السرى . □ بيت الثعالب . □ المنزل الآمن .

٦ ـ فى عالم المخابرات ، يُطلق على الضابط الذى يتابع عملية بعينها ، أو عميلاً من عملاء الجهاز ، بصفة دائمة ، اسم :

□ ضابط الحالة . □ المراقب . □ ضابط المتابعة.

٧ ـ يقع المقر الحالى للمخابرات العامة المصرية فى :

□ ميدان المنشية . □ بولاق الدكرور . □ حدائق القبة .

٨ ـ (أحمد الهوّان) ، هو الاسم الحقيقى ، لواحد من أفضل عملاء المخابرات المصرية فى السبيعنات ، الذين أسهموا فى تحقيق انتصار مبهر ، فى الصراع المصرى الإسرائيلى ، وقد ظهرت قصته فى مسلسل تليفزيونى ، حمل اسم :

□ دموع فى عيون وقحة . □ الثعلب . □ الحفّار .

٩ ـ جهاز المخابرات السوفيتى كان واحدًا من أكبر أجهزة المخابرات فى العالم ، ويعرف عمليًا باسم :

□ الجستابو . □ كى . جى . بى . □ سى . آى . إيه .

١٠ ـ من أشهر الفنانين المصريين ، الذين تعاونوا مع جهاز المخابرات العامة ، للإيقاع بشبكة جاسوسية كاملة ، الفنان المعروف :

□ محمود ياسين . □ يوسف وهبى . □ سمير الإسكندرانى .

١١ـ (جيمس بوند) هو أشهر شخصية مخابرات عرفتها الشاشة ، ولقد ابتكرها البريطانى (آيان فليمنج) ، وأوَّل من صوَّرها على الشاشة هو الممثل الشهير :

□ روجرمور . □ شين كونرى . □ تيموثى دالتون .

١٢ـ أطلق الإسرائيليون على أحد جواسيسهم فى (سوريا) لقب (النجم) ، وعلى الرغم من هذا فقد كشف السوريون أمره ، قبل أن يصل إلى هدفه ، وتم إعدامه علانية كعبرة لكل من تسول له نفسه التجسُّس على أى بلد عربى ، وهذا الجاسوس هو :

□ إفرام إليعازر . □ دافيد باروخ . □ إيلى كوهين .

★ ★ ★

والآن ، وبعد أن واجهت دستة من الأسئلة ، واخترت الأجوبة ، وراجعت النتائج فى نهاية الكتاب ، هل يمكنك أن تخبرنى الآن ؟

هل أنت مثقف ؟

جاسوسيًا ؟!

احتفظ بالجواب فى أعماقك ، حتى نلتقى مرة أخرى ..

وفى اختبار آخر ..

وكتاب آخر .

★ ★ ★

سرى للغاية ـ ١

المخابرات المركزية الأمريكية (C.I.A)

ـ أسسها الرئيس الأمريكى (ترومان) .

ـ فى آخر فصل الخريف عام ١٩٤٦ ، بدأت (وحدة الخدمات الاستراتيجية) فى التحول إلى (مجموعة المخابرات المركزية) حديثة التأسيس ، ثم إلى وكالة المخابرات المركزية ، وهذه الأخيرة هى التى جلبت الكثيرين من رجال مكتب الخدمات الاستراتيجية القديم ، حتى يستمروا فى العمل لصالحها ، ولكن رجالاً آخرين بدءوا فى التوافد على وكالة المخابرات المركزية ، اعتبارًا من عام ١٩٥٠ وما بعدها ..

تحت بنود قانون الأمن القومى لعام ١٩٤٧ (الذى أصبح نافذًا يوم ١٨ سبتمبر ١٩٤٧) تم تأسيس مجلس الأمن القومى ، ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، وكان (لارى هيوستن) ، الذى خدم لسنوات عديدة كمستشار عام لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، ومساعده الأول (جون وارنر) الضابطين الأساسيين المعينين المسئولين عن صياغة التشريع الخاص بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية الجديدة ..

أما (وولتر فونز هايمر) ، المستشار التشريعى لمجموعة المخابرات المركزية ، فقد كان ممثل المجموعة فى (الكابيتول هيل) ، فى العاصمة (واشنطن) ، وكان هؤلاء الرجال الثلاثة لسنوات عديدة ، المصادر الرئيسية للتاريخ المبكر ، الخاص بوكالة المخابرات المركزية ..

وكانت معظم التكليفات الرسمية للدولة ، التى عُهد بها إلى جهاز وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الجديد ، بالإضافة إلى منعه وتحريمه القيام بأداء الوظائف البوليسية ، والوظائف الداخلية ، الخاصة بفرض القانون ، كلها تتفق وتتمشى مع مفهوم (دونوفان) الأصلى ، وخطوطه العريضة لميثاق المخابرات ، وفى عام ١٩٤٧ صدرالقانون المذكور ، الذى كلف الوكالة بتنسيق أنشطة أجهزة المخابرات المتفرقة فى البلاد والولايات الأمريكية ، وإيجاد أوجه الارتباط بينها ، وتقييم ونشر وبث التقارير الاستخبارية ، فى أروقة الحكم ، خاصة تلك التى تؤثر على الأمن القومى ، كما تؤدى مهامَّ أخرى ، مثل الوظائف التى تتعلق بمتطلبات مجلس الأمن القومى ، التى تكون غالبًا ذات طابع تجسس سرى ، تضطلع به أجهزة المخابرات ..

* مدير ونائب مدير المخابرات المركزية يتم تعيينهما من جانب رئيس الولايات المتحدة شخصيًا ، وهو التعيين الذى لا بد

من موافقة وتأييد الكونجرس له ، وبمقتضى التعديل الصادر فى ٤ أبريل عام ١٩٥٣ ، تم تخويل الرئيس سلطة تعيين هؤلاء ، سواء من الأفراد الذين يعملون فى الحياة المدنية ، أو من الضباط النظاميين العاملين فى القوات المسلحة ، بغض النظر عن كونهم فى الخدمة ، أو قد أحيلوا للتقاعد ، شريطة ألا يتم شغر كلا المنصبين فى آن واحد ، من جانب الضباط العسكريين النظاميين ، العاملين بالأسلحة الأمريكية ..

* فى عام ١٩٤٧ تم تمرير قانون وكالة المخابرات المركزية ، إكمالاً لقانون عام ١٩٤٦، حيث سنّ الكونجرس بنودًا إضافية تبيح للوكالة أن تستخدم الإجراءات السرية الإدارية والمالية ، وإعفاء وكالة المخابرات المركزية من الكثير من القيود المفروضة على نفقات الأموال الاتحادية والأرصدة العامة ، واشترطت أن أرصدة وكالة المخابرات المركزية .. يجب أن توضع فى ميزانيات الوزارات الأمريكية الأخرى ، ثم يتم تحويلها إلى الوكالة ، بغض النظر عن القيود المفروضة على الاعتمادات الأولية ، ويعد هذا القانون بمثابة السلطة واللائحة الأساسية ، التى تضمن سرية ميزانية وإنفاق وكالة المخابرات المركزية ..

* ولكى يتم حماية مصادر المخابرات والأساليب المتبعة فى جمع المعلومات حتى لا يتم كشفها ، أعفى قانون صدر عام ١٩٤٩، وكالة المخابرات المركزية من وجوب كشف التنظيم ، أو الوظائف ، أو الأسماء ، أو المسئولين ، أو الألقاب ، أو الرواتب والأجور ، الخاصة بالعاملين والموظفين ، وأعدادهم ... إلخ .

★ ★ ★

مدراء وكالة المخابرات المركزية الأمريكية :

١ ـ العميد بحرى بقوات الاحتياط البحرية للولايات المتحدة (سيدنى وليام سورز) ٢٣ يناير ١٩٤٦م ـ ١٠ يونية ١٩٤٦م

٢ ـ الفريق بسلاح الجو التابع لجيش الولايات المتحدة (هويت سانفورد فاندينبرج)
١٠ يونية ١٩٤٦م ـ ١ مايو ١٩٤٧م

٣ ـ العميد بحرى بسلاح بحرية الولايات المتحدة (وسكوهينرى هيلينكويتر) ١ مايو ١٩٤٧م ـ ٧ أكتوبر ١٩٥٠م

٤ ـ الفريق بجيش الولايات المتحدة الأمريكية (وولتر بيدل سميث) ٧ أكتوبر ١٩٥٠م ـ ٩ فبراير ١٩٥٣م

٥ ـ (آلين ويلش دالاس)
٢٦ فبراير ١٩٥٣م ـ ٢٩ نوفمبر ١٩٦١م

٦ ـ (جون آليكس ماككون)
٢٩ نوفمبر ١٩٦١م ـ ٢٨ أبريل ١٩٦٥م

٧ ـ اللواء بحرى متقاعد (سلاح بحرية الولايات المتحدة (ويليام فرانسيس دابورن)
٢٨ أبريل ١٩٦٥م ـ ٣٠ يونية ١٩٦٦م

٨ ـ (ريتشارد ماكجارا هيلمز)
٣٠ يونية ١٩٦٦م ـ ٢ فبراير ١٩٧٣م

٩ ـ (جيمس رودنى شليسنجر)
٢ فبراير ١٩٧٣م ـ ٢ يولية ١٩٧٣م
١٠ـ الفريق بجيش الولايات المتحدة الأمريكية (فيرنون. إيه . ولترز) (القائم بأعمال مدير المخابرات المركزية)
٢ يولية ١٩٧٣ ـ ٤ سبتمبر ١٩٧٣م
١١ـ (ويليام إيجان كولبى)
٤ سبتمبر ١٩٧٣م ـ ٣٠ يناير ١٩٧٦م
١٢ـ الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية
٣٠ يناير ١٩٧٦م ـ ٢٠ يناير ١٩٧٧م
١٣ـ (إى . هينرى نوش) القائم بأعمال مدير المخابرات المركزية
٢٠ يناير ١٩٧٧م ـ ٦ مارس ١٩٧٧م
١٤ـ الأدميرال بحرى بالبحرية الأمريكية (متقاعد) (ستانسفيلد تيرنر) ٦ مارس ١٩٧٧م ـــ ٢٠ يناير ١٩٨١م
١٥ـ (وليام جوزيف كيسى)
٢٨ يناير ١٩٨١ ـ يناير ١٩٨٧م
١٦ـ (روبرت. إم. جيتس) القائم بأعمال مدير المخابرات المركزية خلال فترة مرض كيسى
حتى ٢٦ مايو ١٩٨٧م
١٧ـ (وليام . إتش . وبستر)
٢٦ مايو ١٩٨٧م ـ ٣١ أغسطس ١٩٩١م

١٨ـ (ريتشار . جاى . كيرر) القائم بأعمال مدير المخابرات
١ سبتمبر ١٩٩١م ـ نوفمبر ١٩٩١م
١٩ـ (روبرت. إم. جيتس) نوفمبر ١٩٩١ ـ يناير ١٩٩٣م
٢٠ـ (آر. جيمس وولسى) فبراير ١٩٩٣م ـ مايو ١٩٩٤م
٢١ـ (جون. إم. ديتش) مايو ١٩٩٤م ـ ؟

★ ★ ★

الهيكل التنظيمى لجهاز المخابرات المركزية

(C.I.A)

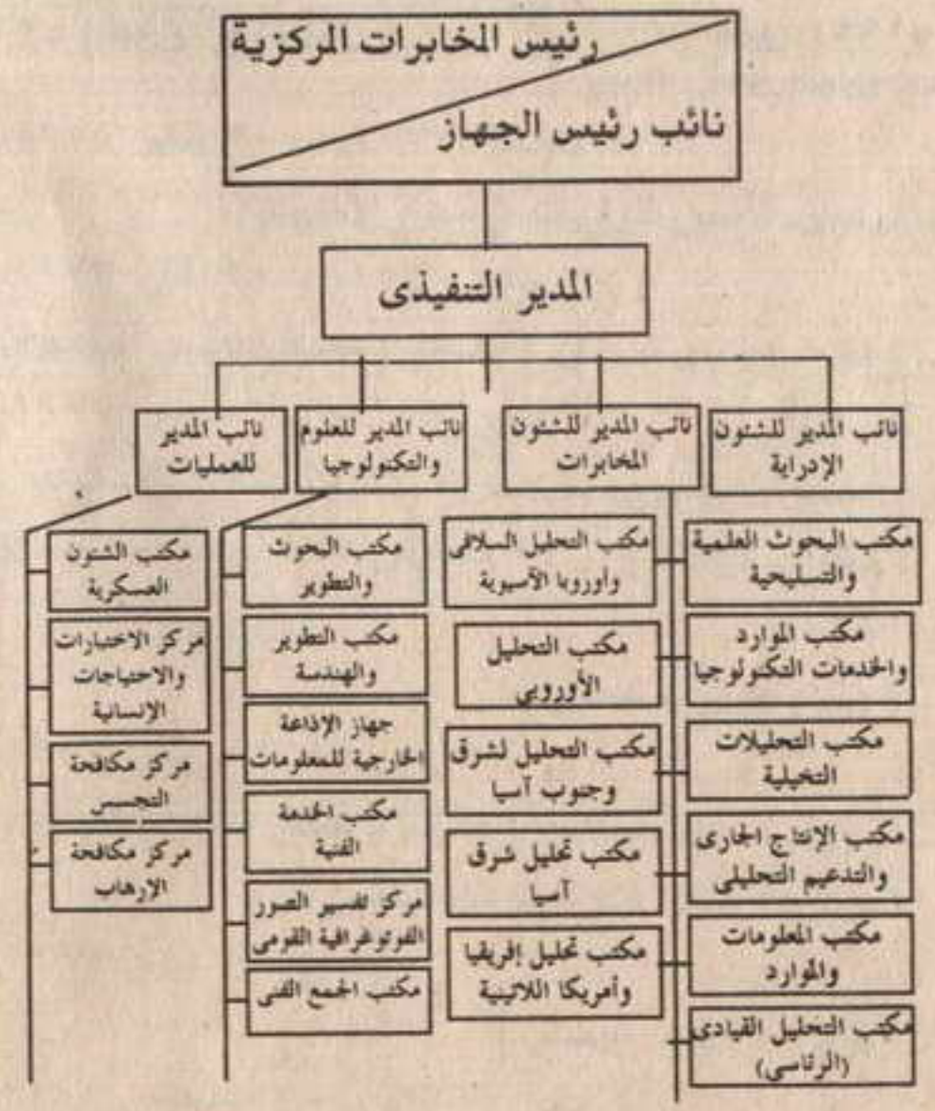

الجاسـوس رقم (١٠٠١)

على الرغم من أن عقارب الساعة كانت تشير إلى الثانية إلا عشر دقائق ، بعد ظهر السادس من أكتوبر ، عام ١٩٧٣م ، إلا أن كل شيء بدا هادئًا تقليديًا ، على الجبهة الغربية لقناة (السويس) ؛ فكل الجنود والضباط يؤدون أعمالهم الروتينية المعتادة ، وبعضهم يقوم بتنظيف أسلحته فى تراخ ، عند شاطئ القناة ، فى حين راح البعض الآخر يسبح فى مياهها ، ويتبادل النكات مع رفاقه بصوت مرتفع ، بلغ مسامع الجنود الإسرائيليين ، على الجبهة الشرقية للقناة ، فابتسم بعضهم فى سخرية ، وألقى بعض عبارات الاستهزاء بالمصريين وجنودهم ، الذين يمكنك استنباط حالة الطوارئ لديهم ، بمجرد ارتدائهم خوذاتهم القتالية ..

قالها ؛ لأن واحدًا من الجنود والضباط المصريين ، لم يكن يرتدى خوذته ، فى ذلك اليوم ..

ثم قطعت عقارب الساعة تلك الدقائق العشر فى سرعة ..

وأعلنت تمام الثانية ..

وقبل حتى أن تنتهى دقاتها ، كانت هناك أسراب من المقاتلات المصرية تهدر كألف ألف عاصفة ، وهى تعبر القناة فى آن واحد ، معلنة بدء أقوى مواجهة عربية إسرائيلية فى التاريخ ..

وكانت المفاجأة عامة شاملة ، مخيفة ، بالنسبة للإسرائيليين ..

لقد انهالت عليهم القنابل والصواريخ كالسيل ، وعلى نحو تصوّروا معه أن الجحيم قد فتح أكبر أبوابه ، ليلتهمهم عن آخرهم ..

أما الجنود الهادئون المتراخون على الجبهة الغربية ، فقد نفضوا تراخيهم الزائف هذا بغتة ، وتحوّلوا فى غمضة عين إلى أسود هصورة ، وثبت إلى قوارب مطاطية لا حصر لها ، اندفعت بهم صوب أقوى خط دفاعى استراتيجى ، عرفته الحروب الحديثة ..

خط (بارليف) ..

وانهالت قذائف الإسرائيليين على الجنود البواسل من كل صوب ، ونسفت عشرات القوارب ، وغمرت سطح القناة بالدماء الطاهرة الذكية ..

ولكن كل هذا لم يوقف الجنود ..

ولم يرهبهم ..

لقد ارتدّت القذائف إلى الإسرائيليين أنفسهم ، على هيئة ذعر رهيب ، وصفوه فيما بعد ، فى كتابهم (التقصير) ، بأنه ذعرُ خاطئٍ يواجه يوم الحساب ..

وانطلقت مدافع المياه تشق الساتر الترابى ..

واقتحم المصريون خط (بارليف) ..

وارتفع العلم المصرى على الجبهة الشرقية لقناة (السويس) ..

ووسط المعمعة والقتال والنيران والدماء ، التقطت أجهزة

الاستقبال اللاسلكية الإسرائيلية نداء متكررا ، بصوت مصرى ، يموج باللهفة والقلق ، وهو يهتف :

ـ أجب يا ألف وواحد .. أجب ..

كان النداء يتواصل بلا انقطاع ، على موجة خاصة ، من الساعة الثالثة ، وأربعين دقيقة ، وكأنما يبحث المصريون عن شخص بالغ الأهمية ، يرغبون بشدة فى استعادته ، على الرغم من كل ما يحدث على الجبهة ، فى تلك الساعات الأولى العنيفة ..

وفى الرابعة وسبع وثلاثين دقيقة ، تلقى ضابط مخابرات القنطرة غرب أمرا مباشرا من مدير المخابرات شخصيًا ، بالانطلاق على الفور ، للبحث عن جندى إسرائيلى بالتحديد ، وسط قافلة عربات ، كانت تتحرك من (أم مرجم) إلى القنطرة شرق ، وبأن يجرى اتصالا بقائد الجيش الثانى ؛ ليصدر أمرًا بعدم إطلاق النار على أى فرد من جنود تلك القافلة ، مهما كانت الأسباب ..

وبات من الواضح أن الشخص ، الذى يتم البحث عنه ، له أهمية بالغة بالفعل ، على الرغم من أنه يرتدى الزى العسكرى الإسرائيلى ، فى زمن الحرب ..

ولقد انطلق ضابط المخابرات على الفور لتنفيذ الأمر ، وانطلق إلى الجبهة المشتعلة ، بحثًا عن اللواء (سعد مأمون) ، قائد الجيش الثانى الميدانى ؛ لحصول على إذنه ، قبل دخول منطقة القتال مباشرة ..

ولكن حتى هذا لم يكن سهلا ؛ فالجسور المقامة تكتظ بالمشاة والعربات المدرعة ، والدبابات ، التى تعبر إلى الجبهة الشرقية ، وقائد الجيش الثانى يتحرك فى سرعة ونشاط مدهشين ، من موقع إلى آخر ؛ ليتفقد جنوده واستعداداته ، والخطوات التالية للعبور ..

وعندما بلغت الساعة الخامسة إلا عشر دقائق ، أدرك الضابط أن الوصول إلى النقطة المنشودة يكاد يكون مستحيلاً ، بسبب الألغام ، وقوافل الإمدادات ، والانفجارات التى تملأ الأفق ، وأبلغ هذا الأمر لرؤسائه ، فى توتر بالغ ..

وعندما بدأ الظلام يخيِّم على الجبهة ، فى الخامسة والنصف تقريبًا ، اخترقت هليوكوبتر حربية مصرية خطوط القتال ، ونجحت فى الهبوط ، عند موقع قافلة السيارات المنشودة ، التى احترقت عرباتها ، وتناثرت حولها الجثث ..

وقبل حتى أن تستقر الهليوكوبتر على الرمال ، قفز منها ثلاثة رجال بثياب مدنية ، وأضاءوا مصابيحهم اليدوية ، واندفعوا نحو الجثث المتناثرة ، وراحوا يفحصونها فى اهتمام بالغ ، جعل الطيَّار يتصوَّر أنهم سيعثرون على وزير الدفاع الإسرائيلى نفسه وسط القتلى ..

ثم هتف أحد الرجال الثلاثة بزميليه ، معلنًا عثوره على الشخص المنشود ، فاندفعا إليه ، وانحنى كلاهما يفحص جثة جندى إسرائيلى فى اهتمام بالغ ، قبل أن ينهض الرجال الثلاثة

فى صمت ، والأسى يملأ وجوههم ، ثم اندفع أحدهم نحو الطائرة ، وهتف بالجنود القابعين داخلها ، فخرج ستة منهم يحملون صندوقًا من الخشب ، وعلمًا مصريًا جديدًا ، وبكل احترام وتقدير ، نقلوا جثة العريف الإسرائيلى إلى الصندوق ، ولفوه بعلم (مصر) ، ووقف المدنيون الثلاثة وقفة عسكرية ، فى حين أدَّى الضابط المرافق لهم التحية الرسمية ، وهم أمام الصندوق ، قبل أن ينقله الجنود الستة إلى الهليوكوبتر ..

وأقلع الطيَّار الحربى المصرى بالهليوكوبتر ، وهو يتساءل فى حيرة ، كيف يمكن أن يحظى قتيل إسرائيلى بكل هذا الاحترام والتقدير ، فى زمن الحرب ؟!

هذا لأنه لم يكن يدرى أن العريف الإسرائيلى (موشى زكى رافى) ، الراقد فى ذلك الصندوق ، كان فى الواقع شهيدًا مصريًا ، وواحدًا من أبرع الجواسيس ، الذين عرفتهم (مصر) ..

شهيد اسمه (عمرو) ..

(عمرو طلبة) ..

★ ★ ★

من أبرز صفات رجال المخابرات العامة ، فى كل الأزمنة ، قدرتهم المدهشة على استيعاب الأمور ، والتكيُّف معها ، والتحرُّك بسرعة لرتق الثقوب ، بدلاً من إضاعة الوقت فى البكاء على الثوب الممزَّق ..

لذا ، فلم تكد نكسة يونيو ١٩٦٧ م تنحسر ، حتى كان الرجال

قد وضعوا خطة متقنة ، لزرع عميل مصرى ، فى قلب الجيش الإسرائيلى ؛ ليصبح عينًا وأذنًا داخله ، ويصنع خطًا دائمًا من المعلومات ؛ لتغذية المصريين بكل ما يحدث ويدور ، داخل جيش العدو ..

وكان من الطبيعى أن تتجه أنظارهم نحو أفضل مكان ، يمكن الحصول منه على شخص صالح تمامًا ، للعيش والعمل داخل (سرائيل) ..

نحو القسم (٣ ج ١) ..

والقسم (٣ ج ١) هذا هو أحد أقسام مدرسة المخابرات ، التى لا يمكننا تحديد موقعها ، أو وصفها ، أو حتى الإشارة إلى موضعها ، ولكن كل ما يمكننا قوله ، فى هذا المضمار ، هو أن ذلك القسم بالذات ، يعتبر أكثر أقسام مدرسة المخابرات سرية وخصوصية ، ولا يتسنى دخوله إلى لعدد محدود للغاية ، وعبر إجراءات أمنية صارمة ، يخضع لها الجميع بلا استثناء ، وتتكرَّر فى كل مرة ، دون كلل أو ملل ..

وإذا ما أمكنك دخول ذلك القسم ، فسيبدو لك وكأنك قد انتقلت فجأة من (القاهرة) إلى (تل أبيب) بقفزة واحدة ، فكل شىء هناك يتبع النظام الإسرائيلى بدقة مدهشة ، فلافتات الطرقات ، وإشارات المرور ، وحتى العملات المستخدمة ، كلها إسرائيلية ، وكل من فى القسم يتحدثون العبرية فقط ، حتى فى أحاديثهم الهاتفية ، ومن المحظور تمامًا التحدُّث بأية لغة أخرى ، وبالذات اللغة العربية ، مهما كانت الأسباب ..

باختصار ، كان أفراد القسم (٣ ج ا) يتعاملون طوال الوقت ، وكأنهم داخل (إسرائيل) نفسها ، بل ويتفاعلون ويفكرون بالعبرية ، وليس بالعربية ..

ومن بين كل أفراد القسم ، انتقى رجال المخابرات العامة (عمرو طلبة) بالتحديد ..

و(عمرو) هذا واحد من أكثر المتدربين فى (٣ ج ا) كفاءة ، وأكثرهم حماسًا للعمل والمغامرة ، وهناك من يهمس بأنه كان ابنًا لأحد المسئولين السابقين ، أو كبار ضباط الجيش ..

المهم أن الاختيار وقع عليه ، وتم اختباره ، وامتحانه ، وتأكد الجميع أنه الشخص المناسب تمامًا للعملية ، وبقى أن يجدوا له التاريخ المناسب تمامًا ، ليبدأ حياته وشخصيته الجديدة ..

وهذا أيضًا لم يكن سهلاً أبدًا ..

لقد راجع الرجال أكثر من ثلاثة آلاف ملف ، لكل يهودى عاش فى (مصر) ، قبل أن يلقى القدر أمامهم بأفضل تغطية ممكنة ..

(موشى زكى رافى) ..

فى أثناء البحث ، وصلتهم شهادة وفاة لشاب يهودى ، مات فى مستشفى (المبرّة) فى (طنطا) ، ولم يستدل على أهله ، لإبلاغهم بخبر وفاته ..

وبسرعة مدهشة ، وإتقان بلغ حد الكمال ، اتخذ رجال المخابرات العامة المصرية كل الإجراءات الممكنة ، لإخفاء كل

ما يشير إلى وفاة (موشى) ، وجمع كل التحريات الممكنة عنه ، فى الوقت ذاته ..

وأتت نتائج التحريات مرضية للغاية ..

لقد كان (موشى) هذا شابًا فى مقتبل العمر ، شديد الوسامة ، جميل الملامح ، وُلِدَ فى حارة اليهود القرّائين فى (القاهرة) ، وكان والده (زكى رافى) كليل البصر ، يتجر فى الأشياء القديمة ، التى يجمعها من القمامة والمخلفات ، ويقوم بفرزها فى مسكنه ، أما أمه فقد توفيت مبكرة ، وهو بعد مجرّد طفل صغير ..

ولم يحتمل (موشى) الصغير العيش طويلاً وسط أكوام القمامة ، التى تملأ جنبات المنزل ، وتزكم أنفه طوال الوقت ، ففرّ من منزل والده ، واختفى من حارة اليهود ، دون أن يعلم أحد أين ذهب ، وإن أثار اختفاؤه حزن وشفقة بعض النسوة فى الحارة ..

وانتقل الصبى من عمل إلى آخر ، ومن مهنة وضيعة إلى أخرى أكثر وضاعة ، حتى استقرّ به المقام فى (طنطا) ، حيث عمل فى مصنع الزيوت والصابون هناك ، والتحق فى الوقت ذاته بمدرسة ليلية ، تعلّم فيها شيئًا من المحاسبة ، أهّله للحصول على وظيفة كاتب فى شركة لنقل البضائع ، فى شارع (البحر) ، أحد الشوارع الرئيسية فى المدينة ، إلا أنه لم يلبث أن أصيب بمرض رئوى ، من سوء التغذية والحياة المرهقة ،

وقضى عدة شهور للعلاج ، قبل أن يقضى نحبه فى هدوء ..

أما والده ، فقد توفى بعد ثلاثة أشهر من رحيله ، وتولت الشرطة دفنه فى مقابر الصدقة ، نظرًا لعدم العثور على أى أقارب أو أبناء له ، فى ذلك الحين .

واجتمع رجال المخابرات ، ودرسوا شخصية (موشى) من كل الزوايا ، وفحصوها ، ومحَّصوها من كل الوجوه ، قبل أن يتفق رأيهم على أنها أفضل تغطية لرجلهم (عمرو طلبه) ..

وبدأت عملية تدريب (عمرو) ، على تقمُّص شخصية (موشى رافى) ، بمنتهى الدقة والانضباط ، بحيث يكاد الفتى أن ينسى اسمه الحقيقى ، ويتصوَّر أنه بالفعل (موشى زكى رافى) ..

لقد درس تفاصيل حياته بمنتهى الدقة ، وشاهد عشرات الصور لمسقط رأسه ، فى حارة اليهود ، وسافر إلى (طنطا) ، وزار مصنع الزيوت والصابون ، باعتباره مفتشًا من وزارة الصحة ، وشاهد شركة النقل فى شارع (البحر) ، واستمع إلى عشرات المحاضرات ، قبل أن يبدأ خطواته العملية ، لإثبات وتأكيد شخصيته الجديدة ..

وفى أبريل ١٩٦٩ ، ذهب (عمرو) إلى حارة اليهود ، واتجه مباشرة إلى المنزل رقم (١٩) ، الذى كان يقيم فيه (زكى رافى) ، وراح يسأل عن والده فى اهتمام شديد ، جذب إليه انتباه الجميع ، وخاصة بعض النسوة ، اللاتى

استقبلنه بفرحة حقيقية ، باعتباره (موشى) ، ولكنهن لم يخبرنه بما أصاب والده (زكى) ، وإنما طلبن منه سؤال الحاج (محمد أحمد شافعى) ، المالك السابق للمنزل ، والذى يمتلك محطة للوقود فى شارع (بورسعيد) ..

وانتظر (عمرو) الحاج (شافعى) طويلاً فى محطة الوقود ، قبل أن يرشده أحد العاملين فيها إلى منزل الحاج ، فى الطابق الخامس من عمارة (بنزايون) ، فى شارع (الأزهر) ..

وبالطبع لم يتعرَّفه الحاج (شافعى) فى البداية ، إلا أن (عمرو) أخبره أنه (موشى) ، وأنه يبحث عن والده (زكى) ، فاستقبله الرجل فى ترحاب ، وصدَّق روايته على الفور ، ثم أفضى إليه بنبأ وفاة والده ، ومن المؤكد أن (عمرو) كان ممثلاً بارعًا للغاية ، إذ إن حزنه وبكاءه على والده المزعوم ، جعل الحاج يتأثَّر جدًا ، ويعرض عليه كل مساعدة ممكنة ، إلا أن (عمرو) اكتفى بتجفيف دموعه ، وغادر المنزل بلا رجعة ..

وفى اليوم التالى مباشرة ، قتل (عمرو) نفسه بحثًا عن متعلقات والده ، التى انتقلت إلى عهدة الحكومة ، والتى لم تزد على بطاقة شخصية ، وصورة لطفل صغير ، ومبلغ لا يستحق الذكر ..

ومع الغوص فى الروتين وتعقيداته ، استعاد (عمرو) تلك المتعلقات التافهة فى أوائل مايو ؛ ليبدأ معها المرحلة الأخيرة من الاختبارات ، قبل أن يبدأ مهمته ..

وكانت تلك المرحلة هى الأكثر صعوبة ، فى سلسلة الاختبارات ، التى تعرَّض لها الشاب ، إذ لم يكتف مدربوه بإعادة التدريبات منذ بدايتها ، بمنتهى الدقة والإصرار ، وإنما أضافوا إليها تدريبًا شاقًا جديدًا ؛ إذ كان يتمّ إيقاظ الشاب فى أية لحظة ، من الليل أو النهار ، وسؤاله عن اسمه وهويته ، لضمان تقمّصه التام للشخصية ، على نحو لا يسمح بحدوث أية أخطاء ، مهما كانت الظروف والملابسات ..

وأخيرًا ، اجتاز الشاب الاختبارات الأخيرة فى نجاح ، واستعدّ لبدء مهمته ..

وعلى عكس ما سيتصوَّر الجميع ، لم يسافر الشاب إلى (إسرائيل) .

لقد حصل على وثيقة سفر رسمية ، بناءً على ما جمعه من أوراق ، باسم (موشى زكى رافى) ، وغادر (مصر) فى الحادى والثلاثين من مايو ، عام ١٩٦٩ م ، متوجِّهًا إلى (أثينا) ، ومنها إلى (كوالالمبور) ، عاصمة (الملايو) ..

وفى (كوالالمبور) ، بدأ (موشى) اليهودى عملية البحث عن عمل ، وحاول فى استماتة الحصول على وظيفة فى شركة (تاى هونج) للبسكويت ، ولكنه لم ينجح فى هذا ، فقضى ما يقرب من الشهرين عاطلاً عن العمل ، وراح يتردَّد طوال تلك الفترة على مقهى متواضع ، يرتاده الباحثون عن العمل باستمرار ، ويدعى (هنج كى) .

وفى ذلك المقهى ، التقى (موشى) بالإسرائيلى (تصادوق) ..

و(تصادوق) هذا بحَّار من بحارة السفينة الإسرائيلية (شيقمة) ، وهو شخص ودود ، بسيط ، سكير ، يهوى العبث والفجور ، ويتنفسهما مع كل مساء ، ولقد راقت له وسامة (عمرو) وملامحه الهادئة ، فارتبط معه بصداقة محدودة ، ثم لم يلبث أن راح يغريه بالسفر إلى (إسرائيل) ، والشاب يبدى عدم اهتمامه ، أو رغبته فى الهجرة إلى هناك .

وازداد إلحاح (تصادوق) ، وبدا له وكأن (موشى رافى) قد بدأ يميل إلى الفكرة ، وخصوصًا مع عجزه عن الحصول على عمل دائم فى (كوالالمبور) ، فأخذ يزيِّن له الأمر ، ويصف (إسرائيل) وكأنها الجنة الموعودة ، حتى أعلن الشاب موافقته أخيرًا ، وأكَّد أنه سيسافر إلى (إسرائيل) للتجربة فحسب ، وسرعان ما قرن القول بالفعل ، ووصل فى صباح التاسع من أغسطس إلى ميناء (حيفا) ، حيث سجَّل اسمه كمهاجر جديد ، وحصل على خطاب من وزارة الهجرة ، وقيَّد اسمه فى مكتب المهاجرين ، التابع للوكالة اليهودية ، وقضى أسبوعين جوَّل خلالهما فى (إسرائيل) ، قبل أن ينفذ أوامر رءوسائه ، ويعود مرة أخرى إلى (أثينا) ..

ولأن (عمرو) عميل مخابرات محترف ، تلقَّى تدريبات على أعلى مستوى ، فقد كان يتميَّز بأهم عاملين من عوامل نجاح أى عميل سرى ..

الهدوء .. والصبر ..

لذا ، فلم يسأل (عمرو) قط عن سبب عودته إلى (أثينا) ، ولم يبد أدنى ضجر أو ملل ، وهو يقضى فيها ستة أشهر كاملة ، قبل أن يتلقى أمرًا بالرجوع مرة أخرى إلى (إسرائيل) ..

وفى هذه المرة ، دخل (عمرو) إلى (إسرائيل) كمهاجر رسمى ، وراح ينهى إجراءاته القانونية فى وزارة الهجرة ، ويجتاز هذه المرة اختبارات من نوع جديد ..

إجراءات لا يؤدى الفشل فيها إلا لنتيجة واحدة ..

الإعدام ..

وبلا رحمة ..

وعلى الرغم من صعوبة الإجراءات والاختبارات ، ودقة الأسئلة والاستجوابات ، فقد اجتاز الشاب هذه المرحلة فى نجاح ، وخرج من وزارة الهجرة ليبدأ حياته الجديدة ، ومهمته الجديدة ..

فى قلب العدو ..

★ ★ ★

أوّل درس تعلّمه (موشى) فى (إسرائيل) ، هو أنها ليست ـ على الإطلاق ـ أرض الميعاد والأحلام ، التى تتحدّث عنها الدعايات اليهودية ، فقد رأى بعينيه علامات البؤس والشقاء ، على وجوه المهاجرين ، والموظفون يطوّحونهم ، من مكتب إلى آخر ، قبل أن يحصلوا فى النهاية على قرض ضئيل ،

لا يكاد يكفى لحياة متدنية ، لشهر أو شهرين ، وخاصة اليهود الشرقيين (السفرديم) ، الذين يتعلمون ، منذ اللحظة الأولى ، أنهم سيظلون أبدًا الطبقة الأدنى ، ولن يتساوى أحدهم قط مع فئة اليهود الغربيين الممتازة (الاشكنزيم) ..

أما الدروس التالية مباشرة ، فقد كانت دروس اللغة العبرية ..

وكم عانى الشاب ، وهو يحضر تلك الدروس المسائية فى انتظام ، متظاهرًا بصعوبة فهم اللغة العبرية ، التى يجيدها إجادة تامة ، تتيح له التحدث بها ، وقراءتها ، وحتى التفكير بحروفها وكلماتها ، وجملها الطويلة ..

وبعد شهر بدا أشبه بدهر كامل ، انتهى الشاب من دروس العبرية ، وحصل على شهادة فيها بدرجة جيِّد ، ثم سافر إلى (القدس) ، بحثًا عن عمل مجز ، بعد أن انتهى قرضه أو كاد ..

وفى (القدس) ، كان الشاب أسعد حظًا ، إذ حصل على وظيفة كتابية فى مستشفى (أتنيم) ، صار يقضى فيه يومه كله ..

ومصطلح (يومه كله) هذا لا يحمل أدنى مبالغة ، إذ إن الشاب لم يكن يمتلك ، من راتبه وبقايا القرض ، ما يكفى لاستئجار مسكن بسيط ، لذا فقد كان يقضى نهاره كله فى العمل ، وليله كله مستلقيًا فوق مقعدين باليين ، فى مطبخ المستشفى ..

ولقد أثار هذا شفقة طبيب أمريكى ، يدعى (مورتن فيكسبرت) ، كان قد باع منزله فى (نيويورك) ، وهاجر إلى

(إسرائيل) ، مبهورًا بالدعاية اليهودية ، ثم لم يجد أمامه سوى وظيفة بسيطة ، فى ذلك المستشفى المتواضع ..

ولأن (مورتن) هذا كان يشعر بمعاناة المهاجرين الجدد ، فقد تأثَّر بموقف الشاب ، ودعاه للإقامة فى حجرة صغيرة ، ملحقة بجراج منزله ، الكائن فى ١٣ شارع (آحاد ها عام) ، وسط حى (تليبيا)، ولقد قدَّر (موشى) هذه الخدمة جيِّدًا ، وارتبط بعلاقة صداقة مع (مورتن) ..

ولكن الصداقة لم تدم طويلاً ، إذ سرعان ما سئم (مورتن) هذا النمط من الحياة ، واتخذ قراره بالعودة إلى (نيويورك) ، وبدء حياته من جديد هناك ، بعد أن يئس من تحقيق أى نجاح يُذكر ، فى أرض الميعاد ..

وبعد رحيل (مورتن) ، انتقل الشاب إلى (تل أبيب) ، سعيًا وراء فرصة عمل أفضل ، وهناك ، كانت وسامته المفرطة هى جواز مروره إلى قلب عجوز شمطاء ، تمتلك دارًا للنشر ، وتدعى (شوشانا بيرسولتز) ، فألحقته بالعمل لديها ، كاتبًا للحسابات ، لقاء راتب معقول ، وهى تتطلَّع أكثر ما تتطلَّع ، إلى وسامته وملاحته ، وقامته الممشوقة ..

وقبل مرور شهر واحد ، على عمله فى دار (أوماتوت) المحدودة للنشر ، كانت (شوشانا) قد قرَّرت كسر كل الحواجز ، والإعلان عن مقصدها مباشرة ، كما تملى عليها طبيعتها السوفيتية الأوكرانية الجافة ..

وفى نهاية عام ١٩٧٠ م ، وجد الشاب نفسه مدعوًا للانتقال إلى منزل (شوشانا) والإقامة فيه بصفة دائمة ..

وقد كان ..

والمضحك أن الشاب قد اعتبر علاقته بتلك العجوز نوعًا من التضحية ، التى تقتضيها مهمته ، فى قلب العدو ، وتحتمها طبيعة الشخصية التى يتقمصها ..

ولكن الأمر لم يقتصر على (شوشانا) ، التى بلغ نهمها للحب حدًا ضاق به الشاب وكرهه ، إذ لم تلبث ملاحته ووسامته أن جذبت إليه صيدًا جديدًا ..

وكانت عجوزًا متصابية أيضًا ، إلا أنها كانت على قدر من الجمال ، جعلها تبدو أشبه بالإلهة (فينوس) نفسها ، مقارنة بالشمطاء (شوشانا) ..

ولقد لمحت تلك الجديدة (سوناتا فيرد) الشاب ، وهو يضرب على الآلة الكاتبة ، وبهرتها وسامته ، فاتجهت إليه فى دلال ، وانحنت تسدل شعرها الأشقر الناعم على وجهه ، وتدفع رائحتها العطرة فى أنفه وعروقه وأعصابه ، بحجة متابعة ما يكتب ، واختبار براعته فى الضرب على الآلة الكاتبة ..

وشعر الشاب بالكثير من القلق هذه المرة ، فتلك المرأة (سوناتا) لم تكن امرأة عادية ، فهى زوجة الدكتور (لينتال) ، رجل المجتمع الشهير ، ثم إنها ـ وإلى جوار هذا ـ عضو بارز فى (الكنيست الإسرائيلى) ..

ولكن (سوناتا) نفسها لم تبال بهذا ، لقد وقعت أسيرة سحر الشاب ، وخفق له قلبها ، ولم يعد باستطاعتها مقاومة مشاعرها نحوه ، لذا فقد واصلت زيارة دار النشر ، وراحت تتقرب من الشاب أكثر وأكثر ، بحجة زيارة صديقتها (شوشانا) ..

ولكن حقيقة الأمر لم تخف على عاشقة محنكة مثل (شوشانا) التى أدركت على الفور أن صديقتها تسعى خلف فتاها ، فاندفعت تدافع عنه ، وتقاتل لاستعادته ، ولكنها انتبهت فجأة إلى أنها قد تحركت بعد الأوان ، وأن (موشى) و(سوناتا) صارا عشيقين بالفعل ..

وثارت (شوشانا) ، وهاجت ، وأرغت وأزبدت ، كما يقولون فى الروايات القديمة ، وصرخت فى وجه (موشى) ، ولكنه صفعها على وجهها فى صرامة ، ولملم أوراقه ليغادر دار النشر ، قبل أن تطرده هى فى غضب وثورة لا مثيل لهما .

ولم يبال الشاب كثيرًا بما حدث ، وواصل علاقته بصديقته الجديدة ، التى ثار زوجها الدكتور (لينتال) ثورة عارمة ، إثر الفضيحة التى أثارتها (شوشانا) ، وطالبها بترك (تل أبيب) ، والعودة معه إلى (الكيبوتز) ، الذى كانا يعيشان فيه ، إلا أنها رفضت هذا الأمر تمامًا ، وتصدت لثورة زوجها فى صرامة عجيبة ، تعود إلى أصلها البافارى الألمانى ، ثم لم تلبث أن اتخذت خطوة أكثر جرأة وتهورًا ، فراحت تلتقى بالشاب فى

أماكن عامة ، وتصطحبه إلى كل حفل تُدعى إليه ، كما لو أنها تعلن للعالم أجمع كونها عشيقته ، دون أدنى إحساس بالحياء أو الخجل ..

وكانت فرصة مثالية للشاب ، للاختلاط بعلية القوم ونجوم المجتمع الإسرائيلى ، والتوغل فى أعماق ساسته ومسئوليه ..

وتفتحت شهيته بشدة لجمع المعلومات ، وإرسالها إلى (القاهرة) ، إلا أنه تذكر جيدًا ذلك الأمر الصارم ، الذى وجهه إليه رؤساؤه فى (القاهرة) ، قبل أن تبدأ مهمته ..

لا ينبغى أن يتحرك أو ينشط قط ، إلا إذا تلقى أمرًا مباشرًا بهذا ..

مهما كانت خطورة ما يراه أمامه ..

ومهما بلغت سرية ما لديه من معلومات ..

هذا لأن (عمرو طلبة) كان من ذلك الطراز من الجواسيس ، الذى يُطلق عليه اسم (الجاسوس النائم) ، وهو جاسوس خاص ، يتم زرعه فى أحد مواقع العدو ، بحيث يتدرّج فيه على نحو طبيعى ، دون أن يثير أية شبهات أو اهتمامات ، حتى إذا بلغ الموقع المناسب ، أو حانت اللحظة المنشودة ، يتم إيقاظه ، وتنشيطه ، للحصول على أفضل نتائج ممكنة ، من شخص لم يعد موضع شبهات على الإطلاق ..

لذا ، كان على الشاب أن يكتفى بعلاقته بنائبة (الكنيست) ، دون أن يبدى أدنى اهتمام بما يحدث حوله ، أو يسعى للحصول على أية معلومات ، مهما كانت قوتها ..

ولكن هذا الحال لم يدم إلى الأبد ، فسرعان ما تلقى (موشى زكى رافى) خطاب التجنيد الإجبارى ، كأى مهاجر جديد ، طبقًا لقانون الهجرة الإسرائيلى ..

ولم يعارض الشاب الأمر ، وإن طلب من صديقته أن تتوسّط له ، لدى بعض أصحاب النفوذ من أصدقائها ، حتى يلتحق بوحدة عسكرية قريبة ، وألا يتم إرساله إلى خطوط المواجهة ، حيث القلق والخوف والخطر ..

ولم تكن (سوناتا) بحاجة لهذه التوصية ، إذ إنها لم تكن لتحتمل غياب الشاب عنها يومًا واحدًا ولهذا فقد سعت لدى صديقها الواسع النفوذ (آل) ، والذى استغلّ اتصالاته ، وأبقى الشاب داخل (تل أبيب) ، حيث تم إلحاقه بإدارة البريد العسكرية ..

وكان هذا أكثر بكثير مما يمكن أن يحلم به (موشى) ..

ولقد برع كثيرًا فى وظيفته هذه ، دون أن يحاول استغلال موقعه ، أو جمع أية معلومات ، مهما كانت الظروف ..

واجتاز الشاب هذا الاختبار الجديد أيضًا بنجاح ، وحظى بإعجاب رءوسائه الإسرائيليين ، واحترامهم ، و .. وثقتهم ..

وهذا هو المهم ..

وعندما انتهت فترة التجنيد الإجبارية ، وكان الشاب بلا وظيفة معروفة ، فقد رحّب بالانضمام إلى قوات الجيش العاملة ، والبقاء فى نفس منصبه ، فى إدارة البريد ..

وعندئذ .. عندئذ فقط ، وصلته تلك الرسالة من (أثينا) ..

رسالة بريئة المظهر والمضمون ، مكتوبة بالحبر العادى ، وبدون استخدام أية أحبار سرية معروفة أو مستحدثة ، يوحى كل ما فيها بأن مرسلها شاب يونانى ، ارتبط به (موشى) بصداقة وثيقة ، فى أثناء وجوده فى (أثينا) ، وقبل وصوله كمهاجر إلى (إسرائيل) ..

كل ما فى الأمر ، أن الرسالة قد انتهت بعبارة تقليدية ، تقول : « صديقك إلى الأبد (يورغو) » ..

وكانت هذه هى كلمة السر المتفق عليها ..

وعود الثقاب ، الذى أشعل فتيل الجاسوس النائم ..

وأيقظه ..

ولا أحد يمكنه أن يتصوّر مدى انتعاش الشاب ، عندما تلقى تلك الرسالة ، التى انتظرها كثيرًا وطويلاً ، ولا كيف تفجَّر فيض من النشاط بعدها فى عروقه ، فاندفع يجمع ويلتقط كل ما يقع تحت يديه من معلومات ، فى نهم شديد ، فى انتظار إرساله إلى (القاهرة) ..

وفى الربع الأخير من عام ١٩٧٢ م ، تلقَّى الشاب هدية أنيقة من صديقه اليونانى (يورغو) فى عيد مولده ، وهى عبارة عن علبة أدوات حلاقة أنيقة ، تحوى داخلها بعض الشفرات الجديدة ، وماكينة حلاقة تحمل بحروف أنيقة اسم (موشى رافى) ..

وفى حجرته الخاصة ، وفى أثناء غياب (سوناتا) ، قام الشاب المدرَّب بفك أجزاء أدوات الحلاقة ، وإعادة جمعها على نحو خاص ، حتى تكوَّن لديه جهاز إرسال واستقبال دقيق ، ثم لم يلبث أن استعان بعدسة قوية ، لنقل الشفرة المحفورة بدقة بالغة ، على حافة الأمواس ..

وبدأت (القاهرة) تتلقَّى سيلاً من المعلومات ، على نحو جعلها تطلب من الشاب التريث قليلاً ، حتى لا ينكشف أمره ..

ولكن المهم أن رجال المخابرات المصرية صاروا على اطلاع تام ؛ بكل ما يتم تبادله عبر البريد العسكرى ، مهما كانت درجة سريته ، عبر إدارات ووحدات الجيش الإسرائيلى ..

ولكن فجأة ، وبدون سابق إنذار ، وصل للشاب أمر صارم ، أدهشه بشدة ..

لقد أمره رؤساؤه بإثارة غضب (سوناتا) .. وبأعنف وسيلة ممكنة ..

ولم يكن هذا بالأمر العسير ، وكعادته ، لم يسأل الشاب الرؤساء عن سبب هذا الأمر ، وإنما انتقى سمراء فاتنة ، وغزل خيوطه حولها ، ثم لم يلبث أن اصطحبها إلى منزل (سوناتا) ، وفى فترة عودة هذه الأخيرة بالتحديد ..

وعادت عضو (الكنيست) إلى منزلها ، لتجد صديقها فى فراشها ، مع تلك السمراء الفاتنة ..

وجاء دور (سوناتا) لتثور وتصرخ وتغضب ..

وكما فعل الشاب مع (شوشانا) من قبل ، صفع (سوناتا) على وجهها ، ثم اصطحب رفيقته الجديدة ، وغادر المنزل كله ..

وانهارت الإسرائيلية بعض الوقت ، ثم لم تلبث روح الغضب والثورة فى أعماقها أن تحوّلت إلى رغبة عارمة فى الانتقام ، فأسرعت إلى صديقها (آل) ذى النفوذ ، وطلبت منه أن ينقل الشاب الجاحد من (تل أبيب) ، إلى أقرب نقطة لخط المواجهة ..

وهكذا ، وقبل مضى أسبوع واحد ، كان الشاب قد انتقل من إدارة البريد المركزية ، ليعمل كرقيب للبريد العسكرى ، فى مركز العمليات فى (أم مرجم) ..

وكان هذا بالضبط ما تسعى إليه المخابرات المصرية ..

أن يتم نقل جاسوسها رقم ألف وواحد ، إلى الخطوط الأمامية للعدو الإسرائيلى مباشرة .

ومن موقعه الجديد هذا ، راح الشاب يجمع كل ما يمكنه من معلومات ، بالغة الأهمية والخطورة ، عن الجبهة الإسرائيلية ..

تحركات القوات ..

خطوط الدفاع .. وأماكن الأسلحة ..

تنظيمات القتال .. ومناطق تمركز المدرعات والمدفعية ..

مصادر التموين .. مواضع الوحدات ومراكز القيادة ..

أسماء الضباط والجنود ..

كل شىء ..

وعبر الأثير ، راحت رسائله اللاسلكية المشفّرة تنتقل إلى

(القاهرة) ، حاملة فيضًا لا ينقطع من المعلومات ، على نحو احتاج إلى إدارة كاملة لتنسيقه ومتابعته وتحليله ..

كان من الواضح أن الشاب شغوف للغاية بموقعه الجديد ، وأنه شديد الحماس لعمله ، إلى حد لم يعد فيه مكان للخوف أو القلق ..

والعجيب أنه ظل ، وحتى اندلاع الحرب ، مصدر ثقة كل من عملوا إلى جواره ، من ضباط وجنود الجيش الإسرائيلى ، بل وكان الوحيد المسموح له بفحص وتأمين الخطابات ، الواردة أو الصادرة من وإلى القيادة العامة فى (تل أبيب) ..

ومع المعلومات الواردة ، راح الرجال فى (القاهرة) يعيدون دراسة خرائط الجبهة ، وتقييم الموقف الأمنى والعسكرى هناك ، وتم تعديل بعض الخطوط ، وتطوير البعض الآخر ، ووضع علامات جديدة فى بعض الأماكن ..

ومضت الأيام فى سرعة ..

واقتربت ساعة الصفر ..

ساعة المعركة ..

★ ★ ★

فى تمام الثانية إلا عشر دقائق ، بعد ظهر السبت ، السادس من أكتوبر ، ١٩٧٣ م ، صدر الأمر بإنهاء مهمة الجاسوس رقم ألف وواحد ، قبل أن تبدأ حرب التحرير الشاملة ..

وفى الثانية إلا خمس دقائق بالضبط ، تلقى (عمرو طلبة) أمرًا مباشرًا من القيادة فى (القاهرة) ، بالتوجه إلى المبنى الخشبى ، الذى تحتله النقطة الطبية فى (أم مرجم) والمقام على تبة متوسطة الارتفاع ، على مسافة مائتى متر من غرفة العمليات ، التى كانت الهدف الأول لغارات الطيران ، عندما اندلعت الحرب ..

وفى الوقت ذاته ، تلقى كل طيارى الضربة الجوية الأولى ، الذين سيحلقون فوق تلك المنطقة ، أمرًا حازمًا بعدم قصف النقطة الطبية فى ذلك الموقع ، مهما كانت الأسباب ..

وعندما استقبل الشاب هذا الأمر ، أدرك على الفور أن الحرب وشيكة ، وأنه لن تمضى دقائق معدودة ، حتى تهوى القذائف المصرية على غرفة العمليات الإسرائيلية كالمطر ..

وعلى الرغم من هذا ، فلقد خالف الشاب الأوامر ، لأول مرة فى حياته ، ورفض مغادرة موقعه ، إيمانًا منه بأنه يستطيع تقديم خدمة ممتازة للقوات المصرية ، بتوجيه الضربات عبر اللاسلكى ، من مكانه هذا ..

وفى الثانية بالضبط ، بدأت الضربة الجوية الأولى ، وقفز حماس الشاب ونشاطه إلى أوجهما ، حتى إنه ارتكب خطأ عجيبًا ، وتجاهل الشفرة تمامًا ، وراح يرسل برقياته على نحو

واضح مباشر ، وكأنما أدرك أنه لم يعد هناك مبرر للتوارى ، وقد اشتعل الموقف بالفعل ..

وفى مركز القيادة ، فى المخابرات العامة ، فوجئ الرجال ببرقية عاجلة مباشرة ، من الجاسوس رقم ألف وواحد ، تحمل تقريرًا عن نتائج قصف غرفة العمليات الإسرائيلية ، وكان هذا فى الثانية والنصف وخمس دقائق ..

وطلب الرجال من (عمرو) مغادرة موقعه بأقصى سرعة ، إلا أنه لم يلبث أن أرسل برقية عاجلة أخرى ، يقول فيها إن فرقته تلقت أمرًا بالانتقال إلى المواقع الأمامية ، فأبرقت إليه إدارة الجاسوسية ، تطلب منه تحديد مسار القافلة ، وأتاها الرد بأن القافلة تتجه نحو القنطرة شرق ، وأنه سيرسل المزيد من المعلومات فيما بعد ، ثم أعطى صورة دقيقة للقتال ، وصوت القنابل ودوى الانفجارات يغطى معظم مقاطع صوته ، الذى امتلأ باللهفة والحماس ، على نحو فاق كل المرات السابقة ..

وبعدها انقطع الإرسال تمامًا ، وتوقفت برقيات (عمرو) ..

وانطلق النداء عبر الأثير .. « أجب يا ألف وواحد .. أجب » .

ولكن الجاسوس رقم ألف وواحد لم يلبّ النداء قط ..

هذا لأن دماءه الطاهرة كانت تروى رمال (سيناء) الحرة ،

معلنة النهاية الفعلية لواحدة من أكبر عمليات الجاسوسية ، فى مرحلة الإعداد لحرب أكتوبر ، ونهاية واحد من أبرع وأفضل الجواسيس ، الذين عرفتهم (مصر) ..

الجاسوس رقم ألف وواحد .

★ ★ ★

صفر .. صفر .. سبعة ..

(دراسة)

خيّم ظلام تام رهيب ، على تلك المنطقة المقفرة ، وسط ثلوج جبال (سويسرا) ، حيث انخفضت درجات الحرارة إلى عشر درجات تحت الصفر ، وبدا المشهد أشبه ببساط أبيض ، يفرش كل شيء ، ويمتدّ وسط الغابات الخالية ، إلا من كوخ صغير أضيئت نافذته ، وظهر من خلفها ظل رجل ، انهمك فى معالجة خزانة فولاذية ، أخفيت بمهارة فائقة ، فى الجدار الخشبى السميك للكوخ ..

وتقترب الصورة فى سرعة ، مخترقة النافذة ، ليظهر وجه الرجل فى وضوح ، وهو يلتقط ذلك (الميكروفيلم) الدقيق ، الحافل بأخطر الأسرار العسكرية السوفيتية ، من داخل الخزانة الصغيرة الخفية ، التى كشف أمرها ، ونجح فى فتحها ببراعة منقطعة النظير ..

ومن الطبيعى أن يبدو وجهه مألوفًا ..

إنه (بوند) ..

(جيمس بوند) ..

العميل السرى البريطانى رقم صفر .. صفر .. سبعة ..

ولأن الأمور لا يمكن أن تسير بهذه البساطة ، مع رجل مثل (بوند) ، فمن الضرورى أن ينقضّ جيش من القتلة المحترفين

على الكوخ ، وتنطلق الرصاصات من مدافعهم الآلية كالمطر ، فى محاولة لسحق العميل البريطانى ..

ولكن (بوند) يندفع فجأة خارج الكوخ ، مرتديًا زحافات الانزلاق على الجليد ، وينطلق بها فى مهارة مذهلة ، تستفز جيش خصومه ، الذى ينطلق خلفه فى شراسة ..

وتخفق قلوبنا فى عنف ، و (بوند) يستخدم كل مهاراته فى الانزلاق ، لدحر وهزيمة خصومه ، فيسقط العديدون منهم ، وتتناثر دماؤهم على الجليد ..

ولكن الباقين يواصلون المطاردة فى شراسة أكثر ، ويدفعون (بوند) نحو هاوية سحيقة بلا قرار ..

وتحتبس أنفاسنا جميعًا ، عندما يهوى (بوند) فى الهاوية ..

وينطلق فى رءوسنا جميعًا سؤال واحد ..

كيف يمكن أن ينجو (بوند) هذه المرة ؟!

وقبل حتى أن يكتمل تساؤلنا ، يفاجئنا (بوند) بأن الحقيبة ، التى يحملها على ظهره منذ البداية ، عبارة عن مظلة هبوط ، تعاونه على الوصول إلى القاع فى سلام ، بعد أن أراق دماء العشرات من خصومه ..

ولن يوجّه إليه أحد اللوم بالتأكيد ، على الرغم من كل ما أراقه من دماء ..

هذا لأن (جيمس بوند) أحد ثلاثة ، فى جهاز المخابرات البريطانى كله ، الذين يحملون صفرين قبل أرقامهم الكودية ..

وهذا يعنى أن صفر .. صفر .. سبعة ، مصرَّح له بالقتل .. دون إبداء الأسباب ..

هذا هو ما شاهدناه ، وذبنا فيه ، وانبهرنا به ، فى تلك الفترة من الستينات ..

مغامرات رجل المخابرات البريطانى (جيمس بوند) ..

صفر .. صفر .. سبعة ..

والواقع أن شخصية (جيمس بوند) ، التى تعتبر أشهر شخصية جاسوسية عرفتها الشاشة ، قد ظهرت للوجود قبل هذا بعدة أعوام ، عندما كتب الروائى البريطانى (إيان لانكستر فليمنج) أولى روايات (بوند) عام ١٩٥٣ ، باسم (كازينو رويال) و(إيان فليمنج) هذا بريطانى المولد ، وُلِدَ عام ١٩٠٨م، وتأثَّر بالحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) ، وقرأ كل ما كتب عنها فى طفولته وصباه وشبابه ..

وعندما بلغ الحادى والثلاثين من عمره ، اندلعت الحرب العالمية الثانية ، (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) ..

وكأى شاب بريطانى مخلص ، التحق (فليمنج) بالجيش ، ثم لم يلبث أن أصبح يحمل رتبة ملازم أوَّل ، فى المخابرات البحرية البريطانية ، حتى نهاية الحرب ..

ومن المؤكد أن الشاب قد انبهر تمامًا بعالمه الجديد هذا ، وأنه قد توغَّل فيه كثيرًا ، مما كان له أكبر الأثر فى كتاباته فيما بعد ..

والعديدون يؤكدون أن شخصية (بوند) قد وُلِدَتْ فى أعماق (إيان فليمنج) ، فى تلك الفترة بالتحديد ، ودليلهم على هذا أن (بوند) قد حمل الكثيرَ من سمات (فليمنج) نفسه ، إذ إنه أيضًا يعمل فى المخابرات البحرية البريطانية ، ويدخن فى شراهة ، ويميل إلى كوكتيل خاص من الخمور ، شغف به (فليمنج) نفسه فى حياته ..

وعندما وضع (إيان فليمنج) روايته الأولى (كازينو رويال) ، لم يكن يتوقَّع لها نجاحًا كبيرًا ..

وهذا ما حدث بالفعل ..

لقد وزَّعت القصة فى البداية كمية تقليدية ، بالنسبة لمثيلاتها ، ولكن هذا لم يمنع الناشر من التعاقد مع (فيلمنج) مرة أخرى ، لكتابة إحدى عشرة رواية لـ (جيمس بوند) بالإضافة إلى مجموعتين من القصص القصيرة ..

وكم كان هذا الناشر محظوظًا ..

فعلى الرغم من أن رواية (ماسات إلى الأبد) ، التى نشرت عام ١٩٥٦م ، قد حقَّقت نجاحًا ملحوظًا ، إلا أن رواية (دكتور نو) ، التى تلتها فى عام ١٩٥٨م ، قد انفجرت كقنبلة فى كل الأوساط الأدبية ، وأصابت الشعب البريطانى بما عرف أيامها باسم (صرعة جيمس بوند) ، إذ لم يعد هناك حديث ، فى كل الأوساط إلا عن ذلك العميل السرى البريطانى ، صاحب المغامرات التى تحبس الأنفاس ..

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن تنتقل اللهفة إلى كل روايات (فليمنج) السابقة ..

وقفزت المبيعات فجأة إلى أرقام خرافية مذهلة ، جعلت السينما تهرع إلى (إيان فليمنج) ، وتتعاقد معه على تحويل تلك الرواية ، التى كانت سبب شهرته ، إلى فيلم سينمائى ..

وهكذا ، وفى أكتوبر عام ١٩٦٢م ، ظهر للوجود أوّل فيلم من سلسلة أفلام (جيمس بوند) الشهيرة .. (دكتور نو) ..

ومع انتقال الشخصية من عالم الرواية إلى عالم السينما ، بدأت مرحلة جديدة من الانتشار ..

ومن العالمية ..

فلقد انبهر العالم ، واحتبست أنفاسه ، وهو يتابع الفيلم على الشاشة ، على الرغم من أن المخرج قد أسند دور البطولة لممثل مسرحى وسينمائى بريطانى ، لم يكن قد حقق ، حتى ذلك الحين ، أىّ نجاحات ملموسة فى العالمين ، وهو (شين كونورى) ، الذى وصفه النقاد مؤخرًا بأنه أفضل من أدّى دور (بوند) على الشاشة ..

ولقد كان اختيار المخرج حكيمًا وعبقريًا فى الواقع ، إذ إن شخصية (بوند) بكل سحرها ، كانت ستفقد الكثير من بريقها ، إذا ما ارتبطت بممثل شهير ، اعتاد الناس رؤيته فى عشرات الأدوار والمواقف المختلفة ..

لذا فقد كان الأمر يحتاج إلى وجه غير مألوف ..

وإلى مغامرة انتحارية ..

ومتهوِّرة ..

ولقد وُلِدَت شهرة (كونورى) مع سلسلة أفلام (جيمس بوند) ، حيث قدَّم بعد (دكتور نو) ، أربعة أفلام ناجحة للغاية ، وهى (من روسيا مع حبى) ، و(أصبع من ذهب) ، و(كرة السرعة) و (إنك تعيش فقط مرتين) ..

ولكن (شين كونورى) لم يشعر بالارتياح قط ، على الرغم من هذا النجاح المبهر ..

هذا لأن اسمه ارتبط والتصق باسم (جيمس بوند) ..

بل وذاب فيه أيضًا ، حتى إن معظم الناس لم تعد تخاطبه باسمه ، بل باسم (بوند) ، مما أورثه الكثير من الحنق والغضب والعصبية ، وجعله يقرِّر الانسحاب من أداء دور العميل البريطانى ، فى أواخر عام ١٩٦٨م ...

ولأن شخصية (بوند) كانت متألِّقة للغاية ، فى تلك الفترة ، فلم يكن من الممكن أبدًا أن تسمح السينما بموتها ، مع انسحاب (كونورى) ؛ لذا فقد بدأ البحث فى سرعة واهتمام عن البديل ..

والمضحك أن ذلك البديل قد ظفر بالدور ، لمجرَّد أنه يشبه (شين كونورى) فى بعض ملامحه ..

وهكذا بدأ الإعداد لفيلم (بوند) الجديد (من أجل الخدمة السرية للملكة) ، ببطل جديد ، وهو البريطانى (جورج ليزنبى) ،

الذى فشل فشلاً ذريعًا فى تقمص دور (بوند) ، حتى لقد ظفر بتقييم النقاد له ، باعتباره أسوأ من أدّى دور (بوند) على الشاشة ..

وهكذا عادت الكرة مرة أخرى إلى (شين كونورى) ، الذى قبل القيام ببطولة فيلم (ماسات إلى الأبد) ، الذى عُرِضَ فى ديسمبر ١٩٧١م ، واستعاد مرة أخرى النجاحات المذهلة المعتادة ، التى تحققها أفلام (جيمس بوند) ..

ولكن العجيب أن (كونورى) ، وعلى الرغم من كل هذا النجاح ، عاد يعلن ، وبإصرار شديد ، أنه سيعتزل نهائيًا القيام بدور (بوند) ، وأنه لن يعود إليه أبدًا ، مهما كان الثمن ..

وعاد صانعو السينما يواجهون المشكلة من جديد ..

من يمكن أن يلعب دور (بوند) على الشاشة ..

وبنجاح ..

وفى تلك الفترة ، كان هناك ممثل بريطانى آخر ، اشتهر بتقديم لون جديد من أفلام المغامرات ، على شاشة (التليفزيون) ، من خلال حلقات (القديس) ، التى نالت أيضًا شهرة واسعة ، فى (بريطانيا) والعالم ..

وهكذا اتجه المخرجون إلى ذلك الممثل (روجر مور) ، صاحب الجسد الممشوق والملامح الوسيمة ، ليحلّ محل (بوند) فى الفيلم الجديد (عش ودعهم يموتون) ، الذى تم تصويره

فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وبالاشتراك مع شركة (مترو جولدين ماير) ، كوسيلة لضمان أكبر وأفضل تمويل ممكن ..

ووضع الجميع أيديهم على قلوبهم ، عندما تم عرض الفيلم فى يونيو ١٩٧٣م، وهم يتساءلون فى قلق أقرب إلى الذعر ..

ترى هل ينجح (مور) فى سد الفراغ الكبير ، الذى تركه (كونورى) ..

ونجح الفيلم نجاحًا مبهرًا ، أثلج صدور الجميع ، ودفعهم للإسراع بالتعاقد مع (بوند) الجديد (روجر مور) ؛ لتقديم عدد جديد من أفلام الجاسوسية المبهرة ..

وهكذا عاد (بوند) إلى الشاشة ، فى (الرجل ذو المسدس الذهبى) ، و(الجاسوسة التى أحبتنى) ، و(حاصد القمر) ، و(من أجل عينيك فقط) ، و(الأخطبوط) ، و(مشهد للقتل) ..

ولكن (مور) عانى نفس ما كان يعانيه (كونورى) من قبل ..

لقد نسى الجميع أنه (روجر مور) ، وراحوا يخاطبونه باسم مستر (بوند) ..

وثار (مور) ، وغضب ، وأعلن رفضه وتمرّده على إذابة كيانه فى بوتقة (بوند) الحارقة ، على الرغم من أن (شين كونورى) نفسه ، كان قد رضخ ، إثر أزمة مالية عنيفة ، لضغوط عدد من المنتجين البريطانيين ، وقبل أن يلعب دور (بوند) مرة أخرى ، عام ١٩٨٣م ، بعد أكثر من اثنى عشر

عامًا من اعتزاله إياه ، فى فيلم اختار له كاتب السيناريو عنوانًا خاصًا ، وكأنه يعلن فيه شماتته لتراجع (كونورى) ، إذ كان اسم الفيلم هو (أبدًا .. لا تقل أبدًا مرة أخرى) ، وكأنما يذكّر (كونورى) بقوله إنه لن يعود لتمثيل دور (بوند) أبدًا ، مهما كان الثمن ..

وياليت (كونورى) ما فعل ..

لقد بدا فى الفيلم ثقيلاً مترهلاً ، بطىء الحركة ، على نحو كاد يمحو تاريخه السابق كله ..

ومن حسن حظه وطالعه ، أنه قد تدارك الأمر فى سرعة ، وأعلن هذه المرة اعتزاله التام ، وأكّد أن قيامه بالدور كان مجرّد خطأ ، لن يعود إليه قط ..

والطريف أن النقاد أنفسهم اعتبروا الفيلم مجرّد غلطة ، حتى إنهم كثيرًا ما يتغافلون عنه ، عندما يتحدّثون عن أفلام (جيمس بوند) ..

المهم أن مشكلة البحث عن بديل جديد لأداء الدور ، عادت تطفو على السطح مرة أخرى ، وبعنف ، بعد الاعتزال النهائى لـ (كونورى) ، والانسحاب الغاضب لـ (مور) ..

والعجيب أن هذه المشكلة لم تنشأ قط ، عند وفاة (إيان فليمنج) نفسه ، عام ١٩٦٤م ، قبل حتى أن يتم عرض فيلم (أصبع من ذهب) ، فقد كانت لدى الجميع حصيلة كبيرة تركها (فليمنج) خلفه ، كما أن ورثته قد سمحوا للروائى البريطانى

(جون جاردنر) باستكمال السلسلة ، كرغبة منهم فى الإبقاء على (بوند) إلى الأبد ..

وفجأة .. وبينما الجميع يفكرون ويبحثون ، أعلن مخرج أمريكى أنه قد قرّر إسناد دور (جيمس بوند) لبريطانى ثالث ، ظهر فى عدة أفلام أمريكية ، وحظى ببعض أدوار البطولة الثانية والثالثة فيها ، وهو (تيموثى دالتون) ..

وتحمّس (دالتون) كثيرًا لأداء دور (جيمس بوند) ، وأعلن أنه يحلم بأدائه منذ زمن طويل ، وأنه سيناسبه بالتأكيد ..

وفى يوليو ١٩٨٧م ، عادت أفلام (بوند) للظهور ، مع (تيموثى دالتون) ، الذى قدّم فيلمى (أضواء النهار الحية) ، و (تصريح بالقتل) ..

والمدهش أنه لم يستطع الاستمرار ، بعد هذين الفيلمين فحسب ..

بل وأعلن أن أداء دور (بوند) قد أرهقه كثيرًا ، وأنه لا يناسبه على الإطلاق ..

وهكذا عادت عمليات البحث المرهقة من جديد ..

وتصوّر الجميع أن البحث سيكون أقل إرهاقًا فى تلك الفترة ، بعد أن تراجعت الأفلام الاجتماعية كثيرًا ، وسيطرت على الشاشة الفضية .. أفلام الحركة والمغامرات ، التى برز معها فريق جديد من الممثلين مفتولى العضلات ، ضخام الأجساد ، خفيفى الحركة ..

ولكن هذا لم يكن صحيحًا ..

فشخصية (بوند) ، كما وضعها (فليمنج) ، كانت تجمع بين القوة والأناقة ، والرومانسية والقسوة ، فى مزيج عجيب ، لم يكن من السهل إيجاد من يعبِّر عنه ، وسط أفلام العنف والشراسة والدماء بلا حدود ..

إنهم يحتاجون إلى شخص أنيق وسيم ، يصلح كنجم لحفل ساهر ، ويمكنه أن يتحوَّل فى لحظة إلى مصارع شرس ، لا يحوى صدره أى قلب ينبض ..

ومرة أخرى ، كان الاتجاه إلى (التليفزيون) ونجومه ..

وهكذا تم انتقاء (بيرس بروسنان) ، بطل الحلقات الشهيرة (ريمنجتون ستيل) ، والذى كان يؤدى فيها شخصية مخبر خاص ، محاط بقدر مدهش من الغموض ، يجعله أشبه بالمحتالين والنصابين ، منه بمخبر خاص ، مهمته تحقيق العدالة ..

وقدَّم (بروسنان) شخصية (بوند) عام ١٩٩٥م ، فى فيلم (العين الذهبية) ..

وعاد النجاح المبهر ..

والإقبال منقطع النظير ..

والإيرادات الكبيرة ..

وقال أحد المسئولين : إن فيلم (العين الذهبية) قد حقَّق إيرادات تفوق مجموع ما حققته أفلام (جيمس بوند) مجتمعة ..

وربما كان هذا ما شجَّع الجميع على إنتاج الفيلم التالى لـ(بيرس بروسنان) ، والأخير فى سلسلة أفلام (جيمس بوند) ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

(الغد لا يموت أبدًا) ..

وربما كان اختيار اسم الفيلم أيضًا مقصودًا ..

فالغد لا يموت ؛ لأنه لم يولد بعد ..

ولكن الكل واثق من أن (بوند) أيضًا لن يموت ، مهما أتى الغد ، أو بعد الغد ..

هذا لأن (بوند) لم يعد مجرَّد شخصية روائية أو سينمائية ..

لقد صار أسطورة ..

والأساطير لا تموت أبدًا ..

وخاصة عندما تحمل الرقم السحرى ..

صفر .. صفر .. سبعة .

د. نبيل فاروق

★ ★ ★

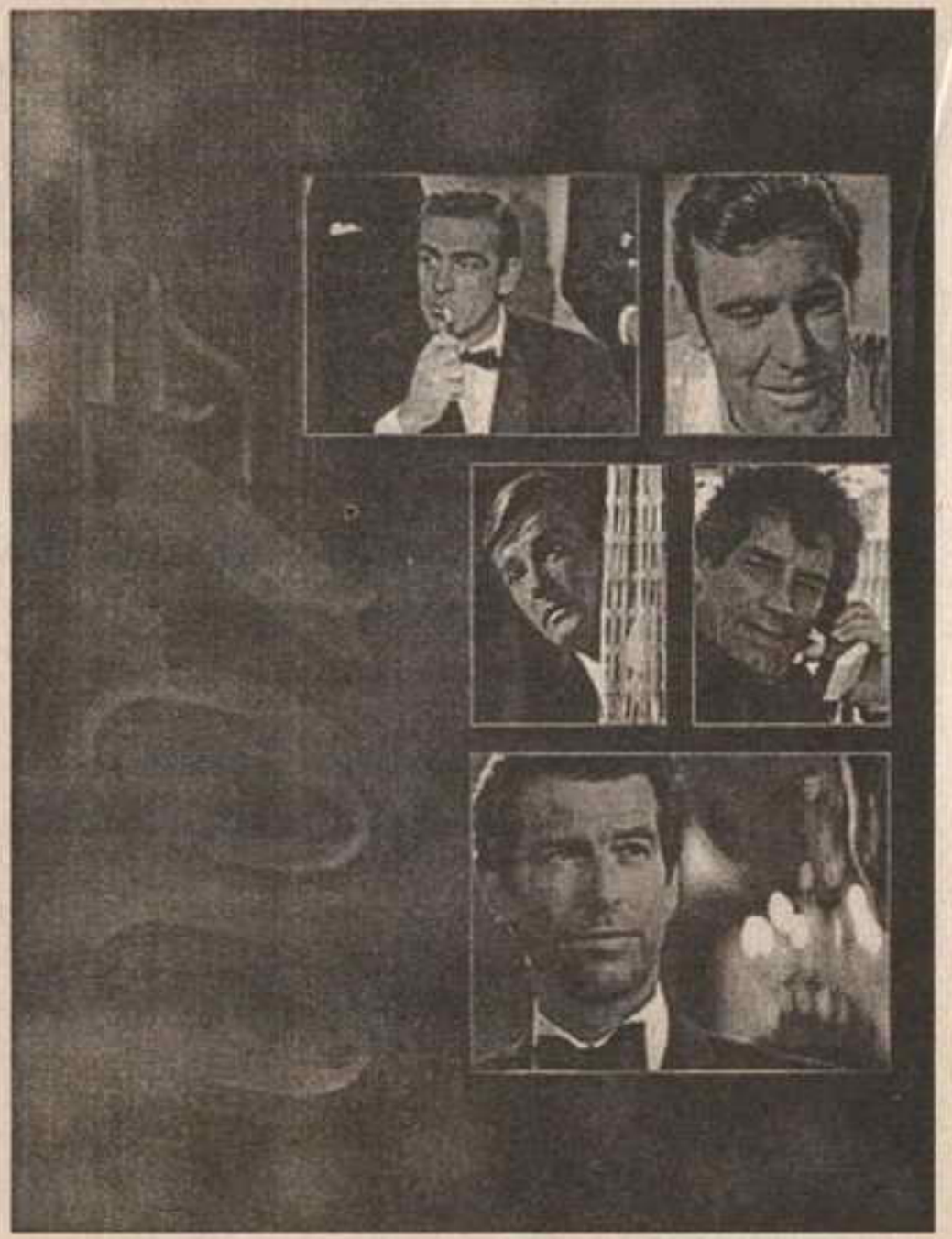

قائمة أفلام (جيمس بوند)

بطولة (شين كونورى) :

١ ـ دكتور نو (Dr. No) أكتوبر ١٩٦٢م

٢ ـ من روسيا مع حبى (From Russia with love)
سبتمبر ١٩٦٣م

٣ ـ إصبع من ذهب (Gold Finger) ديسمبر ١٩٦٤م

٤ ـ كرة الرعد (Thunder ball) ديسمبر ١٩٦٥م

٥ ـ إنك تعيش فقط مرتين (Yov only live twice)
يونيو ١٩٦٧م

٦ ـ الماسات إلى الأبد (Diamonds are Forever)
ديسمبر ١٩٧١

٧ ـ أبدًا لا تقل أبدًا مرة أخرى (Never say never again)
مايو ١٩٨٣م

★ ★ ★

بطولة (جورج ليزنبى) :

١ ـ من أجل الخدمة السرية للملكة .

(On her majesty's secret service) ديسمبر ١٩٦٩م

★ ★ ★

بطولة (روجر مور) :

١ ـ عش ودعهم يموتون (Live and let die)
يونيو ١٩٧٣م

٢ ـ الرجل ذو المسدس الذهبى
(The man with golden gun) ديسمبر ١٩٧٤م

٣ ـ الجاسوسة التى أحبتنى (The sop who loved me)
يوليو ١٩٧٧م

٤ ـ حاصد القمر (Moon raker) يونيو ١٩٧٩م

٥ ـ من أجل عينيك فقط (For your eyes only)
يونيو ١٩٨١م

٦ ـ الأخطبوط (Octopussy) يونيو ١٩٨٣م

٧ ـ مشهد للقتل (A view to Akill) مايو ١٩٨٥م

بطولة (تيموثى دالتون) :

١ ـ أضواء النهار الحية (The living daylights)
يوليو ١٩٨٧م

٢ ـ تصريح بالقتل (Licene to kill) يوليو ١٩٨٩م

★ ★ ★

بطولة (بيرس بروسنان) :

١ ـ العين الذهبية (Golden eye) نوفمبر ١٩٩٥م

٢ ـ الغد لا يموت أبدًا (Tomorrow never dies)
ديسمبر ١٩٩٧م

★ ★ ★

سرى للغاية ـ ٢

المخابرات السوفيتية (K.G.B)

ـ اسمها عبارة عن الأحرف الأولى من عبارة (لجنة أمن الدولة) .

(Komitet Gosuder stvennoy Bezopasnosti)

ـ ظهرت مع الثورة البلشيفية عام ١٩١٧م ، باسم (تشكا) (Tch êka) ، كجهاز أمنى لحماية الثورة ، وكشف ألاعيب أعدائها ، ثم لم تلبث أن تطوَّرت كجهاز أمنى ، حتى أصبحت المسئولة عن الأمن الداخلى للاتحاد السوفيتى ، فى الفترة من ١٩٦٠م ، وحتى ١٩٦٦م ..

ـ مهمتها تتضمَّن مكافحة التجسُّس الداخلى ، وجمع المعلومات الأجنبية وتحليلها ، والتخابر المضاد فى الجبهة العسكرية ، وأمن الدولة وأراضيها وحدودها البرية والبحرية ، والتحكم فى الأسلحة النووية ، واتصالات القيادة القومية ، والإشراف على حراسة (الكريملين) ، مقر الحكم فى الاتحاد السوفيتى ..

ـ فى أكتوبر ١٩٩١م ، انتهت الـ (K.G.B) رسميًا ، وانتقلت بالوراثة إلى (روسيا) ، كجزء من التركة ، بعد الانهيار الاقتصادى ، وإعلان سقوط الاتحاد السوفيتى رسميًا ، وأصبحت تحمل اسم جهاز المخابرات الروسي (S.V.R) ..

ـ تعتبر أكبر وكالة مخابرات وأمن (سابقًا) ، إذ بلغت ، فى أوجها ، حجمًا يفوق حجم كل أجهزة المخابرات الغربية مجتمعة ..

تطـور الـ K.G.B

ديسمبر ١٩١٧ تشكا (Tchêka)

⇩

فبراير ١٩٢٢ ألحقت بالـ N.K.V.D (باسم الـ G.P.U)

⇩

يوليو ١٩٢٣ O.G.P.U

⇩

يوليو ١٩٣٤ أعيد دمجها بالـ N.K.V.D (باسم الـ G.U.G.B)

⇩

فبراير ١٩٤١ N.K.G.B

⇩

يوليو ١٩٤١ أعيد دمجها بالـ N.K.V.D (باسم G.U.G.B)

⇩

أبريل ١٩٤٣ N.K.G.B

⇩

مارس ١٩٤٦ M.G.B

⇩

أكتوبر ١٩٤٧ جاسوسية فى الخارج

نوفمبر ١٩٥١ تم تحويلها إلى (K.I)

⇩

مارس ١٩٥٣ دُمجت مع الـ M.V.D
لتشكل M.V.D موسَّعة

⇩

مارس ١٩٥٤ K.G.B (أمن الدولة)

⇩

ديسمبر ١٩٩١ S.V.R (وكالة المخابرات الروسية)
F.S.K (نشاطات الجاسوسية المضادة)
S.B.P (نشاطات أمن الرئاسة ونشاطات الاتصال الموجودة فى K.G.B سابقًا)

★ ★ ★

رؤساء الـ (K.G.B)

١ ـ من مارس ١٩٥٤ إلى ديسمبر ١٩٥٨
آى. إيه. سيروف
٢ ـ من ديسمبر ١٩٥٨ إلى نوفمبر ١٩٦١
إيه. إن. شيليبين
٣ ـ من نوفمبر ١٩٦١ إلى أبريل ١٩٦٧
فى. واى. سيمتشاستنى
٤ ـ من مايو ١٩٦٧ إلى مايو ١٩٨٢ يو. فى. أندوبوف
٥ ـ من مايو ١٩٨٢ إلى ديسمبر ١٩٨٢ فى. فيدورشك
٦ ـ من ديسمبر ١٩٨٢ إلى أغسطس ١٩٨٨
فى. إم. شيبرريكوف
٧ ـ من أغسطس ١٩٨٨ إلى أغسطس ١٩٩١
فى. إيه. كريشوف
٨ ـ أغسطس ١٩٩١ ليونيد شيبارشين
٩ ـ من أغسطس ١٩٩١ إلى أكتوبر ١٩٩١ فاديم باكتين
١٠ ـ من أكتوبر ١٩٩١ إلى ديسمبر ١٩٩١
يوفجينى بريماكوف

رئيس الـ (S.V.R)
١١ ـ من ديسمبر ١٩٩١ إلى ٩ يناير ١٩٩٦
يوفجينى بريماكوف

★ ★ ★

الهيكل التنظيمى للمخابرات الروسية

(K.G.B)

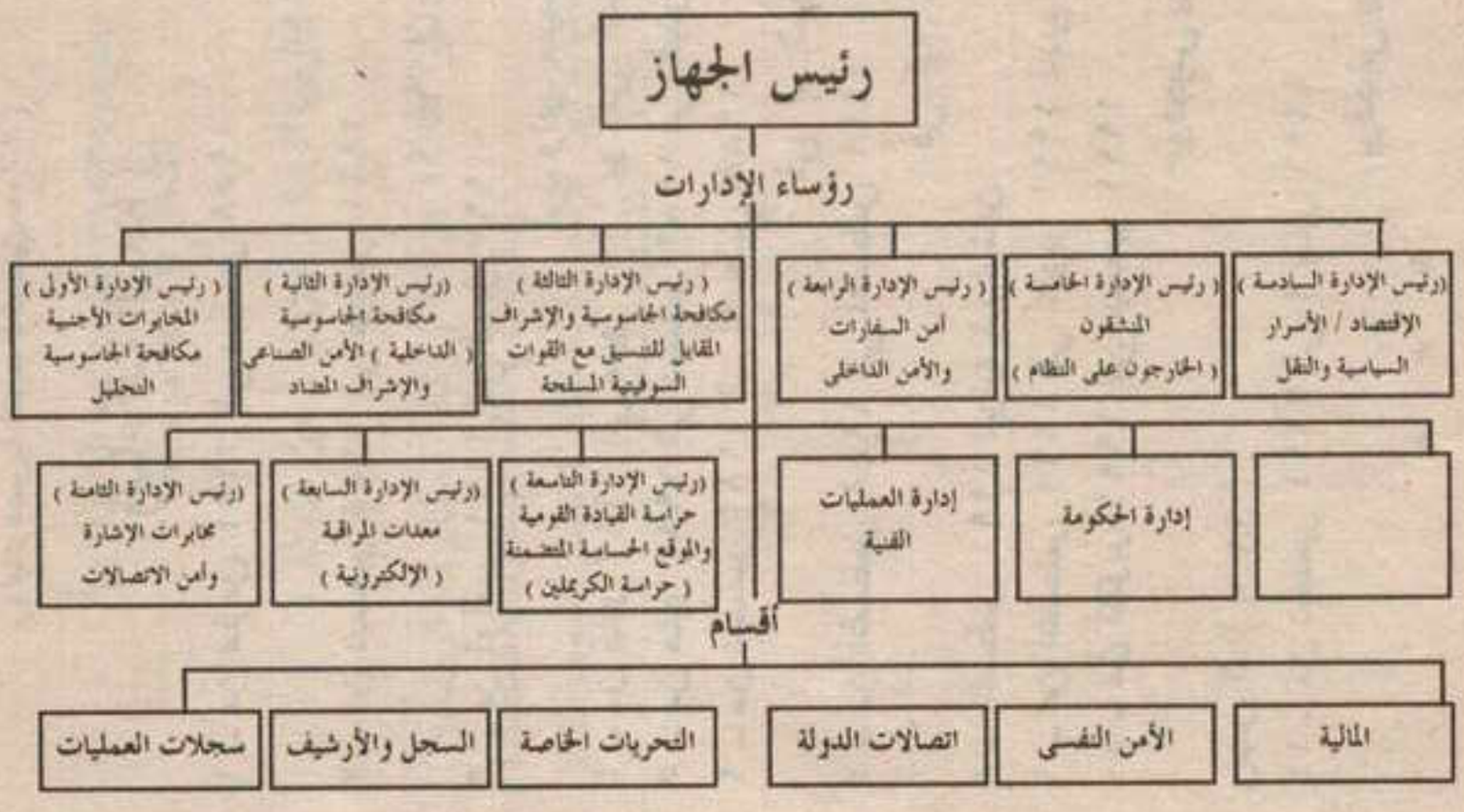

(الأســـــتاذ)

من بين كل الجواسيس ، الذين عرفهم التـاريخ ، يحتلّ هذا الرجل بـالذات مكانـة خاصـة للغايـة ، لا ينافسـه أو يدانيه فيها أحد .

إنه صاحب شخصية فريدة مبهرة ، وثقافة واسـعة ، وذكـاء مفرط ، وجرأة وبراعة اقتربتـا من حد الكمـال ، ويمتلك حسًّا مرهفًا ، وقدرة على سبر أغوار من أمامـه ، والغوص فـى أعمق أعماقهم ، وفهم طبيعة شخصياتهم ، والتعامل معها ، بعد دقائق قليلة من أوّل لقاء ..

أمـا عن دقتـه ، وطبيعتـه القياديـة المدهشـة ، التـى أهّلتـه لقيادة وإدارة أقوى وأنجح وأكمل شبكات الجاسوسية ، داخل (الصين) و(اليابان) ، خـلال الحـرب العالميـة الثانيـة ، فهذا أمر أسهبت عشرات الكتب والمراجع فى وصفه والإشادة بـه ، عبر أكثر من نصف قرن ..

ولكن كل هذا ليس السبب فـى شـهرته ومكانتـه ، ووصولـه إلى القمة ، فى عالم لا تتوقّف الحروب والصراعات فيـه لحظـة واحدة ، فى الحرب والسلم ..

لقد احتلّ مكانتـه المتميّزة الخاصـة هذه ؛ لأنـه الجاسـوس الوحيد ، فى التـاريخ كله ، الذى كان لنجاحه الفضل فى تغيير مسار الحرب العالمية الثانية ، أطول وأشرس وأقوى ، وأعنـف حرب عرفها التاريخ الحديث ..

إنه (سورج) ..

(ريتشارد سورج) ..

و(ريتشارد) هذا هـو الابـن الثـانى لمهنـدس ألمـانى ، مـن العـاملين فـى حقـول البـترول الخاصـة بـالإمبراطور ، والذيـن يبـالغون فـى إظهـار ولائهـم لـه ، وربمـا كـان لتلـك المبالغـة ما يبرّرها ، عند هذا الرجل بالذات ، إذ كان والده جد (ريتشارد) هـو (أدولـف سـورج) ، السـكرتير الخـاص للمفكّـر (كـارل ماركس) ، وأحد الذين اعتنقوا الشـيوعية منـذ مولدهـا ، حتـى إن ابنه كان يبذل قصارى جهده لينسى هذا ، ولينسيه للآخريـن أيضًا ، ولعل هذا ما دفعه إلى إلحاق (ريتشارد) بإحدى الفرق العسكرية القيصرية ، إبان الحرب العالمية الأولى ، كدليل علـى ولائه وانتمائه لألمانيا وإمبراطورها ..

ولم يرق هذا قط للشاب (ريتشارد) ، الذى لم يكن قـد بلـغ التاسعة عشرة من عمره بعـد ؛ فقد كـان يميل لدراسـة العلـوم السياسية ، ويعتبر القتال المباشر نوعًا من الحماقـة والتهوّر ، خاصة وأن رفاقه أيضًا لم يكن لديهم الحماس الكـافى لمواجهـة العـدو ، أو يؤمنـون حتـى بضـرورة أو حتميـة القتـال ، أو أسبابه ..

وعلـى الرغـم مـن هـذا ، فقـد أبلـى الشـاب بـلاءً حسنًا فـى المعركة ، وقاتل ببسالة مدهشة ، حتى أصابته رصاصات مدفع

آلى فرنسى فى ساقه ، مما تحتم معه نقله إلى المستشفى للعلاج ، فى الخطوط الخلفية ..

وكانت فترة العلاج فرصة مناسبة للغاية ، بالنسبة لطموح الشاب ؛ فقد عاود دراسة العلوم السياسية فى فراش المرض ، بل ونجح فى اجتياز الصف الدراسى الأوّل بنجاح ساحق ، أثار دهشة وإعجاب أساتذته وقادته وزملائه ..

ولكن الرياح لا تأتى دومًا بما تشتهى السفن ..

لقد أعيد (ريتشارد) مرة أخرى إلى الجبهة ، وإلى القتال ..

وعاد يدهش الجميع ثانية بإقدامه وشجاعته ، التى تكاد تبلغ حد التهوّر ، فى مواجهة العدو ، على الرغم من تكراره فى كل مناسبة ، بأنه لا يؤمن أو يقتنع بحتمية هذه الحرب ..

وفى هذه المرة ، أصابته شظية من قنبلة انجليزية ، فأعيد إلى الخطوط الخلفية للعلاج ، ... وللدراسة أيضًا ..

وقبل أن ينتهى من فصله الدراسى الثانى ، تم إرساله إلى الجبهة الروسية هذه المرة ، حيث أصابه جرح ثالث ، اعتبر بعده غير لائق للخدمة ، وتم تسريحه من الجيش ..

وانتهت الحرب بالنسبة للشاب (ريتشارد سورج) ، قبل أن تضع أوزارها فعليًا ، ولكن هذا لم يعنه أو يقلقه كثيرًا ، بل وجدها فرصة مناسبة لاستكمال دراسته فى العلوم السياسية ، خاصة وقد جذب انتباهه كثيرًا ما يحدث فى (روسيا) ، فى تلك الآونة ..

ففى ذلك العام ١٩١٧م ، كان التذمر قد بلغ أوجه ، بين أوساط الفلاحين والعمال فى (روسيا) ، بسبب الحكم القيصرى الديكتاتورى ، وتدخل (راسبوتين) ، الراهب الداعر فى شئون الدولة ، لذا فقد أعلن العمال العصيان والإضراب ، واستولوا على العاصمة ، وأقاموا فيها حكومة مؤقّتة ، ثم لم تلبث الأمور أن تطوّرت فى سرعة ، وتنازل القيصر عن العرش ، ووصل البلاشفة إلى الحكم بزعامة (لينين) ، ورفض الشعب مواصلة الحرب ، فتمّ عقد صلح مع (ألمانيا) ..

كل هذا أثار اهتمام (ريتشارد) بشدّة ، مع معرفته بتاريخ جده (أدولف) ، ولكن هزيمة (ألمانيا) أزعجته وآلمته ، وجعلته يبغض الحروب أكثر وأكثر ..

وبكل المشاعر ، التى تتضارب فى أعماقه ، أكمل (ريتشارد سورج) دراسته ، فى جامعات (كييل) و (هامبورج) ، حتى حصل على درجة الدكتوراه فى العلوم السياسية ، عام ١٩٢٠م ..

وفى نفس اليوم ، وقبل أن يجف حبر شهادة الدكتوراه ، كان (سورج) يملأ استمارة الالتحاق بالحزب الشيوعى الألمانى فى (هامبورج) ، ليصبح أحد أعضائه العاملين ، والمتحمسين كثيرًا للسياسة الجديدة ، التى تنطلق من (موسكو) ..

ولكن الحماس وحده لم يكن يكفى ، فى تلك المرحلة الحرجة ، من تاريخ (ألمانيا) ..

لقد انهار الاقتصاد أو كاد ، ولم يعد بوسع أولئك الذين تصدّوا للموت ، واحتضنوه لسنوات على الجبهة ، أن يحصلوا على مهن أو وظائف تناسب كفاءتهم وقدرتهم ، أو حتى طبيعة دراستهم وميولهم ، لذا فقد اضطر (سورج) لقبول وظيفة بسيطة كمدرس للمرحلة الابتدائية ، ونجح فى جذب الانتباه إليه بحق هذه المرة ..

ليس لشخصيته الفريدة ، وبراعته المدهشة فى نقل وتبسيط المواد الدراسية ، بأفضل صورة ممكنة ، وإنما لأنه حوّل حصصه الدراسية إلى محاضرات لبث الفكر الشيوعى فى عقول الأطفال ..

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يفقد (سورج) وظيفة التدريس ، التى قبلها على مضض ..

ولأن سمعته سبقته ، إلى كل مكان ذهب إليه ، فلم ينجح الشاب ، حامل شهادة الدكتوراه فى العلوم السياسية ، إلا فى الحصول على عمل حقير فى أحد مناجم الفحم ، ومنزل أكثر حقارة ، فى أسوأ أحياء (هامبورج) ..

والعجيب أنه لم ينجح حتى فى الحفاظ على هذا العمل ، وأيضًا لأنه لم يتوقف عن نقل أفكاره الشيوعية لزملاء العمل ، وتحويل ساعاتهم إلى عمل متصل لتجنيد أكبر عدد ممكن منهم للحزب الشيوعى ..

وتم طرد (ريتشارد سورج) من أعمال المناجم بمنتهى العنف والقسوة هذه المرة ، وبات من الواضح أن حصوله على عمل جديد سيحتاج منه إلى وقت طويل ..

طويل للغاية ..

وفى غضب مرير ، راح (سورج) يقطع شوارع (هامبورج) بجسده النحيل ، وقامته الفارهة ، وقد أطلت من عينيه نظرة صارمة قاسية ، وكأنه يتوعّد الجميع بانتقام هائل ، نظير ما اقترفوه فى حقه من ذنوب ، من وجهة نظره ..

وعندما بلغ منزله الصغير الحقير ، مع منتصف الليل ، كانت فى انتظاره مفاجأة ..

لقد كان هناك رجل قوى البنية ، صارم الملامح ، قاسى النظرات ، متوسط القامة ، يقف فى انتظاره ، أمام منزله بالضبط ..

ولقد تعرّف (سورج) ذلك الرجل فور رؤيته ..

وامتلأت نفسه بالقلق ..

فذلك الرجل ، لم يكن سوى (هنرى تولمان) ، رئيس شرطة الحزب السرية فى (هامبورج) ، والذى اشتهر بقسوته وصرامته ، وبأنه الرجل ، الذى يمكنه أن يكسر عنق رجل بيمناه ، وهو يرتشف الفودكا من كأس فى يسراه ، دون أن يطرف له رمش ..

وفى برود شديد ، تطلّع (تولمان) إلى (سورج) ، وأخبره أنه يريد التحدُّث معه لبعض الوقت ..

وداخل ذلك المنزل الحقير ، وبكلمات مقتضبة موجزة ، أبلغه (تولمان) أن (موسكو) تهتم كثيرًا به ، وتتابع حماس حفيد (أدولف سورج) بعين راضية ، ثم طلب منه إعداد نفسه للسفر إلى (موسكو) ..

ولا أحد يمكنه أن يتصوَّر فرحة (سورج) وسعادته فى تلك الليلة ، التى لم يذق خلالها طعم النوم ، وهو يحلم بعينين مفتوحتين بالسفر إلى العاصمة الحمراء ، والعمل لحساب (سادة المستقبل) ، كما أطلق عليهم حينذاك ..

وسافر (ريتشارد سورج) إلى (موسكو) ، وهناك التقى بأحد المسئولين الكبار ، فى اللجنة المركزية لجميع الأحزاب الشيوعية الأجنبية (الكومنترن) ، والذى رحَّب به فى حفاوة ، وشرح له أن الحزب يحتاج إلى تعاونه ، ثم سلَّمه بعدها إلى (ديمترى مانولسكى) ، رئيس قسم المخابرات الأجنبية فى (الكومنترن) ؛ ليوضِّح له طبيعة مهمته ..

وفى المقابلة الأولى ، لم يشعر (مانولسكى) بالارتياح كثيرًا تجاه (سورج) ؛ فقد بدا له هذا الأخير شديد النحول ، جامد الملامح ، حاد النظرات ، على نحو يبدو وكأنه يغوص فى أعمق أعماقك بلا هوادة ..

ولكن الشاب نجح ، وبتفوّق مذهل ، فى كل الاختبارات الأوَّلية ، التى أخضعه لها (مانولسكى) ، بكل خبرته وحنكته ، مما جعله يشعر بشىء من الإعجاب تجاهه ، ويزيح كل مشاعر عدم الارتياح السابقة جانبًا ، ليتولَّى بنفسه تدريب وإعداد (ريتشارد سورج) ، ليصبح واحدًا من العديدين ، فى ذلك العالم الغامض المثير ..

عالم الجاسوسية ..

ولم يكن هذا بالأمر السهل ..

لقد استغرق خمس سنوات كاملة ، من العمل والتدريب ، والقيام بعشرات المهمات الصغيرة البسيطة ، ثم تطويرها شيئًا فشيئًا ، حتى حذق (سورج) الأمر ، وخبره ، وصار واحدًا من تلك الفئة القليلة ، التى يمكننا أن نطلق عليها اسم (جاسوس كفء) ..

ولا أحد يمكنه أن ينكر موهبة (سورج) نفسها ، فى هذا الشأن ، فلم تمض تلك السنوات الخمس ، حتى صار خبيرًا لا يشقّ له غبار ، فى هذا المضمار ، كما تحوَّل لجامعة شاملة ، فى العلوم واللغات ، إذ أجاد ، وبطلاقة تامة ، إلى جوار لغته الألمانية ، الإنجليزية ، والفرنسية ، والروسية ، واليابانية ، مع عدد لا بأس به من اللهجات الصينية ..

وفى وضوح ، أفهمه (مانولسكى) أن مهمته الأولى هى جمع المعلومات السياسية ، من كل مكان يذهب إليه ، ومعرفة ردود الأفعال العالمية ، تجاه التطورات الاجتماعية والاقتصادية السريعة والعنيفة ، التى تحدث فى الاتحاد السوفيتى ، والتى يتابعها الجميع فى قلق وحرص وحذر ، كما حذَّره من إعلان ميوله الشيوعية ، أو حتى الإشارة إليها ، بل والتظاهر بمعارضتها ، والاختلاف معها تمام الاختلاف ، لو أثير الأمر ، بأية صورة من الصور ..

ولم يكن (سورج) بحاجة فعليًّا إلى كل هذه النصائح ،

بعد كل ما تلقّاه من دروس وتدريبات ، ولكنه استمع إلى (ماتولسكى) بكل هدوء واحترام ، قبل أن يبدأ جولته الأولى ، فى ربوع (أوروبا) ، لجمع ودراسة ردود الأفعال ، تجاه ذلك الزحف الشيوعى الجديد ..

ولو أننا عدنا بتفكيرنا إلى تلك الفترة ، التى بدأ فيها (سورج) مهمته ، فى أواخر عشرينات هذا القرن ، وراجعنا ما كانت عليه وسائل الإعلام والاتصال فى ذلك الحين ؛ لأدركنا مدى أهمية وخطورة مهمة (سورج) ، حيث لا توجد أجهزة (تليفزيون) ، أو محطات بث متطوِّرة ، أو حتى وسائل اتصال هاتفية بعيدة المدى ..

باختصار ، لا توجد أية وسيلة تتيح نقل المعلومات فى لمح البصر ، ومواكبة الأحداث لحظة فلحظة ، كما يحدث الآن ..

وفى (أوروبا) ، انطلق (سورج) يبرز مواهبه بلا حدود ..

لقد تحوَّل إلى آلة استماع ومتابعة ، وتخزين وتحليل معلومات لا نظير لها ..

وانبهر رءوساؤه فى (موسكو) ، بذلك السيل المنهمر من المعلومات ، الذى يرسله إليهم (سورج) طوال الوقت ، حتى إنهم أعادوا دراسة الرجل مرة أخرى ، وراحوا يفكرون فى وسيلة أفضل للإفادة من إمكانياته المدهشة ..

ولقد كان ..

فما إن عاد (سورج) من (أوروبا) ، حتى استقبله

(ماتولسكى) ، وأخبره أن الأوامر قد صدرت بإنهاء عمله فى مخابرات (الكومنترن) ، ونقله إلى المكتب الرابع ، فى المخابرات السوفيتية ، التى بدأت تبرز فى وضوح ، وتنال شهرة واسعة فى عالم الاستخبارات ، فى تلك الفترة بالتحديد ..

وبرقت عينا (سورج) ، وهو يستمع إلى حديث (ماتولسكى) ، ورقص قلبه بين ضلوعه طربًا ؛ فقد كان هذا بالضبط ما يسعى إليه منذ البداية ..

العمل الحقيقى الفعَّال ، فى مجال الجاسوسية العالمية ..

والتقى (سورج) بالكولونيل (بالدن) ، رئيس المخابرات السوفيتية ، الذى أسند إليه أولى مهماته القوية ، وطلب منه السفر إلى (شنغهاى) فى (الصين) ، لجمع كل ما يمكنه من معلومات عن جنرال شاب ، هو (شيانج كاى شيك) ، كما كلَّفه بإعادة تأهيل شبكة جاسوسية مهلهلة هناك ، لم تبد نجاحًا ملحوظًا ، منذ بدأت عملها ..

وسافر (سورج) إلى (شنغهاى) عام ١٩٣٠م ، واجتمع بعملاء تلك الشبكة هناك ، وأبلغهم فى صرامة أنه رئيسهم الجديد ، وأنه لن يتهاون قط مع أى تقصير ، وأنه مصرّ على أن يصنع منهم أفضل شبكة جاسوسية عرفها التاريخ ، ثم أطلق عليهم اسم (وحدة الصين) ..

وكان من الواضح أن الرجل يعنى كل كلمة نطق بها ، فلم تمض خمسة أيام على اجتماعه بأفراد الشبكة ، حتى كانوا

جميعًا يتساءلون فى حيرة : متى ينام أو يستريح ؟! فلقد أعاد تنظيم الشبكة بأكملها ، من الألف إلى الياء ، وحدَّد لكل فرد فيها مهمة واضحة ، وربط بين أفرادها بعضهم ببعض بأسلوب مبتكر ، لم يكن له مثيل آنذاك ، يعتمد على استخدام جمل بسيطة ، تحمل معانٍ محددة ، تصلح للتعريف ، والتأمين والتحذير فى آن واحد ، كما أبدى اهتمامًا ملحوظًا بأجهزة اللاسلكى ، باعتبارها واحدة من أفضل وسائل الاتصال فى ذلك العصر ، حتى إنه استعان باثنين من الفنيين فى هذا المجال ، ونجح فى ضمّهم إلى الشبكة ، ثم طلب من رءوسائه فى (موسكو) إرسال خبير لا يشق له غبار فى هذا المضمار ..

ولأوّل وآخر مرة فى حياته ، انتحل (سورج) شخصية أخرى ، وحمل جواز سفر أمريكيًا باسم (مستر جونسون) ، ليقيم بهذه الصفة فى فندق (أنكر) ..

وكان لهذا ضرورة قصوى ..

ففى ذلك الفندق ، التقى بأهم عضو جديد فى (وحدة الصين) .. بالكاتبة الأمريكية الشيوعية (أجنس سميدلى) ..

ولقد كان لهذه الكاتبة الشهيرة ـ آنذاك ـ دور كبير فى حياة ومهمة (سورج) ؛ فلقد تولّت تقديمه لمجتمع (شنغهاى) ، وساعدته على مصادقة عدد من كبار المسئولين فيها ، وعديد من الدبلوماسيين الأجانب ، وعلى رأسهم القنصل الأمريكى ، الذى أدرك (سورج) بحاسته المتطوّرة أنه شخص ذو شأن

واضح فى (شنغهاى) ، وأن الارتباط به سيزلّل الكثير من العقبات ، فراح يوطّد صلته به ، ويقوّى من صداقته معه ، استعدادًا لليوم الذى قد يحتاج فيه إلى علاقاته واتصالاته ونفوذه ..

وفى الوقت ذاته ، نجح (سورج) فى ضم عضو جديد إلى (وحدة الصين) ، وهو شاب ياباني ثرى ، من أسرة عريقة فى (طوكيو) ، يعتنق الشيوعية سرًا ، ويعمل ، بفضل اتصالات أسرته ، كمراسل صحفى فى (شنغهاى) ، لصحيفة يابانية ذات نفوذ .

وهكذا اكتملت الشبكة ، ولم يعد ينقصها سوى وصول خبير اللاسلكى ؛ لوضع اللمسات الأخيرة للأمر ..

ولم يطل انتظار (سورج) طويلاً ..

ففى أوائل عام ١٩٣١م وصل إلى (شنغهاى) رجل ألمانى بدين ، تفوح من ثيابه وأناقته رائحة الثراء والأرستقراطية ، وقدّم نفسه للجميع باعتباره (فريدريك ماتهايم) مندوب واحدة من الشركات الاقتصادية الكبيرة ، ولكنه لم يكن فى الواقع سوى (ماكس كلوسن) ، أفضل خبير للاتصالات اللاسلكية فى العالم ..

وبقدر ما أعجب (سورج) بمهارة (كلوسن) ، انبهر هذا الأخير انبهارًا شديدًا ببراعة وجرأة وعبقرية الأوّل ؛ إذ فوجئ بأن (سورج) قد أقنع القنصل الأمريكى بتأجير حجرتين من حجرات منزله الكبير ؛ ليقيم فيهما (كلوسن) ..

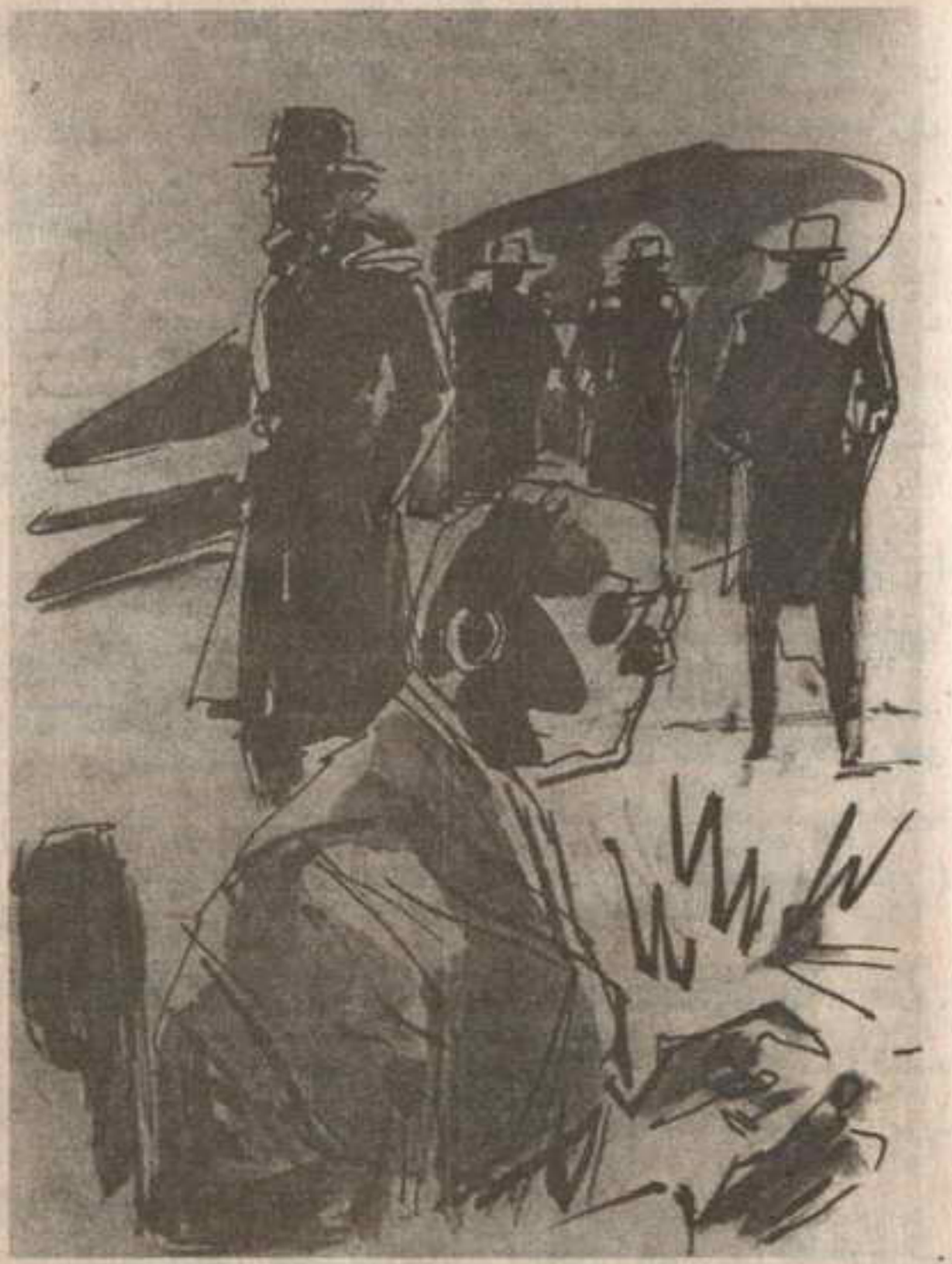

وكانت مبادرة شديدة الجرأة من (سورج) ، ولكنها حقَّقت نجاحًا مبهرًا ، فطوال عامين كاملين ، كانت (موسكو) تتلقى المعلومات لاسلكيًا من داخل منزل القنصل الأمريكى فى (شنغهاى) ، دون أن تدرك الولايات المتحدة الأمريكية دورها فى هذه اللعبة قط ..

وهكذا ، حققت (وحدة الصين) نجاحات مدهشة ، تحت قيادة (ريتشارد سورج) ، بعد أن ظلَّت تعانى الخمول والبلادة والفشل لسنوات وسنوات ، وأعلن (سورج) نفسه كجاسوس عبقرى ، فى فن إدارة وتنظيم شبكات الجاسوسية ، مما استحق معه نقله إلى جهة أكثر أهمية وخطورة ، فى ذلك الحين ..

إلى (اليابان) ..

★ ★ ★

انطلاقًا من أسلوب تفكيره المنظَّم ، وجرأته اللا محدودة ، أدرك (سورج) أن جواز فاعليته فى (طوكيو) سيكون مدى ما يحقِّقه من شهرة ونجاح فى (برلين) ، لذا فقد سعى ، بأقصى جهده ؛ ليلتحق بصحافة النازى ، مؤيَّدًا بشهادة اثنين من أصدقائه ، يشيدان فيها ببراعته وأمانته ، وإخلاصه المتناهى لعمله ..

وكانت خطوة انتحارية جريئة من (سورج) ؛ إذ كان يكفى

أن يقوم جهاز (الجستابو) ببعض التحريات الجادة عنه ، حتى ينكشف أمر التحاقه بالحزب الشيوعى الألمانى ، الذى ما زال يحمل بطاقته فى جيبه ، وتنفضح خطته كلها ..

ولكن العجيب أن هذا لم يحدث ؛ فقد اكتفى رجال (الجستابو) بخطابى التأييد ، وبعض التحريات الهامشية البسيطة ، قبل أن يسمحوا للدكتور (ريتشارد سورج) ، خبير العلوم السياسية ، بالعمل فى صحيفة (زيتونج) ، أشهر صحف النازى فى ذلك الحين ، وصاحبة أقصى تأثير فيمن خارج الحدود الألمانية ..

وبحركة بارعة خبيثة ، ولباقة يُحسد عليها ، نجح (سورج) فى إقناع رئيس تحرير جريدة (زيتونج) بتعيينه كبيرًا للصحفيين والمراسلين الألمان للجريدة فى (طوكيو) ..

وارتسمت على شفتى (سورج) ابتسامة كبيرة ، وهو يتلقى القرار ، وبادر بإبلاغه شخصيًا لأكبر رجل فى الحزب النازى ، بعد (أدولف هتلر) .. (هملر) ، قائد (الجستابو) آنذاك ..

وفى ليلة رحيلة ، أقام نادى الصحافة الألمانية حفلاً لوداعه ، حضره (هملر) بنفسه ، بصحبة (بوهل) ، رئيس القسم الأجنبى فى الحزب النازى ، مما أعطى انطباعًا بأن الحزب يؤيد (ريتشارد سورج) رسميًا ..

وبعد الحفل بعدة ساعات ، استقلّ (سورج) الطائرة إلى (طوكيو) ، ليبدأ مهمته الجديدة ..

أخطر مهمة جاسوسية عرفتها الحرب العالمية الثانية .. على الإطلاق .

★ ★ ★

منذ الأيام الأولى لعمله فى (طوكيو) ، حرص (ريتشارد سورج) ، الجاسوس السوفيتى ، الألمانى الأصل ، على الالتقاء بكل الصحفيين والمراسلين الأجانب ، فى العاصمة اليابانية ، وتوطيد صلاته بهم ، وعقد صداقات قوية معهم ، معتمدًا على شخصيته الفريدة ، وأساليبه الأنيقة ، فى التعامل مع الجميع ، وعلى كل المستويات ..

ولم يكن هذا عسيرًا على شخص مثله ؛ لذا فلم يمض وقت طويل ، حتى كان (سورج) واحدًا من أبرز وأشهر شخصيات المجتمع الياباتى ، وصديقًا شخصيًا لعدد من كبار المسئولين السياسيين فيه ..

ولأن الحذر والدقة جزء من طبيعته ، فلقد بلغ (سورج) هذه المكانة ، دون أن يحاول ، ولو لحظة واحدة ، أن يمارس مهمته كجاسوس ، حتى لا يدع أدنى احتمال لسقوطه فى قبضة العدو ، قبل أن ينتهى من تكوين شبكة جاسوسية جديدة فى (طوكيو) ، تنافس ، وتتفوّق على تلك الشبكة المحكمة ، التى تركها خلفه فى (شنغهاى) ..

وفى تتابع متقن ، راح أفراد الشبكة يتوافدون ..

فى البداية ، التقى (سورج) بذلك الشاب الثرى اليابانى

(أوزاكى) ، الذى أنهى عمله فى (شنغهاى) ، وعاد إلى (طوكيو) ، ليستغل شهرة أسرته ونفوذها مع براعته الصحفية والأدبية والسياسية ، ليصبح واحدًا من أشهر المحللين السياسيين للعلاقات اليابانية الصينية ، ويصدر عدة كتب فى هذا الشأن ، جعلته وثيق الصلة برجال الجيش والسياسة ، وعلى رأسهم الأمير (كونوى) نفسه ، وسمحت له بأن يكون أحد البارزين ، فى مجموعة للدراسات الصينية ، تحت رعاية رئيس الوزراء ..

وبعد (أوزاكى) يأتى (فوكوليتش) ، الضابط اليوغوسلافى السابق ، والمراسل الحالى لجريدة (لافيو) الفرنسية ، وجريدة (بوليتيكا) اليوغوسلافية فى (طوكيو) ، والوثيق الصلة بعدد لا بأس به من موظفى السفارات والقنصليات الأجنبية فى العاصمة ..

ثم (مياجى يوتوكو) ، الفنان اليابانى الرقيق الطباع ، والذى سافر بعض الوقت إلى (كاليفورنيا) ، فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وأصابه الفزع من تفاوت مستويات المعيشة هناك ، مما سبب له رجة نفسية عنيفة ، جعلته يلتحق بالحزب الشيوعى ، قبل أن يعود أدراجه إلى (طوكيو) ؛ لدراسة وعمل النقوش الكلاسيكية الفنية هناك ..

وأخيرًا (كلوسن) .. (ماكس كلوسن) ، عبقرى اللاسلكى ، الذى استعد لبناء شبكة اتصالات لاسلكية ، تنافس تلك التحفة العبقرية ، التى تركها خلفه فى (شنغهاى) ..

وبمنتهى السرعة والحماس ، جمع (سورج) مجموعته ، وحدَّد أهدافها ، ثم أطلقها فى المجتمع اليابانى ..

وكان على الجميع ، وبمختلف الوسائل ، أن يحصلوا على أجوبة لعدة أسئلة رئيسية :

هل تعتزم اليابان مهاجمة (الاتحاد السوفيتى) أو (الصين) يومًا ؟

وما دور الجيش اليابانى فى الشئون السياسية والاجتماعية ؟

ثم ما مدى علاقة (اليابان) بكل من (ألمانيا) ، و(انجلترا) ، و(أمريكا) ؟

وأخيرًا ، مدى تقدُّم وتطوّر الصناعات اليابانية الثقيلة ، وتأثيرها على أية حروب محتملة ، من الناحيتين ، العسكرية ، والاقتصادية ؟

وأطلق (سورج) الحرية لرجال مجموعته ، لجمع كل ما يمكن من المعلومات ، حول هذه الأمور ، بشرط أن يلتزم كل منهم بقواعد السرية ، وبغطاء رسمى ، يبعده عن الشبهات ، إذا ما تعقّدت الأمور ، وبلغت حدًا يستحيل التراجع معه ..

ولم يكن هذا راجعًا إلى دقة (سورج) وحذره فحسب ، ولكن أيضًا إلى النشاط الزائد للشرطة السرية اليابانية (الكمبتاى) ، فى ذلك الحين ، والتى بدأت تتعامل مع كل الأجانب باعتبارهم جواسيس ، حتى يثبت العكس ، مما يوحى ، ويؤكد أن (اليابان) فى طريقها إلى بعض التغيرات القوية ، فى المرحلة القادمة ..

وبكل ترقُّب ولهفة واهتمام ، راحت (موسكو) تتابع أخبار شبكة (طوكيو) بمنتهى الحذر ، فى انتظار ما ستسفر عنه الأمور ، خاصة وأن (سورج) قد حدّد مصروفات الشبكة بما يساوى ثلاثة آلاف دولار شهريًا وهو مبلغ باهظ للغاية ، فى ذلك الحين ..

ولكن الشبكة حقّقت أوّل انتصاراتها ، على نحو جعل (موسكو) تطمئن إلى أنها تستحق كل سنت يصرف عليها ..

فذات يوم ، وبينما كان (أوزاكى) يحضر اجتماعًا للجنة الدراسات الصينية ، علم من رئيس الوزراء أن هناك تفكيرًا فى غزو يابانى للصين و (منشوريا) ، وما إن وجد نفسه وحيدًا مع بعض المسودّات ، حتى أسرع يلتقط بعض الصور لها ، وقدّمها فى المساء إلى (سورج) ، الذى أدرك خطورة الأمر ، فسافر بنفسه ليسلّم تلك المعلومات ، يدًا بيد ، إلى أحد رجال المخابرات السوفيتية فى (أوروبا) ..

وحدث الغزو اليابانى بالفعل ..

وكانت كارثة عسكرية على كل المستويات ، خاصة وأن الطبيعة الجبلية الصينية المنشورية ، كانت تقف مع سكان البلدين ضد المحتلين ، الذين وجدوا أنفسهم محاصرين وسط الجبال ، فأسرعوا بتراجعون على نحو مخز ، ثم لم يلبثوا أن تغلبوا على المقاومة ، ونجحوا فى احتلال شمال (الصين) كله ..

وتنفس السوفيت فى ارتياح ، لأن عميلهم الألمانى الأصل أمكنه أن يبلغهم بتلك المعلومات شديدة الخطورة ، قبل أن يحدث الغزو بعدة أسابيع ..

ولكن (سورج) ومجموعته كانوا يحملون مفاجأة جديدة .. وانتصارًا جديدًا ..

ففى أواخر ديسمبر ١٩٣٥م ، وأوائل يناير من العام التالى ، أكّد (سورج) فى رسالة لاسلكية إلى (موسكو) ، أنه توجد توترات عنيفة بين صفوف الجيش اليابانى ، وأنه من المحتمل أن يثور هذا الجيش على قادته ، فى القريب العاجل ..

وتشككت (موسكو) كثيرًا فى هذه المعلومات ، خاصة وأن كل شىء كان يبدو لها هادئًا ، وطلبت تأكيدها أكثر من مرة ، فأكّدها (سورج) فى (إصرار) ثلاث مرات متتالية ، كان آخرها فى الثالث عشر من فبراير ١٩٣٦م ..

وفى السادس والعشرين من فبراير ، حدثت ثورة الجيش ، التى يطلقون عليها ، فى التاريخ اليابانى الحالى اسم (حادث فبراير) ..

وتأكدت (موسكو) أكثر وأكثر ، من دقة عميلها ، وقوته ، وبراعته المدهشة فى جمع وتحليل أدق وأخطر المعلومات ..

ولكن (سورج) لم يلبث أن فاجأهم مفاجأة أكثر عنفًا ، جعلتهم يرتجّون من الأعماق ..

فمن خلال صداقته الشديدة للملحق العسكرى للسفارة الألمانية

فى (طوكيو) ، والذى أصبح سفيرًا فيما بعد ، علم (ريتشارد سورج) بوجود اتصالات سرية ، بين (اليابان) و(ألمانيا) ، وأنهما تعتزمان عقد اتفاقية خاصة ، تجمع بين التعاون السياسى والعسكرى ..

وقبل حتى أن تستعلم (موسكو) عن مدى دقة المعلومات ، كان (أوزاكى) قد حصل على كل تفاصيل الاتفاقية الرسمية ، التى تنص على وجود تعاون عسكرى وسياسى شامل ، بين (اليابان) و(ألمانيا) ، وتبادل للبعثات العسكرية بينهما ، والتحالف ضد العدو المشترك ، الذى لم توافق (اليابان) على اعتباره (الاتحاد السوفيتى) نفسه ، وإنما رأت أن يقتصر على (الكومنترن) ، باعتباره جزءًا من النظام السوفيتى ، وليس النظام كله ..

وروّعت هذه الأخبار (موسكو) بشدة ، وخاصة بعد وصول بعثة (لوتوان) الألمانية العسكرية إلى (طوكيو) بالفعل ، واعتبرت هذا بداية مخيفة لتحالف عسكرى ، يهدّد (الاتحاد السوفيتى) كله بخطر داهم رهيب ..

وفى هذه الأثناء ، وبينما كانت المجموعة تعمل بأقصى طاقتها ، حدث تطوّر خطير للغاية ..

تطوّر كاد يفسد العملية ..

بل ويحطّم المجموعة كلها ..

وبلا استثناء ..

★ ★ ★

كانت أولى ثمرات التعاون الألمانى اليابانى ، هى حصول اليابان على بعض التكنولوجيا الألمانية المتطوّرة ، فى ذلك الحين ، وعلى رأسها أجهزة تتبّع البث اللاسلكى ، التى كان يمكنها آنذاك كشف مصدر بث ، يقع فى دائرة نصف قطرها كيلو مترين ، وهذا تطوّر عظيم أيامها ، ولقد اختبر الكولونيل (أوزاكى) ، وهو يختلف بالطبع عن الصحفى ، عضو شبكة (سورج) هذا الجهاز الجديد بنفسه ، باعتباره رئيس قسم الجاسوسية المضادة فى (طوكيو) ..

وكانت بانتظاره مفاجأة مذهلة ..

لقد التقط الجهاز بثًا لاسلكيًا قريبًا ، يحوى رسالة شفرية ، من الواضح أنها فى طريقها إلى جهة خارج (اليابان) ..

جهة غير صديقة على الإطلاق ..

وكان هذا يعنى أن جهاز الجاسوسية المضادة يواجه جاسوسًا داخل (طوكيو) ، يرسل المعلومات عبر شبكة لاسلكية إلى قادته ، فى مكان ما ..

وانقلبت الدنيا فى (طوكيو) ..

استدعاءات ، واستجوابات ، وتفتيش غير معلن لمنازل العديدين والعديدين ، من الأجانب واليابانيين ، الذين يشتبه فى كونهم جواسيس للعدو ..

أى عدو ..

ولأنه ليس موضعًا لأية شبهات ، وتربطه صداقة وثيقة

بمعظم المسئولين اليابانيين ، فقد بلغت الأخبار (سورج) مبكرًا ، فأسرع يبلغ (كلوسن) ، وأمره بإخفاء جهاز البث اللاسلكى ، والتوقف عن إرسال أية رسائل إضافية إلى (موسكو) ، مهما كانت أهمية وخطورة الأنباء والمعلومات ، حتى تهدأ الأمور ..

ولقد استغرقت عودة الأمر إلى مساره العادى فترة طويلة للغاية ..

فترة استمرت حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية بالفعل ، عام ١٩٣٩م ..

والعجيب أنه ، خلال تلك الفترة ، كان أفراد مجموعة (سورج) يواصلون صعودهم وتقدّمهم فى المجتمع الياباتى ، وينالون ثقة ما بعدها ثقة ، على نحو جعلهم يحتلون أرفع مكانة ممكنة ، بل إن (سورج) نفسه تم ترشيحه لمنصب يسيل له اللعاب فى السفارة الألمانية فى (طوكيو) ، إلا أنه رفضه فى إصرار ، خشية أن يجذب إليه الانتباه ، أو يخلق له بعض العداوات السياسية ، التى لا محل لها ، فى تلك الظروف ، أو على أسوأ تقدير ، تؤدى التحريات اللازمة ، فى مثل هذه الترشيحات السياسية ، إلى كشف ما يحاول إخفاءه من ماضيه الشيوعى السابق ..

ثم إنه كان يواجه مشكلتين ضخمتين ، عليه أن يتجاوزهما ، قبل أن تتعقّد الأمور أكثر ، إحداهما تتعلق بالكولونيل (أوزاكى) ،

رئيس جهاز الجاسوسية المضادة ، والثانية تتعلّق بزميله (كلوسن) نفسه ..

فمنذ كشف أمر ذلك البث اللاسلكى ، لم يهدأ للكولونيل بال ، ولم يتوقّف لحظة عن البحث ، وبمنتهى الهمة والنشاط ، عن أى جاسوس داخل (طوكيو) ، فى نفس الوقت الذى تكاسل فيه (كلوسن) عن أداء مهمته العلنية كرجل أعمال ، واكتفى ببراعته وعبقريته كخبير للاسلكى ، فى نفس الوقت الذى راح يعيش فيه فى رفاهية ملحوظة ، فيركب أحدث أنواع السيارات ، ويدخن أفخر أنواع السيجار ، على نحو لا يتناسب قط مع رجل أعمال يواجه فشلاً متزايدًا .

لذا كان من الضرورى أن يبدأ (كلوسن) نشاطًا جديدًا ، يبرّر أرباحه ، وحياة الرفاهية التى يحياها ، ويبعده عن أنظار الكولونيل فى نفس الوقت ..

ولقد كان ..

وبأوامر من (سورج) ، أنهى (كلوسن) عمله كمندوب مبيعات لشركة كبرى ، وافتتح شركة للطباعة خاصة به ، واستحضر من أجلها بعض آلات الطباعة الألمانية ، وعددًا من الخبراء الألمان ، ثم لم تلبث شركته أن تولّت طباعة كل المطبوعات الحكومية اليابانية ، بمساعدة (سورج) ، وجودة اتصالاته وقوتها ..

ومع اندلاع الحرب ، كان ينبغى أن تتولّى الوحدة مهام أكثر

خطورة وحساسية ، وعلى رأسها التأكُّد من أن (طوكيو) لا ترغب ، ولا تفكر فى تأييد البريطانيين ، أو الدخول فى حرب مع (موسكو) ..

ولكن الأمور لم تلبث أن اتضحت فى سرعة ، مع احتلال (هتلر) لجارته (النمسا) ، وانطلاقه فى (أوروبا) كالوحش الكاسر ، فى محاولة لتسييد الجنس الآرى ، وسيطرته على العالم أجمع ، وتأييد (طوكيو) لهذا العمل الاستعمارى البغيض ..

وتزايدت مخاوف (موسكو) من انقضاض الجيوش اليابانية عليها ، إلا أنها فوجئت بمندوب (هتلر) يعرض عليها اتفاقية دفاع مشترك ، تأمن بموجبها شر (ألمانيا) و(اليابان) فى آن واحد ، فأسرع قادتها يوقعونها ، وتنفسوا بعدها الصعداء ، متصوّرين أن الحرب قد انتهت بالنسبة لهم ..

ولكن هذا لم يمنع وحدة (سورج) من مواصلة عملها بأقصى طاقتها ، لجمع كل ما يمكن جمعه من المعلومات والأسرار العسكرية ، وخاصة تلك التى تتعلّق بالتعاون الألمانى اليابانى ، فراح الرجل يوطد صلاته أكثر وأكثر بالعسكريين اليابانيين ، الذين اطمأنوا إليه ، وارتاحوا لعلاقتهم به ، باعتباره مراسلاً لأكبر الصحف النازية ، وصديقًا شخصيًا لبعض كبار القادة العسكريين ، فى الحزب النازى ، الذى بدا وكأنه سيتبوّأ عن قريب ، عرش (أوروبا) كلها ..

وفى الوقت الذى راحت جيوش (هتلر) تكتسح فيه خط

(ماجينو) الفرنسى ، ومن بعده (أوروبا) ، كان الكولونيل (أوزاكى) ، رئيس قسم الجاسوسية المضادة قد خفّض قائمة الأسماء المشتبه فيها لديه إلى عدد محدود للغاية ، كان يشمل اثنين من أهم أصدقاء ومستشارى السفير الألمانى فى (طوكيو) ، وهما ضابط الجستابو السابق ، والذى تم نقله إلى (طوكيو) كنوع من العقاب ، والكولونيل (ميسنجر) ، و(ريتشارد سورج) ..

والعجيب أن قائمة الكولونيل (أوزاكى) كانت تشمل أيضًا الصحفى (أوزاكى هوزومى) ؛ باعتباره أحد المطلعين على الأسرار العسكرية اليابانية ، وتربطه صلة صداقة بالمشتبه فيه (ريتشارد سورج) ، ولكنه لم يسمح لنفسه بمجرّد التفكير فى أن يكون أحد مواطنيه جاسوسًا ، لذا فقد استبعد الاسم من القائمة ، وأسقطه من ذهنه تمامًا ..

والتقى الكولونيل (أوزاكى) بالسفير الألمانى (أوت) ، وطرح عليه تلك الفكرة ، التى اختمرت فى ذهنه ، دون أن يشير إلى شكوكه ، وانحصارها فى مسئول أمن السفارة (ميسنجر) ، أو مستشارها الصحفى (سورج) ..

وارتبك (أوت) فى شدة ، وأذهله أن يشكّ اليابانيون فى وجود جاسوس يرتبط بالسفارة الألمانية ، وكان من الطبيعى أن يطرح الأمر على أقرب معاونيه إليه ، (ميسنجر) و(سورج) ، ولقد ألجم الخبر لسان الأخير بحق ، إذ لم يتصوّر أن تبلغ براعة جهاز الجاسوسية المضادة هذا الحد فى (.اليابان) ،

وبدأ يشعر بالقلق ، وبخطورة الأمر وحساسيته ، وقرّر أن يجمع رجاله ؛ لمناقشة هذا التطوّر المخيف ، وتحديد وسيلة التحرُّك ، فى المرحلة القادمة ..

أما (ميسنجر) ، فقد أرسل فى طلب معلومات دقيقة عن كل العاملين بالسفارة ، من (برلين) مباشرة ، وذهب لزيارة الكولونيل (أوزاكى) فى مكتبه ، والتنسيق معه ، بحيث يحوز الإثنان وحدهما شرف إلقاء القبض على الجاسوس المنشود ، دون أن يقحما الآخرين فى الأمر ..

وكانت كلمة (الآخرين) هذه تشمل (سورج) أيضًا ؛ ولهذا لم يعلم بالأمر فى حينه ، ولم يدرك ما يحدث حوله ، فى تلك المرحلة ، على الرغم من اهتمامه الشديد بإخفاء كل أثر ، يمكن أن يقود إليه ، أو إلى مجموعته ، أو حتى يثير الشبهات حولهم ..

وفجأة ، وبينما يلتزم الجميع الحذر ، وصلت معلومة بالغة الخطورة إلى (سورج) ، عن طريق (أوزاكى) الصحفى ، ورفيقه (مياجى) ..

معلومة تقول إن (ألمانيا) تعتزم خرق اتفاقيتها مع (موسكو) ، وشن هجوم عليها ، فى محاولة لاحتلال مواردها الاقتصادية الرئيسية ، وتحاول إقناع (اليابان) بخوض المعركة معها ، فى الوقت ذاته ؛ للإطباق على الجبهة السوفيتية من الجانبين فى آن واحد ..

وكان من الطبيعى أن تنزعج (موسكو) بشدة من هذا الخبر ، وأن ترسل بسرعة إلى (سورج) ، لتأكيد هذه المعلومة المخيفة بأقصى سرعة ..

وأكّد (سورج) المعلومة بشدة ، وحذّر من هجوم مزدوج ، فى منتصف يونيو ١٩٤١م ..

وأسقط فى يد السوفيت ، وأسرعوا يحصنون حدودهم الغربية ، ضد الضربة الألمانية ، والحدود السيبيرية ، فى مواجهة الغزو اليابانى المحتمل ..

وفى الثانى والعشرين من يونيو ، بدأ (هتلر) عملية (باربروسا) ، لغزو الاتحاد السوفيتى ، وراحت جيوشه تشقّ طريقها بلا رحمة ، حتى أصبحت على مشارف (موسكو) ، مكتسحة أمامها كل الجيوش السوفيتية ، فى حين ظلّت الفرق الأقوى عند الحدود السيبيرية ، خشية حدوث هجوم يابانى عنيف ..

وبات من الواضح أن (ألمانيا) ستنتصر حتمًا فى هذه المواجهة ، وأنها لن تلبث أن تدخل (موسكو) ظافرة ، ثم تنشر نفوذها بعدها ، فى الاتحاد السوفيتى كله ، وتجنّد موارده الاقتصادية كلها لتدعيم حربها ضد (انجلترا) و (فرنسا) و (أمريكا) ..

وفى هذا الوقت ، كان الكولونيل (أوزاكى) قد التقى بالصحفى (سورج) ، ووطّد صلاته به ، ثم قدمه لراقصة يابانية فاتنة تدعى (كيومى) ، كانت تعمل فى الواقع لحساب مكتب الجاسوسية المضادة اليابانى ، ومهمتها هى الارتباط بالألمانى ، وكشف حقيقته ..

والعجيب أن (سورج) ، على الرغم من حذره الغريزى ، ودقته الفائقة ، وشكوكه اللا متناهية فى كل من يلتقى به ، لم ينتبه قط إلى ارتباط (كيومى) بمكتب الجاسوسية المضادة ، وسعى بدوره للارتباط بها بعلاقة وثيقة للغاية ..

ولكن هذا لم يمنعه من مواصلة عمله ، بمنتهى الدقة والاهتمام ، متحديًا كل المخاطر ، حتى حصل على أخطر معلومة وقعت عليها يداه ، منذ اقتحم عالم الجاسوسية ..

معلومة من مصادر عسكرية مطلعة ، تؤكد أن (اليابان) قررت عدم خوض الحرب فى الجبهة السيبيرية ، والاكتفاء بحروبها فى (الصين) و (الهند الصينية) ..

ولم تكد المعلومة تبلغ (موسكو) ، مع تأكيداتها ، حتى اتخذ القادة قرارًا بسحب ما يقرب من مليونى جندى ، مع معداتهم الحربية ، من الجبهة السيبيرية ، ودفعهم لمواجهة الألمان فى الغرب ..

وكانت نقطة تحوّل جوهرية ، فى مسار الحرب العالمية الثانية ..

فلقد واجه الجيش الألمانى ضربة ساحقة ، وسط جليد (موسكو) الدامى ، واندحرت قوته وبدأ مرحلة من التراجع ، لم تتوقف قط ، حتى دخلت قوات الحلفاء (برلين) ..

وعلى الرغم من أن هذا أعظم انتصار حققه (سورج) فى حياته كلها ، بل وأعظم انتصار عرفته عملية جاسوسية ، حتى ذلك التاريخ ، إلا أن الرجل لم ينعم بالنصر طويلاً ..

فذات ليلة ، مزّق (سورج) ورقة صغيرة أمام (كيومى) ، بعد أن قرأ ما بها ، وألقى القصاصات من نافذة سيارته ،

ولكن (كيومى) أسرعت تبلغ الكولونيل (أوزاكى) ، الذى أمر رجاله بجمع كل قصاصات الورق ، من المكان الذى حدّدته (كيومى) ، وإعادة ترتيبها ولصقها ، ثم واجه بها (سورج) ، قبل أن تشرق شمس اليوم التالى ..

وكانت هذه آخر معلومة وصلت إلى (سورج) ، الذى لم يجد الوقت لإرسالها إلى رؤسائه قط ..

معلومة تقول : إن حاملة طائرات يابانية ستهاجم ميناء (بيرل هاربور) الأمريكى ، فجر يوم ٦ نوفمبر القادم ..

وانطلق الكولونيل (أوزاكى) خلف أعضاء الشبكة ، ليوقع بهم جميعًا ، قبل أن ينتصف النهار ، أو يُعلن أمر سقوط (سورج) ، أو يبلغ حتى السفارة الألمانية نفسها ..

وكانت مفاجأة رهيبة للجميع ، وخاصة بعد أن انهار (مياجى) و (فوكوليتش) و (كلوسن) ، وانهمرت منهم الاعترافات كالمطر ..

وتمت محاكمة الجميع ، وبدا (سورج) فى أثناء المحاكمة شامخًا ، قويًا ، مهيبًا كعادته ، حتى وهو يتلقى مع (أوزاكى) الحكم بإعدامهما ..

وفى السابع من نوفمبر ١٩٤٤م ، تم إعدام الدكتور (ريتشارد سورج) ، لينسدل الستار على أشهر جاسوس عرفه التاريخ ..

الجاسوس الذى استحق ذلك اللقب ، الذى كان وما زال يحمله ، فى تاريخ الجاسوسية ..

لقب (الأستاذ) .

★ ★ ★

سرى للغاية ـ ٣

المخابرات الإسرائيلية (الموساد)

نشأت من قلب القسم الدبلوماسى ، لوزارة الخارجية الإسرائيلية ، التى تأسَّست بعد احتلال (فلسطين) مباشرة ، فى ١٤ مايو ١٩٤٨ م ، حيث تم أيامها تكليف ذلك القسم مهمة ومسئولية جمع المعلومات من خارج (إسرائيل) ..

حملت فى البداية اسم (المؤسسة لأعمال المخابرات والمهام الخاصة) .. (هاموساد ليمودیعين أليتافكاديم ميهاديم) ، ثم تم اختصارها فيما بعد إلى (المؤسسة) .. و باللغة العبرية (هاموساد) .. أو (الموساد) ..

رئيسها الأول كان اليهودى البريطانى (لاتفينبورن بوريس جوريل) ، الذى خدم فى الجيش البريطانى ، خلال الحرب العالمية الثانية ، وقع فى الأسر الألمانى ، ومع نهاية الحرب خرج لينضمَ إلى الـ(SHAI) ، الفرع الخاص بالاستخبارات فى منظمة (الهاجاناه) ..

بسبب التضارب والتعارض ، والاختلاف على أهمية وسرية المعلومات ، قرَّر رئيس الوزراء (آنذاك) (دافيد بن جوريون) إعادة تنظيم الأمر ، وأعلنَ تأسيس (الموساد) رسميًا ، فى إبريل (١٩٥١ م) ، طبقًا للنظم الأمريكية ، بحيث تتبع رئيس الوزراء مباشرة ، وأطلق عليها اسم (مؤسسة التنسيق) ، أو (هاموساد ليتيم) ، حتى عام ١٩٦٣ م ، عندما استعادت مرة أخرى ، وحتى الآن ، اسم (الموساد) .

(رؤساء الموساد)

رءوفين شيلواه	١٩٥١ ـ ١٩٥٢
إيرهاديل	١٩٥٢ ـ ١٩٦٣
مير آميت	١٩٦٣ ـ ١٩٦٨
تسفى زامير	١٩٦٨ ـ ١٩٧٤
يتسحاق حوفىَ	١٩٧٤ ـ ١٩٨٢
ناحوم أدمونى	١٩٨٢ ـ ١٩٨٩
شاباتاى شافيت	١٩٨٩ ـ ١٩٩٦
داتى ياتوم	١٩٩٦ ـ ؟

★ ★ ★

الهيكل التنظيمى لجهاز المخابرات السياسية الإسرائيلية (الموساد)

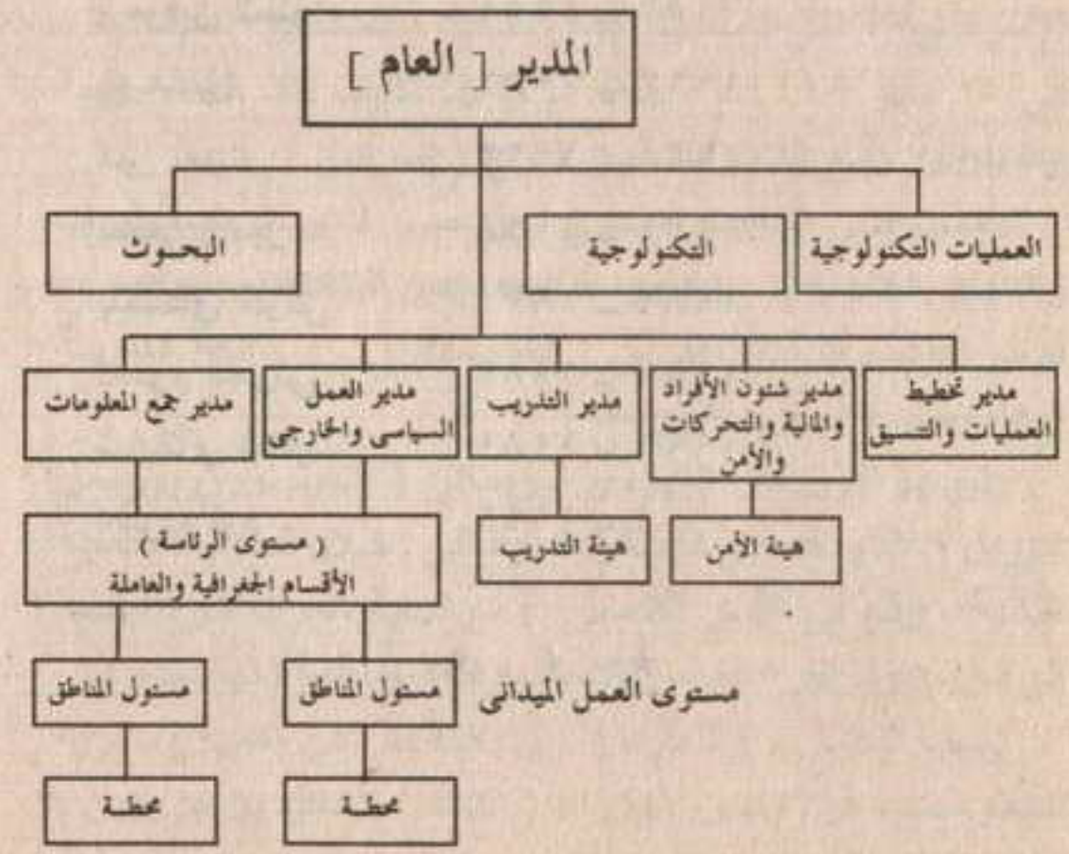

ذكريات كثيرة ينوء بها المرء ، لسنوات وسنوات ،
وتظل حبيسة عقله وصدره ، حتى يثقل بها رأسه ،
وتضيق معها أنفاسه ، فيتمنى ، أكثر مايتمنى ، أن
يطرحها عن نفسه ، ويرفع عبئها عن كاهله ..
ولكن بعض الذكريات ، لايمكن أبدا أن تطرح كاملة ..
ولأسباب عديدة ..
لذا ، فالمرء يتخفف من بعضها فحسب ، ويغزل فى
خياله مايربط خيوطها ببعضها البعض ..
ولعل فى هذا مايكفى ..
هذه المرة على الأقل .

د. نبيل فاروق

١ ـ اللقاء الثانى ..

على الرغم من أن فصل الصيف لم يكن قد انتهى بعد فعليًا ، ومن أن الطقس ما زال يحمل ذلك الدفء المنعش ، بعد انكسار الموجات الحارة المتتالية ، إلا أن السحب الداكنة راحت تتجمَّع فى السماء طوال النهار ، ثم لم تلبث قطرات المطر أن تساقطت ، وراحت تضرب زجاج نافذة حجرة مكتبى لساعة أو يزيد ، فى إيقاع رتيب ، ضاعف من حدة توترى ، حتى إننى تخليت عن أوراقى وقلمى ، ونهضت أفتح النافذة على مصراعيها ، وأتطلَّع عبرها إلى الطريق ، الذى تناثرت فيه تجمعات مائية صغيرة ، ترسم فوقها قطرات المطر دوائر منتظمة ، ما إن تتكوَّن حتى تتسع وتتسع ، وتمتزج ببعضها ، ثم تتلاشى ، لتحل محلَّها دوائر جديدة ، فى تواصل مستمر بلا انقطاع ..

ولست أدرى لماذا جذبنى هذا المشهد بشدة ..

ولماذا بدا لى أشبه بالحياة ..

دوائر تتكوَّن ، وتتسع ..

ثم تتلاقى ..

وتتلاشى ..

وتنشأ دوائر جديدة ..

والعجيب أننا ، عندما تتكوَّن فى أعماقنا دائرة مـا ، وتروح تتسع وتتسع ، يُخيَّل إلينا أنها ستظلّ تتسع بلا نهاية ..

ثم ندرك فجأة أن مصير كل الدوائر ، مهما كبرت واتسعت ، هو التلاشى والضياع ، لتفسح المكان لدائرة جديدة أخرى ..

وأخرى ..

وأخرى ..

ومع تعلُّق عينىَّ بهذا المشهد ، راح عقلى يسترجع ذكريـات قريبـة ، وكأنمـا غرقت فـى حالـة مـن التنويـم المغنطيسـى ، صنعتها الطبيعة ..

كنت قد انتهيت على الفور ، من وضع الخطوط العريضة لسلسلة جديدة ، يمكننـى من خلالها تقديم بطل جديد للقارئ العربى ..

بطل يمتلك كل مقومـات البطولـة ، القـادرة علـى إبهـار كل الشباب ، دون الخروج عن القيم والتقاليد ، التى يتميَّز بهـا مجتمعنا ..

الشىء المدهش هو أننى لم أكن أحاول إبهار القارئ ببطولة خرافية ، وإنما كنت أنقل إليه ، وفى حماس شديد ، جزءًا من قنبلة الانبهار ، التى تفجَّرت فى أعماقى ، عندمـا سمحت لـى الظروف بمقابلة ذلك البطل ..

شخصيًا ..

قنبلة الانبهـار ، التـى مضـى شهـر كامل ، علـى سريـان

مفعولها فى عروقى ، دون أن يتلاشى تأثيرها أو ينخفض درجة واحدة ..

هذا لأن ذلك البطل ، الذى التقيت بـه وجهًا لوجـه ، فـى سرية تامة ، وتحت إشراف المخابرات العامـة المصريـة ، لم يكن شخصًا عاديًا ..

أو حتى بطلاً عاديًا ..

لقد كان أسطورة ..

مقاتل يندر أن يجود الزمان بمثله ، فى كل عشرة قرون من الزمان ..

كان رجلاً فذًّا ، لا يقف أمامه حتى المستحيل نفسه ..

وربما كان لقائى السابق به ، هو السبب الرئيسى لتوترى الآن ..

فمنذ جالسته فى فيلته الخاصة ، فى منطقـة (فـايد) ، واستمعت إليه مبهورًا ، وهو يقصّ علىَّ كيف أنشأه والده فى مناخ خاص ، ووفقًا لبرنامج تدريبى متميّز ، حتى صار واحدًا من أفضل رجال المخابرات فى العالم ..

بل ربما كان أفضلهم أجمعين ..

منذ ذلك الحين ، لم ألتق به قط(*) ..

ثلاثون يومًا ، من عمر الزمن ، بدت لى أشبه بألف عام ، وأنا أنتظر فى لهفة تحديد موعد اللقاء التالى ..

(*) راجع (أوراق بطل) فى كتاب (كوكتيل ٢٠٠٠) الخامس والعشرين .

وعلى الرغم من أننى أحترق شوقًا لهذا اللقاء ، إلا أننى لم أجرؤ قط على طلب هذا ، أو حتى الإشارة إليه ، كلما التقيت بالسيِّد (أشرف) ، فى جهاز المخابرات العامة ، أو تحدَّثت إليه هاتفيًا ..

والعجيب أننى كنت أشعر طوال الوقت ، أن السيِّد (أشرف) يعلم ما أخفيه فى أعماقى ..

ربما لأننى لم أنجح فى إخفائه جيِّدًا ، فأطلّ عابثًا من عينىَّ ، أو كلماتى ، أو حتى من بين ملامح وجهى وخلايا جسدى ..

أو ربما لأنه رجل مخابرات محترف ، اعتاد قراءة ما بين السطور ، وسبر أغوار من أمامه ، وكشف ما يدور فى أعماقه ، من لمحة أو خلجة ، أو حتى طرفة عين ..

ولكنه ، على الرغم من هذا ، لم يشر إلى الأمر قط ، وكأنما لم يدركه ..

أو لا يذكره ..

واليوم بالذات ، لم يتوقَّف عقلى عن التفكير فى هذا الأمر قط ، منذ استيقظت من نومى ..

أو بمعنى أدق ، منذ غادرت فراشى ..

هذا لأننى لم أذق طعم النوم الحقيقى لحظة واحدة ، وعقلى يبحث عن اسم السلسلة ..

سلسلة روايات ذلك البطل ..

الرمز ..

رجل المخابرات المصرى ..

الرجل الذى قهر المستحيل ..

استوقفتنى العبارة الأخيرة بغتة ، واستغرقنى التفكير فيها بضع لحظات ، و ...

وفجأة ، انتبهت إلى أن الدوائر المتسعة المتلاشية قد اختفت تمامًا ، من سطح البقع المائية ، وحلّ محلَّها سيل من الخيوط الفضية المتراقصة ، التى تعلن أن الغيوم قد انقشعت ، وأفسحت السبيل لقرص القمر المضىء ..

ولأننى عاشق للطبيعة بكل صورها ، فقد تعلَّقت عيناى بالمشهد الجميل ، و ...

وفجأة ، اخترق رنين الهاتف أذنىَّ ، وانتزعنى من تأملاتى فى عنف ، فانتفض جسدى انتفاضة قوية ، قبل أن أختطف سمَّاعة الهاتف ، قائلاً :

ـ من المتحدِّث ؟!

فاجأنى صوت هادئ رصين ، يقول بلهجة مهذَّبة للغاية :

ـ مساء الخير يا دكتور .. هل جاء اتصالى فى موعد مناسب ؟!

ومن المؤكَّد أن صوتى قد حمل الكثير من انفعالى ، وأنا أسأله :

ـ من يتحدَّث إلىَّ ؟!

أجابنى بنفس الهدوء :

ـ (لبيب) .. زميل السيِّد (أشرف) .

هتفت بكل أعماقى :

ـ أهلاً .

كان لدى الكثير والكثير لأقوله ، ولكن الكلمة فقط عبَّرت عن كل ما أريده ، فعجز لسانى بعدها عن نطق حرف آخر ، وأنا أنتظر رده فى لهفة ..

ولم يأت الرد مباشرة ..

لقد منحنى السيِّد (لبيب) بضع لحظات ، وكأنما ينتظر ما سأقوله ، ثم لم يلبث أن استعاد دفة الحديث ، وهو يسأل :

ـ ألديك أية التزامات الليلة ؟!

خفق قلبى بين ضلوعى فى حماس ، وأنا أهتف :

ـ مطلقًا .

خُيِّل إلىَّ أن أسلاك الهاتف قد حملت ابتسامته ، وهو يقول :

ـ عظيم .. سنمر لالتقاطك فى تمام السابعة .. هل يناسبك هذا ؟!

لم أدر ماذا قلت ، ولا كيف أجبته ، ولا حتى كيف ارتديت ثيابى ، واستجمعت كل مشاعرى وانفعالاتى ، ولكننى كنت مستعدًا تمامًا ، وكيانى يفيض بكل أحاسيس الدنيا ، وأنا أقف أمام منزلى ، فى السابعة إلا خمس دقائق ..

وفى السابعة بالضبط ، ومع دقّات الساعة ، توقَّفت أمامى سيَّارة بيضاء بسيطة ، وهبط منها رجل أسمر البشرة ، هادئ الملامح ، باسم الثغر ، مدّ يده لى بالتحية ، قائلاً :

ـ مساء الخير يا دكتور .. أنا (لبيب) .

صافحته فى حرارة ، ودلفت إلى السيارة ، وأنا أسأله فى اهتمام :

ـ أين السيِّد (أشرف) ؟!

ابتسم بنفس الهدوء ، وهو يشير إلى السائق ، مجيبًا :

ـ لديه الكثير من العمل .

اكتفيت بالجواب ، والسيارة تنطلق بنا ، ورحت أسترجع ذكريات المرة السابقة ، عندما لاذ السيِّد (أشرف) بالصمت والغموض ، حتى بلغت بنا السيارة طريق (الإسماعيلية) ، و ...

ولكن مهلاً ..

السيارة تتجه هذه المرّة إلى طريق (الإسكندرية) الصحراوى ، وليس إلى طريق (الإسماعيلية) ؟!

« إلى أين نذهب ؟! »

انطلق السؤال من بين شفتىَّ فى توتّر ملحوظ ، وعلى الرغم من هذا فقد احتفظ السيِّد (لبيب) بهدوئه الخرافى ، وهو يجيب فى بساطة :

ـ إليه .

كان جوابًا مقتضبًا ، وافيًا ، شافيًا ، حتى إننى ارتبكت فى البداية ، وتجمَّدت الكلمات على شفتىَّ طويلاً ، قبل أن أقول فى عصبية :

ـ ولكن هذا ليس الطريق المعتاد .

ابتسم مجيبًا :

ـ كل الطرق تؤدّى إلى (روما) .

كان من الواضح أنه قليل الكلام ، ميّال إلى الصمت والاقتضاب ، على الرغم من تهذيبه الواضح ، وأسلوبه الأنيق الهادئ ، لذا فقد أجبرت نفسى على الصمت ، مقاومًا كل ما يشتعل فى أعماقى من لهفة وفضول ، حتى اتخذت السيارة طريقها ، وانحرفت إلى طريق (الفيوم) وعندئذ وجدت نفسى أهتف مكرّرًا :

ـ إلى أين نذهب ؟!

اعتدل السيِّد (لبيب) ، قائلاً فى هدوء :

ـ السيِّد (ا . ص) ينتظرنا فى منزله الريفى ، فى (الفيوم) .

ارتفع حاجباى فى دهشة بالغة ، وأنا أسأل :

ـ كم منزلاً يمتلكه هذا الرجل ؟!

ولست أدرى ما الذى حواه سؤالى بالضبط ، ولكنه جعل السيِّد (لبيب) يطلق ضحكة كبيرة ، قبل أن يقول بلهجته المهذّبة :

ـ لا تقلق نفسك بهذا .

لم يرق لى هذا الجواب ، الذى لا يمنحنى أية معلومات إضافية ، فغصت فى مقعدى ، وضممت شفتىّ فى حنق ، واتخذت قرارًا فى أعماقى بالصمت ، حتى نبلغ منزل (ا . ص) ..

ولكننى لم أستطع الحفاظ على صمتى هذا طويلاً ..

فمع الفضول الملتهب داخلى ، وجدت نفسى أسأله فى لهفة :

ـ هل تعتقد أنه سيقصّ علىّ تفاصيل إحدى عملياته الخاصة ؟!

صمت لحظة ، قبل أن يجيب فى حذر :

ـ هذا يعود إليه .

قلت فى لهفة :

ـ ولكنك تستطيع استنتاج الأمر بالتأكيد .

سألنى فى دهشة :

ـ ولماذا بالتأكيد ؟!

قلت فى شىء من التوتر :

ـ لأنك تعرفه جيّدًا .

اتسعت ابتسامته كثيرًا ، وهو يقول فى هدوء :

ـ إننى لم ألتق به من قبل قط .

تفجّر الجواب فى أعماقى كالقنبلة ، فهتفت فى دهشة :

ـ أهذا معقول ؟!

هزّ رأسه بلا معنى ، وتسلّل شىء ما إلى ابتسامته ، وهو يجيب :

ـ السيِّد (ا. ص) بالنسبة إلينا أشبه بالأسطورة .. كلنا سمعنا ودرسنا الكثير من عملياته ، ولكن قليلين منا شاهدوا صورته ، وعدد محدود فحسب من التقى به شخصيًا .

سألته فى دهشة :

ـ إلى هذا الحد ؟!

تنهَّد ، قائلاً :

ـ ألم أقل لك : إنه أسطورة ؟!

تضاعفت دهشتى ألف مرة ، وأنا أسترجع عباراته هذه ..

قليلون فحسب من شاهدوا صورته ..

وندرة فقط من التقوا به شخصيًا ..

يا للعجب !

ألهذا الحد يحاط الرجل بالسرية ؟!

ألهذا الحد تبلغ أهميته وخطورته ؟!

لم تكد الفكرة تقفز إلى ذهنى ، حتى تداعت أفكارى بسرعة مدهشة ، لتنتقل إلى جانب آخر ، برز فى أعماقى بغتة ..

إننى أحد من التقوا به شخصيًا ..

أحد الأفراد القلائل ، الذين حظوا بهذه الفرصة النادرة ..

يا لى من محظوظ !

ولأوَّل مرة ، منذ بدأ هذا الأمر ، شملنى شعور قوى بالزهو والسعادة ..

شعور سيطر على كيانى كله ، حتى إننى لم أشعر بمضى الوقت ، حتى ارتجَّت السيارة بغتة ، فانتفضت فى مجلسى هاتفًا :

ـ ماذا حدث ؟!

انتبهت فجأة إلى أن السيارة تنطلق عبر طريق نصف ممهَّد ، وسط حدائق واسعة ، والسيِّد (لبيب) يقول :

ـ لا شىء .. لا تقلق .. لقد وصلنا تقريبًا .

ومع آخر حروف كلماته ، ظهر أمامنا منزل أنيق ، من طابق واحد ، يتوسَّط تلك الحدائق ، التى فاحت منها روائح فاكهة ناضجة ، ممتزجة بعبير زهور ، على نحو يكفى لإبهار أى عاشق للطبيعة مثلى ، فغمغمت :

ـ هل يقيم هنا ؟!

أجابنى السيِّد (لبيب) ، والسيارة تتوقَّف بنا أمام المنزل مباشرة :

ـ بعض الوقت .

لمحت فى تلك اللحظة رجلاً نحيلاً طويلاً ، يندفع نحو السيارة ، ويفتح بابها ، قائلاً فى ترحاب واضح :

ـ حمدًا لله على السلامة .

غادرت السيارة وأنا أتطلَّع إليه فى دهشة ..

إنه نفس الشخص ، الذى كان يحرس تلك الفيلا فى (فايد) ..

يبدو أنه حارسه الشخصى ..

أو ...

قطع أفكارى ذلك الصوت الهادئ العميق ، الذى تسلَّل إلى أذنىَّ بغتة ، قائلاً :

ـ مرحبًا .

التفتَ بكيانى كله إلى مصدر الصوت ، وخفق قلبى فى عنف ..

إنه هو ..

(ا. ص) ..

رجل المخابرات السابق ..

البطل ..

كان يقف عند باب المنزل ، مرتديًا حلة أنيقة بسيطة ، وعلى وجهه ابتسامة ودود ، تستقبلك وتصافحك فى حرارة ، قبل حتى أن تتلاقى أيديكم ..

ومن الواضح أننى لست الوحيد الذى شعر بالانبهار ، فى تلك اللحظة ..

السيِّد (لبيب) أيضًا شاركنى هذا الشعور ..

بل وربما تفوَّق فيه أيضًا ..

لقد وقف صامتًا ، مفغور الفاه ، يحدِّق فى (ا. ص) دون أن ينبس ببنت شفة ، أو يجيب حتى تحيته ، على الرغم من تهذيبه الشديد ..

ولا عجب فى هذا ..

إنه يلتقى ، ولأوَّل مرة ، بالأسطورة ، التى انبهر بالحديث عنها طويلاً ، وقرأ عنها ما ارتجفت له مشاعره ، منذ سنوات وسنوات ..

ويبدو أن (ا. ص) قد انتبه إلى هذا ..

بل من المؤكد أنه قد فعل ..

فلقد التفت إلى السيِّد (لبيب) بابتسامة أنيقة ، وهو يمد له يده مصافحًا ، ويقول فى ترحاب :

ـ السيِّد (لبيب) .. أليس كذلك ؟!

بدا لى وكأن (لبيب) قد وثب نحوه ، واختطف يده فى لهفة شديدة ، مجيبًا :

ـ بلى يا سيِّدى .. إنه لمن دواعى فخرى أن ألتقى بك شخصيًا .

اتسعت ابتسامة (ا. ص) ، دون أن يقول شيئًا ، وربَّت على كتف (لبيب) فى رفق حنون ، قبل أن يدعونا للدخول ..

ولم تمض دقائق قليلة ، حتى كنا نجلس فى حجرة مكتب واسعة ، تحوى أيضًا مكتبة ضخمة ، تحتلّ جدارًا كاملاً ، وبين أيدينا أكواب الشاى الساخنة ، و(ا. ص) يسألنى فى هدوء واهتمام :

ـ هل دوَّنت ما قلناه فى المرّة السابقة ؟!

أجبته فى سرعة :

ـ بالتأكيد ، و ...

بترت عبارتى بغتة ، عندما شعرت بأنها تفتقر إلى اللياقة ، فابتسم هو فى هدوء ، فى حين قال (لبيب) فى رصانة :

ـ ولكنه ما زال يطمح إلى المزيد .

أومأ (ا. ص) برأسه موافقًا ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .

قالها ، وأعاد كوب الشاى إلى المنضدة الصغيرة أمامنا ، وهو يسألنى فى اهتمام :

ولم تمض دقائق قليلة ، حتى كنا نجلس فى حجرة مكتب واسعة . . .

ـ ما الذى تريد سماعه هذه المرة ؟!

أجبت فى سرعة واندفاع ، وكأننى أنتظر هذا السؤال منذ البداية :

ـ مغامراتك .

ارتفع حاجباه فى دهشة بالغة ، وتراجع فى مقعده ، وكأن العبارة قد صدمته ، فى حين تحرك (لبيب) فى توتر ملحوظ ، جعلنى أدرك على الفور مدى ما يفتقر إليه جوابى من دقة ولياقة ووقار ، فارتبكت مستطردًا :

ـ إننا هنا لهذا الهدف .. أليس كذلك ؟!

تبادل الرجلان نظرة صامتة ، قبل أن يستعيد (ا. ص) ابتسامته ، قائلاً :

ـ فى عالمنا ، لا نطلق على مثل هذه الأمور اسم المغامرات ، وإنما هى عمليات خاصة ، أو مهام نحرص على القيام بها بنجاح .

وصمت لحظة قصيرة ، قبل أن يضيف بصوت حازم ، انتفض له كيانى كله :

ـ من أجل (مصر) .

ولست أدرى لماذا ران ذلك الصمت المهيب الطويل على المكان ، بعد قوله هذا ، ولكننى شخصيًا بذلت جهدًا حقيقيًا ؛ لإجبار لسانى على التحرك ، وكسر حاجز الصمت ، وأنا أقول فى صوت خافت شاحب :

ـ وهل يمكننى الاستماع إلى إحدى عملياتك الخاصة هذه ؟!

أومأ برأسه ، مجيبًا ، بنفس الابتسامة الهادئة :

ـ بقدر ما تسمح به قواعد السرية .

أعادت إلىَّ ابتسامته الكثير من الهدوء والثقة والارتياح ، فقلت فى حماس :

ـ عندما جئنا لمقابلتك ، فى المرة السابقة ، أخبرنى السيِّد (أشرف) أنك قد اصطدمت بكل أجهزة المخابرات العالمية ، وببعض المنظمات الإجرامية ، ومنظمات الجاسوسية الخاصة ، ولا ريب فى أن كل صدام يصلح لقصة رائعة .

أجابنى فى بساطة :

ـ يبدو أن السيِّد (أشرف) يميل إلى المبالغة .

قلت فى حماس أكثر :

ـ لست أعتقد هذا .

اتسعت ابتسامته ، دون أن يعلِّق على عبارتى ، واعتدل فى مجلسه بهدوء ، فى حين قال (لبيب) فى اهتمام :

ـ لا يمكنك أن تحظى بكل هذا فى لقاء واحد .

سألته فى لهفة :

ـ من أين نبدأ إذن ؟!

لم أكن أتصوَّر أن سؤالى عسير إلى هذا الحد ..

لقد ساد بعده صمت عجيب ، تبادل خلاله الرجلان نظرة طويلة ، على نحو جعلنى أتصوَّر أن لرجال المخابرات لغة

صمت خاصة ، لا يفهمها سواهم ، فقد بدا وكأن تلك النظرة الطويلة قد أدارت بينهما حديثًا طويلاً واضحًا ، قبل أن يعتدل (لبيب) فى مجلسه ، ويقول (ا. ص) فى هدوء :

ـ المعتاد أن نبدأ بالتسلسل الطبيعى للأحداث .

ثم مال نحوى ، مستطردًا :

ـ بأوَّل عملية رسمية قمت بها ، كضابط فى المخابرات العامة المصرية .

هتفت بكل حماس الدنيا :

ـ رائع .. هذا ما أنشده بالتأكيد .

عاد يبتسم ابتسامة هادئة ، ويتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ فى ذلك الحين كانت حرب أكتوبر قد انتهت فعليًا ، ولكن الصراع لم يهدأ بعد .. بل يمكن القول بأنه قد ازداد اشتعالاً ، بعد أن أدرك الإسرائيليون ، بصورة عملية ، أن لدينا جهاز مخابرات قويًا ، قادرًا على خداع أجهزتهم ، وتكبيدها خسائر فادحة ، أيامها كانت حرب المعلومات فى أوج عنفها وشراستها ، وكان كل طرف يسعى للحصول على أكبر قدر منها ، بأى ثمن كان .

وصمت لحظة ، شرد خلالها بصره ، وكأنه يستعيد تلك الذكريات القديمة ، قبل أن يكمل فى حزم :

ـ وفى تلك الظروف ، بدأت مهمتى الأولى .

وغرق كيانى كله فى بحر من اللهفة والانبهار ، وأنا أتطلَّع إليه ، فى انتظار كلماته ..

وانتفضت عروقى كلها ، عندما اعتدل فى مجلسه ، وبدأ يروى ذكرياته ..

ذكريات أول مهمة رسمية ..

للبطل .

★ ★ ★

٢ـ المهمـــــة ..

مايو ١٩٧٤م ..

مازالت أصداء حرب أكتوبر (١٩٧٣م) تتردَّد عالميًا ، مع التحركات المصرية لإعادة البناء ، والنشاط الجم للرئيس (أنور السادات) ، لتغيير خريطة (مصر) الاقتصادية والاجتماعية ، والتغيرات السريعة فى المفاهيم الإعلامية والسياسية والديموقراطية ..

المصريون استعادوا الثقة فى قيادتهم ، وجيشهم ، وجهاز مخابراتهم الفذ ، الذى نجح بخطة رائعة ، فى خداع كل أجهزة الأمن والمخابرات ، الإسرائيلية والأمريكية ، حتى باغتهم الهجوم المصرى ، والعبور ، وانهيار خط (بارليف) ، أقوى خط دفاعى فى التاريخ ، على حد زعم العدو ..

أما الإسرائيليون ، فقد شملهم نوع من الارتباك المضطرب ، المغموس فى بحر من التوتر والغضب ، وهم يحاسبون قياداتهم السياسية والعسكرية ، على تلك الهزيمة المنكرة ، بعد أن ردَّدت أبواق دعايتهم دومًا أنهم أقوى دولة فى المنطقة ، وأن جيشهم أسطورى ، لا يمكن قهره أبدًا ..

ومن قلب (إسرائيل) ، صدرت عشرات الكتب ، التى تهاجم الجيش وأجهزة المخابرات ، وتحمِّلها مسئولية ما حدث ،

ولعل أشهرها (المحدال) .. أو (التقصير) ، والذى أشاد مؤلِّفه بذكاء وبراعة جهاز المخابرات المصرى ، وبقوة وبسالة الجنود المصريين ، عندما اشتعل القتال ، على رمال (سيناء) ..

وفى نفس الوقت ، الذى وقف فيه جنرالات (إسرائيل) أمام المحاكم العسكرية فى (تل أبيب) ، كان الرئيس (السادات) يقلِّد أبطال حرب أكتوبر الأوسمة والنياشين ، ويمنحهم بعض الرتب الاستثنائية ، تقديرًا لجهودهم غير العادية ، وبطولاتهم المدهشة ، قبل وفى أثناء الحرب ..

ومن بين هؤلاء الأبطال كان الملازم أوّل (أكرم صدقى) .. أو بمعنى أدق .. النقيب (أكرم) ..

وعلى الرغم من الأسطر السبعة ، التى حملتها شهادة التقدير ، التى تلقّاها الشاب ، والتى كتبها الرئيس وذيّلها بتوقيعه الشخصى ، كان الشاب أكثر المجموعة هدوءًا وتواضعًا ، وكأنما يكفيه أنه قد فعل ما فعل ، من أجل الوطن ..

الوطن وحده ..

ولقد حرص السيِّد الرئيس على استقبال الأبطال فى مكتبه ، بصفة سرية للغاية ، حرصًا على طبيعة عملهم ، التى تنفر فى المعتاد من العلانية والوضوح ، وقدَّم لهم شكر وامتنان (مصر) ، ثم التفت إلى (أكرم) ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة ، وهو يسأله :

ـ أنت ابن (صدقى) .. أليس كذلك ؟!

أومأ (أكرم) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ لى كل الشرف يا سيادة الرئيس .

اتسعت ابتسامة الرئيس ، وهو يربِّت على كتفه ، قائلاً :

ـ هذا الشبل من ذاك الأسد .

ونفث دخان غليونه الشهير ، وهو يلتفت إلى مدير المخابرات ، مستطردًا :

ـ حقًا ما يقولون .. لم يمت من أنجب .

وافقه مدير المخابرات بإيماءة من رأسه ، مغمغمًا :

ـ بالتأكيد .

ربَّت الرئيس على كتف (أكرم) مرة أخرى بابتسامة عريضة ، ثم استعاد جديته الشديدة ، وهو يسأل المدير :

ـ هل أبلغته بالأمر ؟!

هزَّ مدير المخابرات رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ ليس بعد يا سيادة الرئيس .

أطلّت نظرة متسائلة من عينى (أكرم) ، فتطلّع إليه الرئيس لحظة ، قبل أن يشير إليه ، قائلاً ف حزم :

ـ لا تنصرف مع الباقين .. هناك ما ينبغى أن نتحدَّث بشأنه .

أجابه الشاب فى حزم :

ـ أوامرك يا سيادة الرئيس ..

ولم ينصرف (أكرم) ، عندما حانت نهاية المقابلة .. وحده بقى مع مدير المخابرات ، فى حجرة مكتب الرئيس الخاصة ..

وفى هدوء حازم ، أشعل الرئيس (السادات) غليونه ، وقال للشاب :

ـ الوطن يحتاج إليك يا (أكرم) .

هتف الشاب بكل حماس وحزم الدنيا :

ـ وأنا فداء له يا سيادة الرئيس .

أومأ الرئيس برأسه مستحسنًا ، ثم أشار إلى مدير المخابرات ، قائلاً :

ـ أظنك أكثر قدرة على شرح مثل هذه الأمور .

قال المدير ، وهو يشدّ قامته ، كما اعتاد أيام عمله فى الجيش :

ـ عفوًا يا سيادة الرئيس .

ثم التفت إلى (أكرم) ، قائلاً :

ـ بعد حرب أكتوبر مباشرة ، وكرد فعل للهزيمة ، أنشأ الإسرائيليون قسمًا خاصًا ، يضمّ رؤساء أجهزة الأمن الحساسة ، كرئيس (الموساد) ، ورئيس (أمان)(*) ، ومدير (الشين بيت)(**) ، بالإضافة لقادة الجيش ، ومندوب غير عادى ، من جهاز المخابرات الأمريكى .. ولأننا كنا واثقين من أن ذلك

(★) أمان : الاسم المختصر ، الذى يطلق على المخابرات العسكرية الإسرئيلية ، وهى المقابل للمخابرات الحربية لدينا .

(★★) الشين بيت : جهاز الأمن الداخلى الإسرائيلى ، وهو مشابه لمباحث أمن الدولة فى (مصر) ..

الاجتماع سيشهد سيلاً من المعلومات والمناقشات ، على أعلى مستوى من السرية ، فقد قمنا بعملية بالغة الحساسية والخطورة ، تمكّن خلالها الضابط (رفعت) من زرع جهاز تسجيل داخل حجرة الاجتماعات الرئيسية لذلك القسم ، الذى أطلقوا عليه فى (إسرائيل) اسم (درع القادة) .. وذلك بتوجيه من السيّد الرئيس شخصيًا .

ابتسم الرئيس السادات ، ونفث دخان غليونه فى عمق ، قبل أن يقول :

ـ كنت واثقًا من أن أولادى يمكنهم القيام بهذا .

استقبل مدير المخابرات عبارة الرئيس بابتسامة امتنان ، قبل أن يتابع فى اهتمام :

ـ لم يكن من الممكن أن نزرع جهاز تنصّت عاديًا ، أو أجهزة بث صوتية ؛ لأن الإسرائيليين حرصوا للغاية على تأمين حجرة الاجتماعات هذه ، ضد كل وسائل الاستماع ، والتنصت ، ولهذا فقد خدعهم (رفعت) فى ذكاء فذ ، عندما زرع جهاز تسجيل خاصًا ، يبدأ عمله فور التقاط الأصوات ، ثم يتوقف مع توقفها(*) ، وكان الجهاز معدًا لتسجيل مائة ساعة من الأحاديث ، على شريط دقيق فائق الحساسية .. وبهذا الأسلوب أمكننا تسجيل أدق أدق تفاصيل اجتماع قادة الأمن الإسرائيلى ، وكأننا نجلس بينهم .

(★) طرحت شركة (سونى) اليابانية أجهزة تسجيل من هذا الطراز ، فى أوائل التسعينات .

غلب الحماس الشاب ، وهو يقول :

ـ عظيم .

تبادل الرئيس نظرة صامتة مع مدير المخابرات ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ المشكلة أننا لم نستعد شريط التسجيل هذا بعد .

انعقد حاجبا الشاب ، فى اهتمام بالغ ، والرئيس يشير إلى مدير المخابرات ، ليكمل فى اهتمام :

ـ الإسرائيليون لم يكشفوا أمر هذا الشريط قط ، ولكنهم توصّلوا إلى العميل الذى ساعدنا على زرعه ، وفى أثناء فراره منهم ، أطلقوا عليه النار ، و ...

وقتلوه .

راقب الرئيس (أكرم) فى إمعان ، عندما نطق مدير المخابرات الكلمة الأخيرة ، ولاحظ تلك الارتجافة الخفيفة ، التى استغرقت جزءًا من الثانية ، فى شفته السفلى ، والتى لولاها لظلّت ملامحه جامدة ثابتة ، كتمثال من الرخام ..

وفى حزم ، أشار الرئيس إلى مدير المخابرات بالتوقّف ، وهو ينفث دخان غليونه فى بطء شديد ، قائلاً للشاب :

ـ أظنك قد استوعبت المطلوب منك بالضبط .

شدّ (أكرم) قامته على نحو عسكرى ، وهو يجيب :

ـ استعادة الشريط من قلب (إسرائيل) يا سيادة الرئيس .

هزّ الرئيس رأسه نفيًا ، وقال :

ـ ليس هذا فحسب يا ولدى .. مهمّتك هى استعادة شريط التسجيل من مكمنه ، داخل حجرة الاجتماعات الرئيسية ، التى يحيطها الإسرائيليون بأكبر قدر ممكن من السرية ، وبكل وسائل المراقبة والأمن الحديثة ، ويحرصون على حمايتها حرصهم على حياتهم نفسها ، والعودة به إلى (مصر) سالمًا .

ثم انعقد حاجباه ، وهو يضيف فى حزم :

ـ ومهما كان الثمن .

ظلّ الشاب على جموده بضع لحظات ، قبل أن يقول بصوت قوى ، حمل كل حزم وصرامة الدنيا :

ـ مهما كان الثمن يا سيادة الرئيس .

وكان هذا أشبه بالتوقيع على وثيقة خطر ..

وإيذانًا ببدء أوّل مهمة رسمية فى حياة البطل ..

وأكثرها خطورة ..

★ ★ ★

من المؤكّد أن الذعر والانبهار قد ارتسما على وجهى بأعنف صورهما ، إذ انتبهت فجأة على ابتسامة (لبيب) العريضة ، والتى أوحت إلىّ بأنه يكتم ضحكة كبيرة فى أعماقه ، منعه تهذيبه من إطلاقها فى وجهى ، فى حين توقّف (ا . ص) عن روايته ، وجلس يتطلّع إلىّ فى صمت وهدوء ، فغمغمت مرتبكًا :

ـ يا لها من مهمة !

ابتسم الرجل فى بساطة ، وهو يقول هادئًا :

ـ كانت مهمة عسيرة بالفعل .

قلت فى حماس :

ـ بالتأكيد .. دخول (إسرائيل) لم يكن بالأمر اليسير ، فى تلك الفترة ، و ...

قاطعتنى تلك النظرة ، التى تبادلاها معًا ، والتى انتقلت إليها ضحكة (لبيب) ، التى خُيِّل إلىَّ أنها قد أخترقت حاجز الصمت ، ودوت فى أذنىَّ عالية قوية ، قبل أن يقول (ا. ص) :

ـ دخول (إسرائيل) لم يكن أبدًا مشكلة ، بالنسبة لنا .

تفجَّرت الدهشة فى كيانى أكثر وأكثر ، فتابع (لبيب) مبتسمًا :

ـ فى ذلك الحين ، لم تكن جوازات السفر متطوِّرة صعبة التزوير ، كما هى عليه الآن ، ولم تكن وسائل الأمن وتحقيق الهوية بالكفاءة الحالية ، ثم إنه كان وما زال لدينا قسم يختصّ بصنع هذه الأشياء بإتقان مذهل ، يرأسه واحد من أبرع وأذكى خبراء التزييف والتزوير ، فى العالم أجمع .

ثم اتسعت ابتسامته ، وهو يشير إلى (ا. ص) مضيفًا فى إعجاب :

ـ ثم إن المسافر كان يتقن عدة لغات حية بطلاقة تامة .

حدَّقت فى وجهه لحظة ، قبل أن ألتفت إلى الرجل ، قائلاً فى حماس :

ـ إذن فقد سافرت إلى (إسرائيل) بجواز سفر زائف .

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ نعم .. جواز سفر أمريكى ، يحمل اسم (ميل روبنسون) ، مدير شركة (الغرب السعيد) للسياحة .

سألته فى لهفة :

ـ وماذا لو حاول الإسرائيليون التيقُّن من الاسم أو الشركة ؟!

اكتفى (ا. ص) بابتسامة هادئة ، فى حين أجاب (لبيب) فى اهتمام :

ـ لم يكن من الطبيعى أن يراجع الإسرائيليون بيانات جواز سفر كل أمريكى يدخل (إسرائيل) ، فى تلك الفترة ، وحتى لو فعلوا ، فسيجدون بالفعل شركة سياحية فى (كاليفورنيا) ، تحمل اسم (الغرب السعيد) ، ومديرها يُدعى (ميل روبنسون) ، والأكثر أهمية أن تلك الشركة قد تبادلت بعض المراسلات مع (ماجى تورز) فى (تل أبيب) ، خلال الأسبوع السابق ، وانتهى الأمر بدعوة وجَّهتها (ماجى تورز) إلى السيد (روبنسون) ، لزيارة (تل أبيب) ، ودراسة مشروع مشترك بين الشركتين .

هتفت مبهورًا :

ـ من الواضح أن كل شىء تم إعداده بدقة بالغة حينذاك .

هزَّ (ا. ص) رأسه فى هدوء ، مجيبًا :

ـ هذا ما يحدث دائمًا .

ثم تراجع فى مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمامه ، مستطردًا :

ـ وكما أخبرتك ، لم يكن الدخول إلى (إسرائيل) قط مشكلة ، بالنسبة لجهاز المخابرات العامة ، لذا فقد وصلت إلى (إسرائيل) ، والتقيت بعميل مهم للغاية هناك ، كانت مهمته الأولى أن يرتب لى كل ما أحتاج إليه ؛ لتنفيذ هذه المهمة العسيرة .

اندفعت ، قائلاً :

ـ وهذا العميل المهم كان يدير (ماجى تورز) .. أليس كذلك ؟!

انعقد حاجبا السيِّد (لبيب) فى توتر ، على نحو جعلنى أدرك أن سؤالى هذا لم يكن فى محله قط ، وأننى قد تجاوزت به كل قواعد السرية المسموح بها ، فى حوار كهذا ، فتراجعت منكمشًا فى مقعدى كطفل ضبطوه يقوم بعمل متهوِّر ، وران على المكان كله صمت رهيب ، من وجهة نظرى ..

ولكن هذا الصمت لم يستغرق سوى ثانية واحدة ، قبل أن يقطعه (ا. ص) فى هدوء ، دون أن يشير إلى ما حدث ، وكأنه لم يسمعه :

ـ كان الإسرائيليون قد قاموا بتغيير كل نظم الأمن ووسائل المراقبة ، بعد كشف أمر عميلنا ، لذا فقد كنا نحتاج إلى معرفة نظم أمنهم الجديدة ، حول حجرة اجتماعات (درع القادة) ؛ لدراسة الوسائل الممكنة لاختراق تلك النظم ، وبلوغ الحجرة ، واستعادة الشريط المطلوب .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ وكانت هذه مهمة ذلك العميل الخاص .

نطق عبارته ، فسرت فى جسدى قشعريرة عجيبة ، شحذت حواسى كلها ، وأنا أستمع إليه ، وهو يروى ..

ويروى ..

ويروى ..

★ ★ ★

على الرغم من أنها كانت المرة الأولى ، التى يزور فيها الشاب (إسرائيل) فعليًا ، إلا أن كل شىء حوله كان مألوفًا معتادًا ، بعد أن قضى فترة من التدريب ، فى القسم (٣ ج أ) ، التابع للمخابرات العامة المصرية ، والذى يقضى الدارس فيه ما يقرب من شهرين كاملين ، فى مناخ إسرائيلى بحت ..

كل المحال والأزياء والشوارع فيه كانت نسخة طبق الأصل من (تل أبيب) ..

اللغة المستخدمة كانت العبرية وحدها ، دون أية لغة أخرى ، ولم يكن من المسموح لأى من المتدربين أن يتحدَّث بأية لغة بديلة ، حتى خلال الأحاديث الجانبية والشخصية ..

حتى العملة المستخدمة كانت (الشيكل) الإسرائيلى وحده ..

باختصار ، كان من الضرورى أن يعتاد الشخص ذلك المناخ الإسرائيلى مائة فى المائة ، قبل أن يجتاز هذا التدريب بنجاح ..

ولأن الشاب موهوب بطبعه ، ويجيد العبرية منذ نعومة

أظفاره ، فقد اجتاز هذه الدورة التدريبية فى نصف الوقت ، وبنجاح منقطع النظير ..

وعندما أصبح داخل (تل أبيب) ، استعاد كل ما درسه دفعة واحدة ، وشعر وكأنه يقضى فترة تدريب إضافية فى (٣ ج أ) ..

ولكن العجيب أنه لم يبد لمحة واحدة من هذا ..

لقد ظلّ يتعامل كسائح أمريكى ، يزور (إسرائيل) للمرة الأولى ، حتى التقى بأدون (بيتون) ، صاحب ومدير (ماجى تورز) ، الذى قضى معه بعض الوقت فى شركته ، كما ينبغى أن يحدث ، بين رجلين تربطهما بعض الأعمال التجارية المشتركة للمرّة الأولى ، ثم لم يلبث أن أصرّ على دعوته لتناول العشاء ، فى أحد مطاعم (تل أبيب) الشهيرة ..

ولكنهما لم يذهبا إلى ذلك المطعم قط ..

لقد ذهبا على الفور إلى منزل آمن ، استأجره (بيتون) خصيصًا لهذا الغرض ، وهناك قدَّم له الرجل بعض الأدوات ، التى طلبت منه المخابرات المصرية إعدادها ، بالإضافة إلى مسدس صغير الحجم ، يصلح لإخفائه فى ثنايا سترة عادية ، قبل أن يقول :

ـ ما لدى من معلومات يؤكّد أنك تهدف إلى مبنى يتبع وزارة الدفاع هنا ، وتشرف عليه أجهزة أمن (الموساد) نفسها ، وهذا يعنى أن دخوله ، أو حتى الاقتراب منه هو الخطورة بعينها .

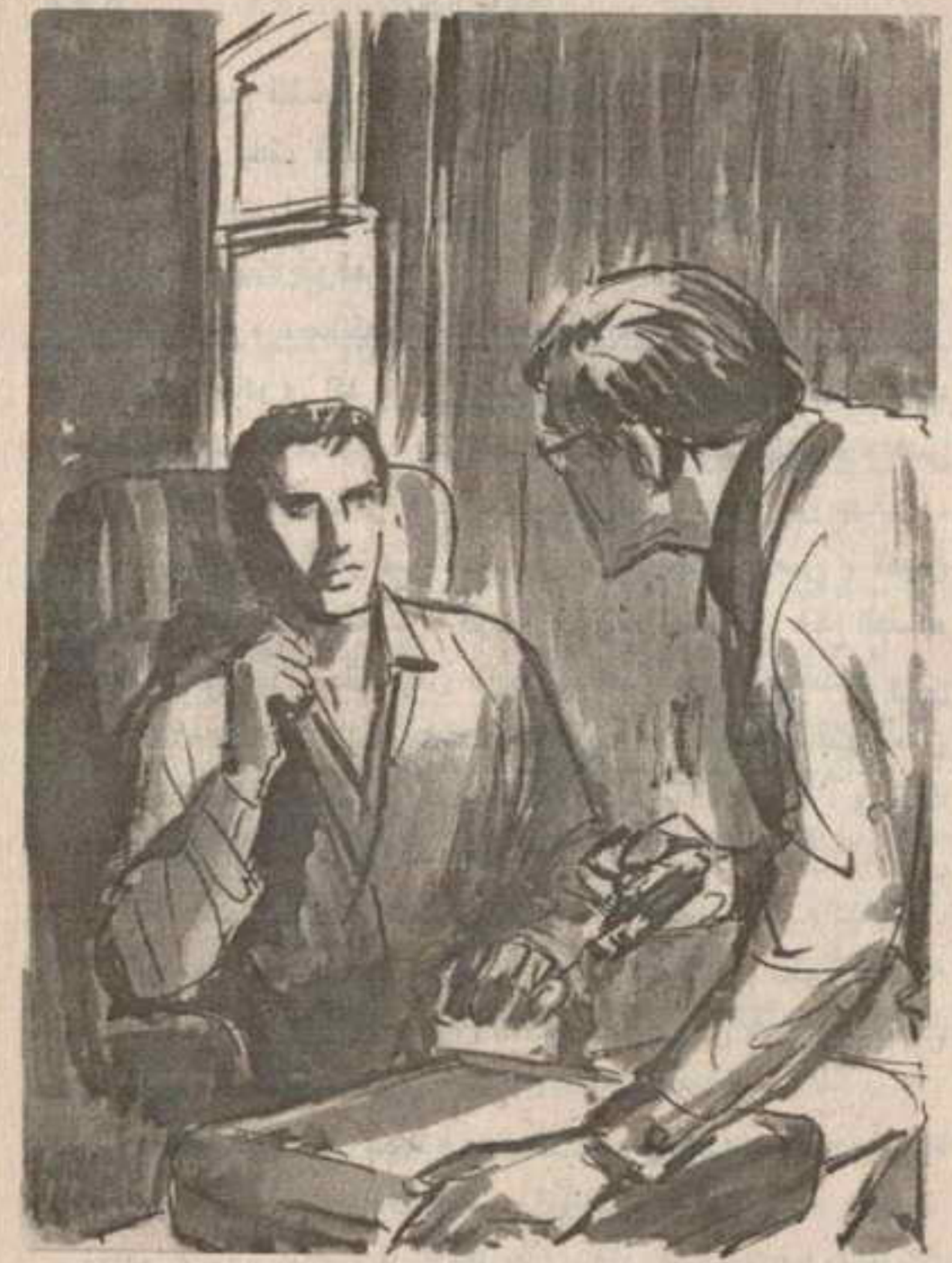

وهناك قدم له الرجل بعض الأدوات التى طلبتها منه المخابرات

ظلّت ملامح الشاب جامدة ، وهو يقول :

ـ الواجب يحتم الدخول إليه ، مهما كان الثمن .

تراقصت ابتسامة على شفتى (بيتون) ، وهو يقول :

ـ هذا ما كنت أتوقّعه .

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى جدية واهتمام :

ـ أحد مصادرى أكّد لى أن المبنى له مدخل واحد فحسب ، يتوسّط واجهته الأمامية ، التى تواجه ساحة خالية كبيرة ، هى الجزء الأعظم من الفراغ ، المحيط بالمبنى من كل جانب ، والذى ينتشر فيه أكثر من عشرين من رجال الأمن ، الذين يحملون مدافع آلية قصيرة قوية ، ويتم استبدال هذا الطاقم ثلاث مرات يوميًا ، حتى يظلّ الرجال يقظين طوال الوقت ، وفى الليل تضاء تلك الساحة بكشافات قوية ، تستمدّ طاقتها من مولدات خاصة ، بحيث لا يمكن قطع التيار عنها قط ، وهناك مدخل واحد أيضًا لتلك الساحة ، فى مواجهة مدخل المبنى مباشرة ، وعلى مسافة عشرين مترًا منه ، تقف أمامه دبابة ، مع أربعة من رجال الأمن ، وكل رجل أمن فى الموقع لديه أوامر مشدّدة بإطلاق النار دون تحذير ، على أىّ شخص يقترب من المكان ، لمسافة عشرين مترًا ..

كان الشاب يستمع إليه فى اهتمام ، وذهنه يرسم صورة وهمية للمكان ، بمنتهى الدقة ، وبكل التفاصيل ..

ويبدو أن (بيتون) قد لاحظ هذا ، فقد توقّف عن الحديث لحظة ، وهو يتطلّع إلى وجه الشاب فى اهتمام ، قبل أن يقول :

ـ هذا بالنسبة للخارج فحسب .

سأله الشاب فى سرعة :

ـ وماذا عن الداخل ؟!

بدت الدهشة على وجه (بيتون) ، وكأنما لم يتوقّع رد الفعل هذا ، ثم لم يلبث أن ابتسم ابتسامة كبيرة ، لم تتناسب قط مع فحوى عبارته ، وهو يجيب :

ـ إنه أكثر خطورة .

سأله (أكرم) فى اهتمام :

ـ كيف ؟!

لوّح (بيتون) بيده عدة مرات ، دون أن يقول شيئًا ، ثم لم يلبث أن اندفع ، قائلاً :

ـ المبنى كله يحوى حجرة واحدة مغلقة ، فى الطابق الثانى منه ، وهى حجرة اجتماعات على الأرجح ، أما الطابق الأوّل ، فهو أشبه بثكنة عسكرية ، إذ يحوى استعدادات لصد هجوم مسلّح قوى ، وهناك ممر واحد ، يقود إلى تلك الحجرة المغلقة ، فى الطابق الثانى ، وذلك الممر يقوم على حراسته أربعة من رجال القوات الخاصة ، المدربين على مكافحة الإرهاب ، أما الحجرة نفسها ، والممر المؤدى إليها ، فكلها مراقبة بآلات تصوير دقيقة ، وهناك طاقم من ثلاثة أفراد ، يراقب ويسجّل كل ثانية طوال الوقت .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، وتراجع مستطردًا :

ـ باختصار ، من المستحيل الوصول إلى تلك الحجرة ، حتى بالنسبة لفأر صغير ، دون أن ينكشف أمره ، ويتم سحقه سحقًا .

ارتسمت ابتسامة هادئة على شفتى الشاب ، وهو يقول :

ـ هذا بالنسبة للفأر .

قالها ، ونهض فى بساطة ، مستطردًا :

ـ أشكرك كثيرًا يا أدون (بيتون) .. لقد أحسنت شرح الموقف بحق .

ارتبك (بيتون) ، وهو ينهض ، قائلاً :

ـ أتعشَّم هذا ، فهذه آخر مهمة لى ، قبل أن أصفّى أعمالى فى (إسرائيل) ، وأرحل إلى (ألمانيا) ، وكم أتمنى أن أكون ذا فائدة لك فيها .

ابتسم الشاب ، وهو يصافحه ، مغمغمًا :

ـ بالتأكيد .

ثم استدار لينصرف ، ولكن (بيتون) أمسك كتفه ، قائلاً فى صوت مرتبك :

ـ لحظة يا مستر (روبنسون) ..

التفت إليه الشاب بنظرة متسائلة ، فارتبك أكثر ، وهو يقول :

ـ معذرة لاستخدامى هذا الاسم ، ولكننى أجهل اسمك الحقيقى .

قال الشاب فى هدوء ، وهو يتطلَّع إليه فى اهتمام :

ـ لا عليك .

ازدرد (بيتون) لعابه ، قبل أن يقول :

ـ إننى أتمنى لك نجاح مهمتك بالتأكيد ، وأتعشَّم أن تعود إلى الوطن سالمًا ، وفى هذه الحالة ، ولأنه من المحتمل ألا نلتقى ثانية أبدًا ، فإننى أرجو أن تحمل معك شيئًا إلى (مصر) .

سأله الشاب بنفس الهدوء :

ـ شىء مثل ماذا .

هتف (بيتون) فى لهفة :

ـ تحية ..

ارتفع حاجبا الشاب فى دهشة ، فتابع (بيتون) فى صوت متهدِّج ، يحمل مشاعر الدنيا كلها :

ـ تحية لأستاذى .. للسيِّد (عبد المحسن) .. أخبره أن أكثر ما يشتاق إليه (رفعت) دائمًا ، هو رؤيتك .

قالها ، وغلَّفهما صمت مهيب بضع لحظات ، قبل أن يمدّ (أكرم) يده لمصافحته ، قائلاً فى حزم :

ـ سأبلغه بإذن اللّه .

وشدّ على يد (بيتون) فى حرارة ، ثم استدار لينصرف ، وعندما فتح الباب ، توقَّف عنده لحظة ، ثم استدار إليه ، مستطردًا بكل الحزم :

ـ هذا وعد .

قالها ، وأغلق الباب خلفه ..

بكل هدوء ..

★ ★ ★

« مستحيل !! »

انطلقت الكلمة من بين شفتىَّ فى قوة ، عندما توقَّف (ا . ص) عن روايته بضع لحظات ، فالتفت إلىَّ فى دهشة ، وكذلك فعل السيِّد (لبيب) ، الذى سألنى مستنكرًا :

ـ ما هو المستحيل ؟!

أجبت فى توتر :

ـ دخول حجرة اجتماعات (درع القادة) .. الإسرائيليون لم يتركوا ثغرة واحدة ، فى ذلك الجدار الأمنى الصلب ، الذى أحاطوا به المكان .. لقد احتاطوا لكل الاحتمالات بلا استثناء .

مطَّ السيِّد (لبيب) شفتيه ، فى حين ارتسمت ابتسامة هادئة على شفتى (ا. ص) ، وهو يميل نحوى ، قائلاً :

ـ من أهم القواعد التى تعلمناها ، عند التحاقنا بالمخابرات العامة ، أن كل النظم الأمنية ، مهما بدت محكمة ، تحوى حتمًا ثغرة ما ، فجوة صغيرة ، بين كل الإجراءات المحكمة ، تكفى لعبور دقيق مدروس .

سألته فى حيرة :

ـ وأين الثغرة فى نظام محكم كهذا ؟!

تبادل نظرة باسمة مع السيِّد (لبيب) ، قبل أن يقول :

ـ هنا تكمن نقطة التفوّق .. أن تنجح فى العثور على الثغرة الخفية ، فى أىّ نظام أمنى للخصم ، دون أن ينتبه هو نفسه إليها .

سألته :

ـ وهل عثرت على تلك الثغرة ؟!

استعاد ابتسامته الهادئة ، وهو يجيب :

ـ بالتأكيد .

سألته فى لهفة :

ـ وما هى ؟!

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

ـ لا تتعجَّل الأمور .. دع كل شىء يأتى فى وقته بالضبط .

سألته ، فى شىء من العصبية :

ـ أهذه أيضًا إحدى نقاط التفوق ؟!

أومأ برأسه ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .

ثم عاد يسترخى فى مقعده ، ويشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، متابعًا :

ـ من الناحية الظاهرية ، لم تكن هناك ثغرة واحدة فى نظام الأمن ، المحيط بحجرة اجتماعات (درع القادة) ، ولكن الرجال فى (القاهرة) كان لهم رأى آخر ، لذا فقد طلبوا منى ، قبل أن أسافر إلى (إسرائيل) ، أن ألتقى بعميل سرّى آخر .

سألته :

ـ بخلاف أدون (بيتون) ؟!

أجاب فى هدوء :

ـ بالتأكيد .. لقد كان عميلاً آخر ، يعمل فى وزارة الدفاع الإسرائيلية نفسها ، ولديه معلومات مهمة للغاية ، بشأن مبنى (درع القادة) ، ولقد حدّدت المخابرات المصرية موعد ومكان اللقاء ، فى قلب أحد أكبر ميادين (تل أبيب) ، فى صباح اليوم التالى مباشرة .

وشرد بصره لحظة ، قبل أن تحمل شفتاه ابتسامة خاصة ، توحى بأنه يستعيد ذكرى قديمة ، تجمع على نحو عجيب ، بين الارتياح والحزن ، ثم لم يلبث أن أعاد عيناه إلىّ ، قائلاً :

ـ وكان من الطبيعى أن أتبادل مع ذلك العميل عبارات تعارف خاصة ، لأن كلينا كان يجهل شخصية الآخر تمامًا .. كل ما كنا نعلمه هو أننا سنلتقى فى التاسعة والنصف ، أمام مقهى فرنسى الطراز ، وأن كلاً منا سيضع على صدره شارة خاصة صغيرة ، لتمييز كل منا للآخر .

سألته :

ـ وهل سار كل شىء على ما يرام ؟!

حملت شفتاه مرة أخرى تلك الابتسامة الخاصة العجيبة ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .

ثم اتسعت ابتسامته ، وهو يضيف :

ـ ولكن الموقف كله كان يحمل لى مفاجأة .. مفاجأة مدهشة .

قالها ، وعاد يروى قصته ، لينتقل إلىّ أثر تلك المفاجأة .. وبقوة .

★ ★ ★

٢ـ الثغـــرة ..

عندما يقف المرء فى أوسع ميادين (تل أبيب) ، ليلتقط بعض الصور ، للمبانى القديمة ، كأى سائح تقليدى ، فمن الطبيعى ألا يلفت هذا انتباه أحد فى المعتاد ..

حتى عندما تظاهر هذا السائح بأنه يحاول عبثًا تغيير فيلم آلة التصوير ، مع جهله الشديد بالآلة نفسها ..

وبينما يتظاهر السائح بالحيرة والارتباك ، أتاه صوت من خلفه ، يقول :

ـ هل تستخدم أفلامًا من السليولوز الساخن ؟!

انعقد حاجبا السائح فى دهشة متوترة ، عندما سمع العبارة ، والتفت إلى صاحبها فى حركة حادة ..

أو بمعنى أدق ، إلى صاحبتها ..

كانت فتاة فى أواخر العشرينات من العمر ، جميلة الملامح إلى حد مدهش ، سوداء الشعر والعينين ، خمرية البشرة ، لها ابتسامة ساحرة ، على الرغم من التوتر الملحوظ فى صوتها ، وهى تكرر :

ـ هل تستخدم ذلك النوع ؟!

كان من الواضح أن تأخره فى الجواب قد أثار توترها ، لذا فقد انتزع نفسه من دهشته ، وهو يجيب :

ـ بالتأكيد ، ولكننى أضيف إليه بعض الثلج .

بدا عليها الارتياح ، وهى تلتقط آلة التصوير ، مغمغمة :

ـ هذا يجعل مذاقه أفضل .

كان يتطلَّع إليها بدهشة كبيرة ، وشعوره بالمفاجأة لم يزايله بعد ..

فمنذ بدأ مهمته ، وحتى هذه اللحظة ، كان يتصوَّر أن العميل الثانى ، الذى سيلتقى به فى (تل أبيب) ، هو أحد العسكريين ، العاملين فى وزارة الدفاع الإسرائيلية ..

ولكنه لم يتصوَّر قط أن يكون هذا العميل فتاة كهذه ..

فتاة حسناء ساحرة ، ترتدى ثياب سكرتيرة عسكرية أنيقة ..

ولقد فحص تلك الفتاة بنظرة واحدة سريعة مدرَّبة ، وهى تخرج الفيلم من آلة التصوير ، وتستبدل به فيلمًا آخر ، ثم تعيد إليه الفيلم والآلة ، وهى تبتسم ، وكأنها تلقى عبارة مجاملة ، فى حين كانت تقول فى الواقع :

ـ الخامسة والربع بالضبط .. شارع (بن جوريون) .. المبنى رقم سبعة .. الشقة اليسرى فى الطابق الثالث .. ثلاث طرقات متفرِّقة .

قالتها فى سرعة واقتضاب ، ثم لوَّحت بيدها ، قائلة بنفس الابتسامة :

ـ من الأفضل أن تتعلَّم استبدال الفيلم ، مادمت ستقضى هنا بعض الوقت .

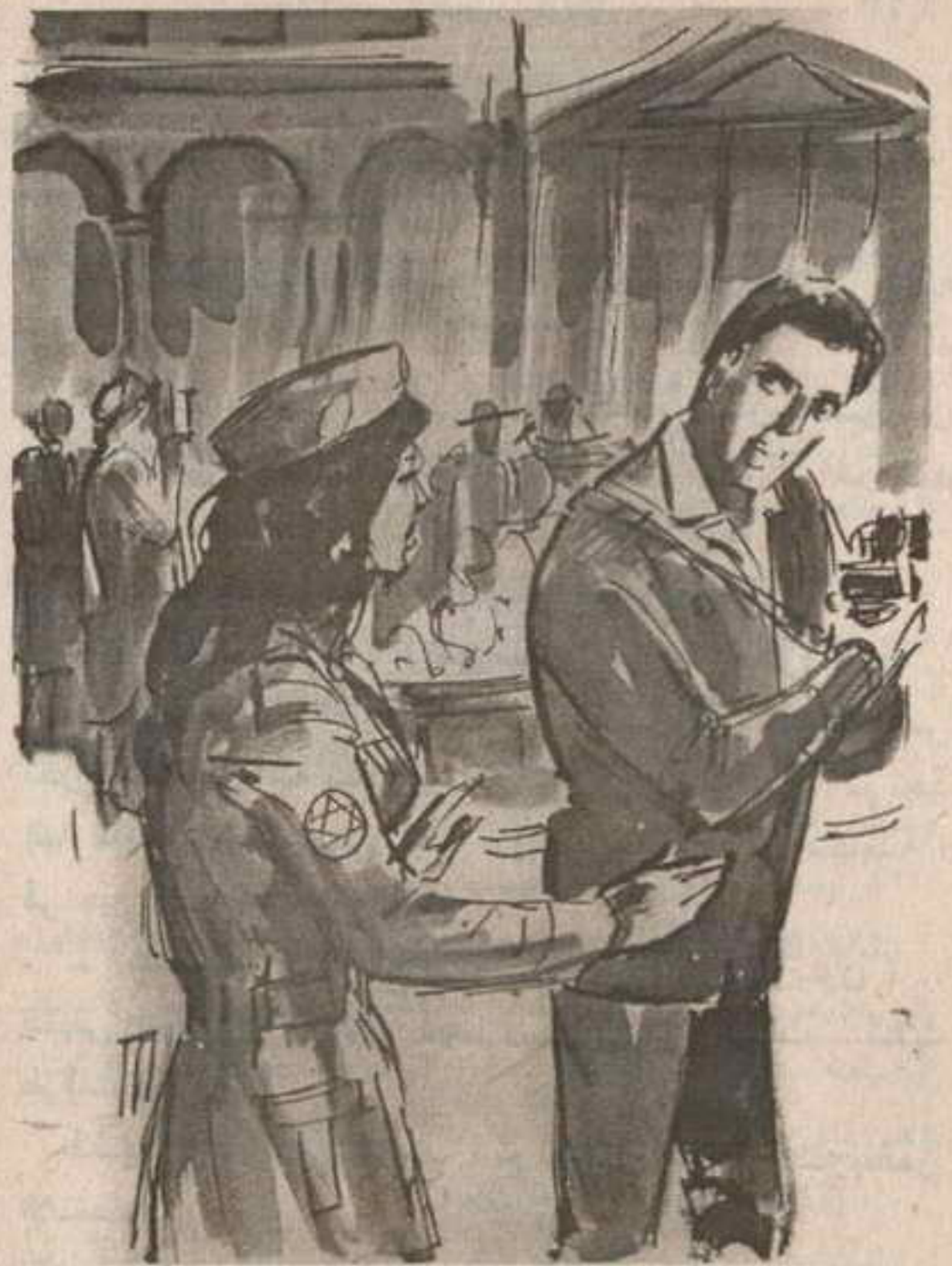

كان يتطلع إليها ، بدهشة كبيرة ، وشعوره بالمفاجأة لم يزايله بعد ..

تمتم ، وهو يلوّح بيده :

ـ بالتأكيد .

انصرفت فى خطوات سريعة ، ولم تلبث أن اختفت وسط الزحام ، وهو يتابعها ببصره فى صمت ..

وفى أعماقه ، تضاعف ذلك الشعور بالدهشة ..

هذا لأنه لم يكن يتوقّع ما حدث قط ..

صحيح أنه مقاتل فذّ ، من طراز غير مسبوق ، إلا أن عقليته ، فى ذلك الحين ، لم تكن من التطوّر ، بحيث يمكنه استيعاب وتقدير دور المرأة ، فى عمل كهذا ..

لقد كان يعتقد ـ آنذاك ـ أن طبيعة العمل فى أجهزة المخابرات ، تحتاج حتمًا إلى قوة وبأس الرجال ..

فقط الرجال ..

ولكن هذا الرأى لم يؤثّر قط فى أدائه هذه المرة ..

ففى تمام الخامسة والربع ، كان يطرق باب الشقة اليسرى ، من الطابق الثالث ، فى المبنى رقم سبعة ، من شارع (بن جوريون) ، ثلاث دقّات متفرّقة ، ولم يكد ينتهى من الدقّة الثالثة ، حتى انفتح الباب فى سرعة ، وظهرت على عتبته تلك الفتاة ، التى أفسحت الطريق فى سرعة ، وهى تقول بالعبرية :

ـ ادخل .

دلف إلى الشقة فى سرعة ، فأغلقت هى بابها خلفه ، ثم ألصقت وجهها به ، لتتطلّع عبر العين السحرية فى منتصفه ، إلى الممر الممتدّ أمام المدخل ، فقال هو فى هدوء :

ـ لم يتبعنى أحد .

سألته فى توتر :

ـ وكيف يمكنك أن تثق بهذا ؟!

أجاب فى حزم :

ـ أنا واثق .

التفتت إليه بحركة حادة ، وتطلّعت إليه لحظة ، قبل أن تندفع إلى حقيبة كبيرة ، وتلتقط منها ملفًا ضخمًا ، وضعته على المائدة ، قائلة :

ـ هنا ستجد كل ما طلبوه فى (القاهرة) .

جذب مقعدًا ، وجلس إلى جوار المائدة ، والتقط الملف ، وهى تتابع ، فى شىء من العصبية :

ـ كل البيانات الخاصة بالعاملين فى مبنى (درع القادة) .

غمغم فى اقتضاب :

ـ عظيم .

وفى صمت وهدوء تامين ، راح يراجع بيانات وصور كل العاملين بالمبنى .

الضباط ..

الجنود ..

طاقم الدبَّابة ..

وحتى المراقبين ..

ودون أن تنبس ببنت شفة ، جلست الفتاة على أريكة صغيرة ،

فى مواجهة المائدة مباشرة ، وراحت تراقبه ، فى مزيج من التوتر والاهتمام ..

ثم فجأة ، انتفضت فى مجلسها ..

هذا لأنها انتبهت بغتة ، إلى أنها تتطلّع إليه كأنثى ، وليس كفتاة عسكرية ، فى مهمة كهذه ..

لذا ، فقد قالت فى عصبية :

ـ هل ترغب فى تناول بعض الشاى ؟!

رفع عينيه عن الأوراق ، قائلاً :

ـ ما اسمك ؟!

كان سؤاله مباغتًا ، حتى إن حاجبيها قد ارتفعا فى دهشة مبالغة ، واتسعت عيناها عن آخرهما ، وارتجفت شفتاها ، قبل أن تضمَّهما فى حزم ، ثم تقول :

ـ سأذهب لإعداد الشاى .

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ، وهو يقول :

ـ لا بأس .. إننى أتناوله بدون سكّر على الإطلاق .

ثم عاد يراجع تلك الأوراق فى اهتمام بالغ ..

كان يتوقّف طويلاً عند الصور الشخصية للعاملين بالمبنى ، فيفحصها ، ويمحصها ، ويراجعها من كل الزوايا ، قبل أن يقرأ كل البيانات الخاصة بأصحابها ، بمنتهى الإمعان .

ثم لم يلبث أن انتقى خمسة ملفات بالتحديد ، ودفع الباقى جانبًا ، فسألته الفتاة ، وهى تضع قدح الشاى أمامه :

ـ هل أعيدها إلى الحقيبة ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يتمتم :

ـ لو تفضّلت بهذا .

التقطت كومة الملفّات الفرعية ، وأعادتها إلى الملف الضخم ، الذى وضعته فى الحقيبة ، وهى تختلس النظـر إلـى الشـاب فـى فضول ..

كان قد فرد الملفات الخمسة أمامه ، وأخذ يطالعها كلها فـى آن واحد ، وقد بدا مستغرقًا فى عمله حتى النخاع ، و ..

« ميرينا » ..

نطقت الاسم فجأة ، بلهجة تشفّ عن عصبية خفيـة ، فرفـع الشاب عينيه إليها بنظرة متسائلة ، جعلتها تتابع فى توتر :

ـ اسمى (ميرينا) .. (ميرينا يازوسكى) .

ابتسم ابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

ـ تشرّفنا .

نطقها بلهجة هادئة مهذّبـة ، ثم أزاح أحد الملفّات جانبًا ، وعاد يطالع الملفّات الأربعة الأخرى ، فى اهتمام بالغ ..

وانعقد حاجباها فى عصبية ، قبل أن تقول فى حذر :

ـ عم تبحث بالضبط ؟!

ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة ، وهو يتجـاهل سـؤالها تمامًا ، فمطّت شفتيها فى غضب أكثر ، وقالت فى عصبية :

ـ ينبغى أن تشرب الشاى ، قبل أن يبرد .. أليس كذلك ؟!

لم يجب سؤالها ، فى هذه المرة أيضًا ، وإن جذب إليه أحد الملفّات الأربعة ، فى اهتمام كبير ، وتطلّع إلـى صـورة صاحبـه لحظة ، قبل أن يرفع عينيه إليها ، متسائلاً :

ـ كم يستهلك طاقم الحراسة الليلى من القهوة ؟!

كان هذا السؤال أيضًـا مباغتًـا ، فعـاد حاجباهـا يرتفعـان فـى دهشة ، قبل أن تهتف مستنكرة :

ـ القهوة ؟!

اعتدل فى مقعده ، قائلاً :

ـ نعم يا (ميرينا) .. أريد معرفة كم استهلاكهم اليومى من القهوة ، ونوع البرامج التى يشاهدونها فى المعتاد ، فـى أثنـاء سهراتهم الليلية .

حدّقت فى وجهه بدهشة بالغة ، قبل أن تعتدل فى مجلسها ، قائلة :

ـ سأحاول .

أجابها فى صرامة :

ـ بل ستفعلين .

أدهشتها لهجته الآمرة ، وأثارت فى نفسها شيئًا من الحنق ، الممتزج بإعجاب أنثوى ، لم تلبث أن أخفته فى أعماقها ، وهى تسأل فى حدة :

ـ ومتى تريد هذه المعلومات ؟!

أجاب بنفس اللهجة :

ـ غدًا ، فى الخامسة تمامًا .. هنا .

قالها ، وجمع كل الملفَّات ، وأعادها إليها ، وهو ينهض من مقعده ، ويلتقط سترته ، فنهضت بدورها ، متسائلة :

ـ هل ستنصرف الآن ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يتجه إلى الباب ، ويلقى نظرة عبر عينه السحرية ، ليطمئن إلى خلـو الممر المقابل ، فسألته فى حيرة متوترة :

ـ ألن تحصل على أية معلومات من هذه الملفَّات ؟!

ابتسم ، قائلاً :

ـ لقد حصلت عليها بالفعل :

ـ قالها ، وفتح الباب ليتجاوزه فى سرعة ، ويغلقه خلفه فى خفة ، تاركًا إياها داخل ذلك المنزل الآمن ، تحدِّق فى الباب المغلق لحظة ، قبل أن تعتدل فى وقفتها ، وتشدّ قامتها ، ثم تبتسم ابتسامة حالمة ، مغمغمة :

ـ يا لك من رجل !

أما هو ، فقد غادر المبنى ، وراح يبتعد عنه فى خطوات طويلة واسعة سريعة ، قبل أن ينحرف فى شارع جانبى آخر ، ومنه إلى شارع ثان ، وثالث ، ورابع ..

وأخيرًا ، اطمأن إلى أن كل شىء يسير على ما يرام ، فهدأت خطوته ، واستوقف واحدة من سيارات الأجرة ، التى حملتـه إلى قرب الميناء ، وهنـاك ، جوَّل بعض الوقت ، حتى

بلغ نقطة متفق عليها ، حيث تنتظره سيارة ، انطلقت بـه على الفور ، عبر شوارع (تل أبيب) ، وبدا سائقها مبتهجًا للغاية ، وهو يقول له بالعربية :

ـ مرحبًا بك فى (تل أبيب) .

ابتسم الشاب ، قائلاً :

ـ بل قل مرحبًا بك فى (فلسطين) المحتلّة يا (وليد) .

هزَّ السائل الفلسطينى رأسه ، مغمغمًا :

ـ صدقت والله .

ثم أضاف فى سرعة وجدّية :

ـ لقد أعددنا لك موقعًا ممتازًا ، وستجد لدينا كل الأدوات المطلوبة .

غمغم (أكرم) ، وهو يسترخى فى مقعده :

ـ عظيم .. عظيم ..

لم يكن الليـل قد انتصف بعد ، إلا أنـه كـان يشعر بإرهاق شديد ، جعله يسبل جفنيـه ، ويرخى أطرافه كلها ، ويستغرق فى النوم داخل السيارة ، التى واصلت انطلاقها فى (تل أبيب) ، وقد لاذ سائقها الفلسطينى بالصمت التام ، حتى يمنح الشاب فرصة مناسبة للنوم والراحة ..

« استيقظ أيها الشاب ... استيقظ » ..

تسلَّلت العبارة إلى أذنى (أكرم) ، خافتة رقيقة قريبة ، فاعتدل فى مجلسه ، وفتح عينيه ، قائلاً :

ـ هل وصلنا ؟!

أومأ (وليد) برأسه إيجابًا ، فغادر (أكرم) السيارة ، واندفع نحو المبنى القريب ، وسرعان ما انضمّ إليه (وليد) ، واستقلّ الاثنان المصعد إلى الطابق الثامن ، ثم دلفا إلى شقة واسعة أنيقة ، والفلسطينى يقول فى حماس :

ـ هذا المكان يبعد عن المبنى العكسرى ثلاثين مترًا ، ولكن لدينا حجرة جانبية هنا ، تطلّ عليه مباشرة ، وستجد بها كل ما طلبته .

اتجه الشاب مباشرة إلى تلك الحجرة ، وتطلّع إلى المنظار المقرّب القوى ، الذى اتصلت به آلة تصوير حديثة ، مزوّدة بعدسات خاصة للرؤية الليلية ، إذا ما احتاج الأمر لهذا ، وغمغم :

ـ لقد أعددتم كل شىء بالفعل .

بدا الارتياح على وجه الفلسطينى ، وهو يقول :

ـ بالنسبة للجيران هنا ، فهذه الشقة خالية ، لسفر صاحبها إلى (أوروبا) ، أما بالنسبة لك ، فستجد كل ما تحتاج إليه هنا ، من طعام وشراب وأدوات معيشة ، ويمكنك الاختفاء لمدة شهر كامل لو أردت .

غمغم الشاب :

ـ كل ما احتاج إليه هو يوم واحد .

لوّح (وليد) بيده ، قائلاً :

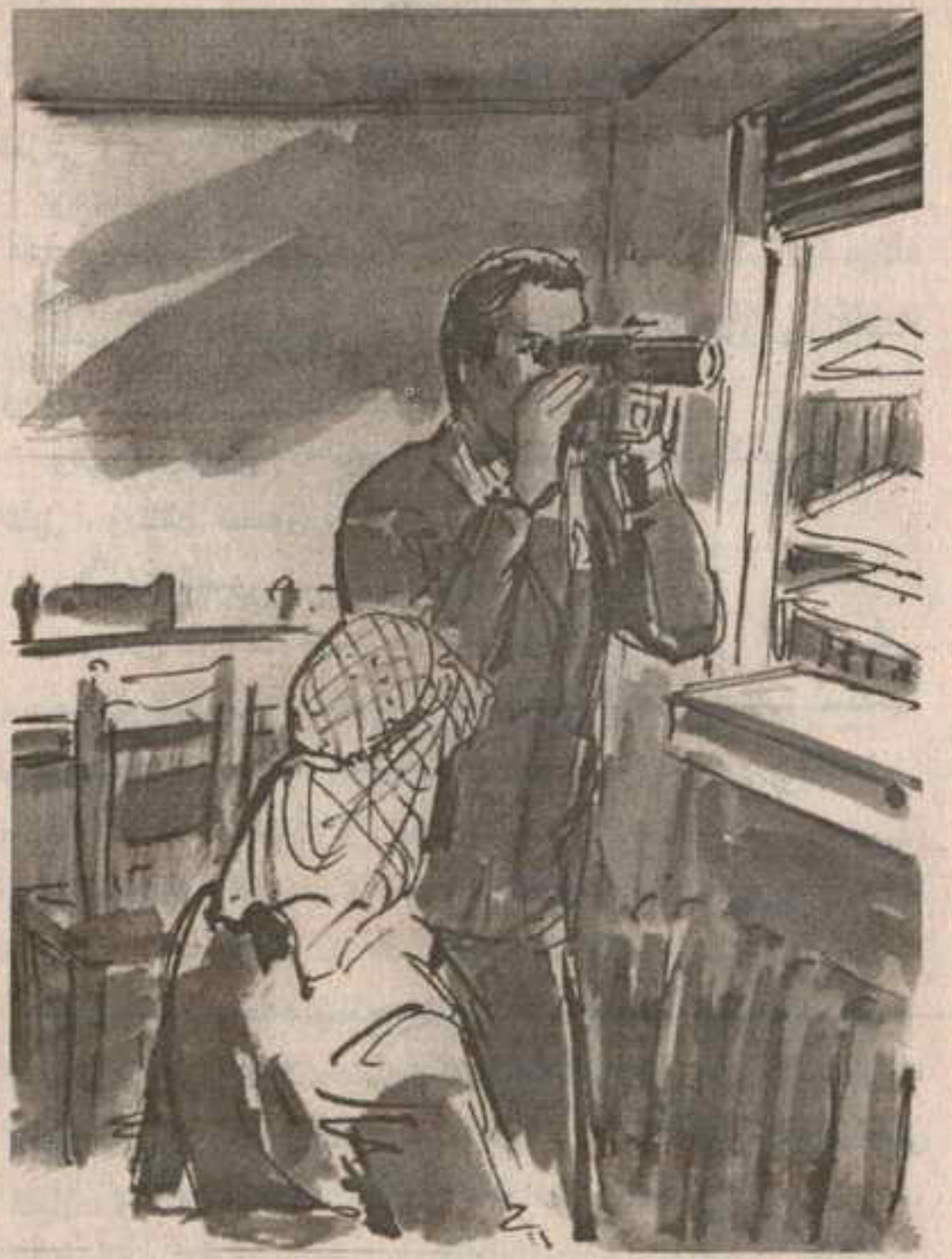

اتجه الشاب مباشرة إلى تلك الحجرة ، وتطلع إلى المنظار المقرب القوى

ـ خذ كل ما تحتاج إليه من وقت ، أما أنا فسأعود إلى منزلى ، حتى لا أثير الشبهات ..

قال (أكرم) فى هدوء :

ـ هذا أفضل بالتأكيد .

تمنَى له الفلسطينى التوفيق ، ثم غادر المنزل ، وتركه وحده ، فى تلك الحجرة الجانبية ..

وفى هدوء وبراعة تامين ، راح الشاب يراقب المبنى طوال الليل ، ويلتقط الصور ..

عشرات الصور ..

كان من الواضح أنه يدرس المكان كله بمنتهى الدقة ، فى محاولة لوضع خطة مناسبة ، لتنفيذ تلك العملية ، التى أسندتها إليه المخابرات العامة المصرية ..

العملية المستحيلة ..

تمامًا ..

★ ★ ★

« هل تعتقد أنه سينجح ؟! »

ألقى الرئيس (السادات) سؤاله هذا ، على مدير المخابرات العامة ، وهو يجلس معه فى شرفة منزله الخاص ، المطلّ على النيل ، ويشعل غليونه الشهير ، فاعتدل المدير فى مجلسه ، وأجاب فى ثقة :

ـ نعم .. كلنا نعتقد هذا يا سيادة الرئيس .

واصل الرئيس إشعال غليونه للحظة أخرى ، قبل أن يطفىء قدّاحته ، قائلاً فى قلق :

ـ العملية ليست بسيطة ، والوقت المتاح للتنفيذ قليل للغاية ، فلا بد أن يستعيد الفتى ذلك الشريط ، قبل مساء الجمعة ، وإلاّ فسيكشف الإسرائيليون أمره ، عندما يبدءون فى تركيب الأجهزة الجديدة ، التى حصلوا عليها من الأمريكيين .. أنت تعلم أن هذا ما جعل الأمر عاجلاً للغاية ..

تنهَّد مدير المخابرات ، مغمغمًا :

ـ أعلم يا سيادة الرئيس .

ثم نهض من مقعده ، وبدا وكأنه يستعيد الأمر كله أمام الرئيس ، وهو يتابع فى اهتمام :

ـ تلك الاتفاقية السرية ، بين الإسرائيليين والأمريكيين ، بشأن أجهزة المراقبة ومنع التنصُّت الجديدة ، والتى توصَّلنا إليها من خلال عميل سرى مهم للغاية ، هى التى دفعتنا للقيام بهذه المهمة الخطيرة على وجه السرعة ، قبل أن يبدأ الإسرائيليون فى نزع البطانة الخشبية لجدران قاعة اجتماعات (درع القادة) ، فى أثناء تركيبهم لتلك الأجهزة الجديدة ، فيكشفوا أمر جهاز التسجيل والشريط .. ولهذا لم يكن لدينا الوقت الكافى لدراسة المكان ، أو جمع المعلومات اللازمة ، للقيام بعملية حسَّاسة كهذه .. ولقد عقدت اجتماعًا عاجلاً لمناقشة الأمر ، مع كبار مساعدىَ ، وخبراء الجهاز ، وفى نهايته اتفق رأينا جميعًا على أن (أكرم صدقى) هذا هو أفضل من يقوم بالمهمة .

نفث الرئيس دخان غليونه ، وهو يقول :

ـ الأمر الوحيد الذى يقلقنى ، هو صغر سنه ، بالنسبة لمهمة كهذه .

ابتسم مدير المخابرات ، قائلاً :

ـ هذا الشاب حالة خاصة يا سيادة الرئيس .. أنت نفسك منحته ترقية استثنائية ؛ لبطولاته المدهشة ، قبل وفى أثناء حرب أكتوبر ، ثم إن والده (صدقى) رحمه الله ، قد صنع منه مقاتلاً فذًا ، منذ نعومة أظفاره ، فى تجربة لست أظنها تتكررً ، فى هذا الجيل ، فـ (أكرم) لا يجيد عشرات المهارات القتالية ، وعدة لغات حية فحسب ، وإنما لديه أيضًا القدرة على دراسة الموقف ، ووضع الخطة المناسبة للتنفيذ ، عندما تتوافر لديه المعلومات الكافية ، وهذا ما كنا نحتاج إليه بالضبط .. شخص يمكنه القيام وحده ، بما كنا سنفعله مجتمعين .. أن يجمع المعلومات ، ويرتبها ، ويستخلص منها كل النتائج الممكنة ، ثم يحوّل كل هذا إلى خطة متقنة ، واقعية ، تصلح للتنفيذ ، ولتحقيق كل الأهداف المنشودة .

بدا الارتياح على وجه الرئيس ، وهو يتمتم مبتسمًا :

ـ إذن فأنت تثق به .

أجابه المدير فى حزم :

ـ تمامًا مثلما كنت أثق بوالده (رحمه الله) يا سيادة الرئيس .

أومأ الرئيس برأسه موافقًا ، ونفث دخان غليونه بابتسامة كبيرة ، وهو يقول بالإنجليزية :

ـ الابن مثل الأب .

ثم أشار إلى مدير المخابرات ، مستطردًا :

ـ أريد معرفة النتائج أولاً فأولاً .. إننا فى مساء الثلاثاء ، وهذا يعنى أنه ليس أمامه سوى يومين فحسب ، قبل أن يبدأ الإسرائيليون عملهم ، مع صباح الجمعة .

تنهّد مدير المخابرات ، قائلاً :

ـ اطمئن يا سيادة الرئيس .. (أكرم) سينجح فى مهمته بإذن الله (سبحانه وتعالى) .

نطقها بكل الثقة والحزم ، على الرغم من أن كيانه كله كان يشتعل بسؤال واحد ..

تُرى هل سيتمكّن (أكرم) من تنفيذ مهمته بنجاح ، وفى الوقت المناسب ؟!

هل ؟!

★ ★ ★

مع دقّات الساعة الثامنة ، من صباح الأربعاء ، بدأت عملية تغيير أطقم الحراسة ، فى مبنى (درع القادة) ..

وبدقة متناهية ، وعلى نحو شديد التنظيم ، تم استبدال طاقم الحراسة الخارجى ، وطاقم الدبّابة ، ثم امتدّ الاستبدال إلى كل الأطقم داخل المكان ، بدءًا من حرّاس الساحة الخارجية ،

وحتى رجال القوات الخاصة الأربعة ، فى ذلك الممر ، المؤدى إلى قاعة الاجتماعات ..

وفى تمام الثامنة وعشر دقائق ، كانت عملية الاستبدال قد اكتملت تمامًا ، واتخذ الطاقم الجديد موقعه ، فى حين أدَّى الطاقم الليلى تمامه ، واستعدَ للانصراف ، بعد ليلة طويلة مملَّة كالمعتاد ..

ومن بين أفراد ذلك الطاقم الليلى ، كان النقيب (ليفى) .. (شارون ليفى) ..

كان أحد رجال طاقم الأمن ، فى ثكنة الطابق الأوَّل من المبنى ، وأحد ضابطين مسئولين عن متابعة إجراءات الأمن فى المكان ..

ولكن الأكثر أهمية كانت ملامحه المتميِّزة ..

فالنقيب (ليفى) كان أشبه بجاويش بريطانى ، فى أوائل القرن العشرين ، بشعره الأحمر ، وشاربه الضخم ، وأنفه الكبير ، وطابع الحسن الغائر ، فى منتصف ذقنه العريض ..

وربما يعود هذا إلى أن جده كان بالفعل جاويشًا بريطانيًا ، إبان الحرب العالمية الأولى ، كما كان أبوه أحد ضباط الجيش الإنجليزى ، فى الحرب العالمية الثانية ..

و(شارون) نفسه كان من أوائل المهاجرين إلى (إسرائيل) ، التى هاجر إليها والده ، فور إعلانها كدولة ، بعد احتلال (فلسطين) مباشرة ، وأحد المشاركين فى عمليات القمع

والإرهاب الداخلى فيما بعد ، عند التحاقه بالجيش الإسرائيلى ، وحتى تم نقله إلى قوات الحراسات الخاصة ..

وفى ذلك اليوم ، كان النقيب (ليفى) يقاوم النعاس فى صعوبة ، وهو يقود سيَّارته إلى منزله ؛ لأنه قضى ليلته كلها فى مراجعة كافة إجراءات الأمن فى المبنى ، من الألف إلى الياء ..

وعندما بلغ منزله ، أوقف السيارة فى المكان المخصَّص لها ، ثم غادرها فى رصانة ، وعدَّل زيه العسكرى فى اعتداد ، و ...

وفجأة ، حدث ما حدث ..

كان هناك صبيان فلسطينيان يطارد أحدهما الآخر ، ويلاحقه بسباب ساخط ، ثم لم يلبث المطارد أن توقَّف ، وألقى شيئًا ما بيده ، نحو الآخر ، الذى كان ينطلق فى مسار يجعله ، فى لحظة إلقاء ذلك الشىء بالتحديد ، فى مواجهة النقيب (ليفى) مباشرة ..

ثم فجأة ، انحنى الصبى ، وكأنما يتفادى ذلك الشىء ، الذى ألقاه نحوه زميله ، وكأنما رآه بعينين خفيتين ، فى مؤخرة عنقه ..

وهكذا تجاوزه ذلك الشىء ، الذى لم يكن سوى بالون صغير ، مملوء بسائل ما ، وواصل طريقه كامتداد طبيعى ، ليرتطم بالنقيب (ليفى) ، وينفجر فى وجهه ..

وفى لحظة واحدة ، اختفى الصبيان ، وذلك السائل يغمر وجه (ليفى) ..

كانت له رائحة نفَّاذة ، تؤكِّد أنه ليس مجرَّد ماء عادى ، وخاصة مع ذلك الحرقان الشديد ، الذى تسلَّل إلى عينيه ، وهو يصرخ غاضبًا محنقًا مستنكرًا ..

وبكل غضب الدنيا ، صعد النقيب (ليفى) إلى منزله ، وقصَّ ما حدث على زوجته فى سخط ، وهو يستبدل زيه العسكرى ، ويغسل وجهه عدة مرات بماء دافئ ..

ولكن قبل مرور ساعة واحدة ، كانت عينا (ليفى) قد تورَّمتا وانتفختا ، وبلغ احمرارهما حدًّا لا يمكن السكوت عليه ..

لذا ، فقد اتجه (ليفى) على الفور إلى المستشفى العسكرى ، لفحص ما أصاب عينيه ..

وفى المستشفى ، طمأنه الطبيب ، وأخبره أن الأمر لا يتجاوز مجرَّد التهاب عادى ، ووصف له قطرة مخفِّفة للاحتقان ، ثم طلب منه ارتداء منظار داكن لعدة أيام ، حتى يزول هذا الالتهاب ، ويختفى احمرار عينيه ..

وفى نفس الوقت ، الذى عاد فيه النقيب (ليفى) إلى منزله ، واستغرق فى نوم عميق ، كان (أكرم) يراجع تقريره الطبى ، الذى أحضره إليه طبيب فلسطينى آخر ، ويبتسم ابتسامة كبيرة فى أعماقه ، على الرغم من ملامحه الجامدة ، التى لم تحمل أى انفعال قط ، وهو يعيد التقرير إلى الطبيب ، قائلاً :

ـ عظيم .. أعد هذا التقرير إلى موضعه .. لانريد أن ينتبه أىّ مخلوق إلى أن الحالة الصحية للنقيب (شارون ليفى) ، موضع اهتمام أىّ كائن كان .

سأله الطبيب فى اهتمام :

ـ ولكن لماذا فعلت به هذا ؟! بم يفيدك التهاب عينيه ؟!

أشار إليه الشاب بسبَّابته ، قائلاً فى حزم :

ـ لا تجعل هذا يقلقك .. لا تشغل بالك به على الإطلاق .

ثم التفت إلى الفلسطينى (وليد) ، مستطردًا :

ـ هل أعددت ما طلبته ؟!

أجابه (وليد) فى سرعة :

ـ الرجال يبذلون قصارى جهدهم ؛ لإعداده فى الوقت المناسب .

سأله (أكرم) فى اهتمام :

ـ وماذا عن التسجيلات ؟!

ناوله الطبيب شريط تسجيل صوتيًّا صغيرًا ، وهو يقول :

ـ ها هى ذى .. لقد سجَّلت كل ما دار بين (ليفى) والطبيب .

ثم هزَّ رأسه ، وهو يضيف فى حيرة :

ـ وإن كنت أتساءل بم يمكن أن يفيدك هذا ؟! إنه مجرَّد حديث طبى ، لا يحوى أية أسرار عسكرية !

دسَّ الشاب الشريط فى جيبه ، قائلاً فى هدوء غامض :

ـ لا أحد يدرى ، ما الذى يمكن أن يفيد يا رجل ..

ثم التفت إلى (وليد) ، يسأله :

ـ هل استوعبت كل المطلوب منك أن تفعله ؟!

أومأ (وليد) برأسه إيجابًا ، وقال فى حزم :

ـ وبمنتهى الدقة .

أشار (أكرم) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ التوقيت يا رجل .. احرص كل الحرص على التوقيت .

أجابه فى حزم :

ـ اطمئن .

هزَّ (أكرم) رأسه ، مغمغمًا :

ـ عظيم .. أتعشَّم أن يسير كل شىء على ما يرام .

قالها ، قبل أن يلقى التحية على الجميع ، ويغادر المكان ، فى خطوات حازمة قوية ، فران الصمت التام ، حتى أغلق الباب خلفه ، وهنا هتف الطبيب :

ـ يالله .. إنه كتوم للغاية .. كتلة من الحزم والحسم والصرامة والغموض .

ابتسم (وليد) ، قائلاً :

ـ هكذا يكون الرجال .

ثم التفت إليه ، مستطردًا :

ـ إنها أوَّل مرة ألتقى فيها به ، ولم يسعدنى الحظ برؤيته يعمل ، حتى هذه اللحظة ، ولكن شيئًا ما فى أعماقى ينبئنى بأن هذا الشاب سيؤدى المهمة .. وعلى أكمل وجه .

نطقها ، فعاد الصمت يخيِّم على المكان طويلاً ..

صمت يحمل الكثير من الحيرة ..

والقلق ..

والتساؤل ..

والمهابة ..

بلا حدود ..

★ ★ ★

منذ وصلت (ميرينا) إلى عملها ، فى وزارة الدفاع الإسرائيلية ، وهى تشعر بتوتر شديد ..

بل يمكن القول بأن هذا التوتر لم يفارقها لحظة واحدة ، منذ تركت (أكرم) ، فى اليوم السابق ..

إنها لا تدرى لماذا بهرتها شخصيته إلى هذا الحد ، على الرغم من أنها لم تلتق به سوى مرة واحدة ، ولساعات محدودة ، لم يتبادلا خلالها سوى عبارات محدودة !!

ولكن شيئًا ما فيه ، كان يجذبها إليه بشدة ..

شيئًا لم ينجح عقلها فى التوصُّل إليه قط ..

ولكن قلبها فعل ..

ذلك القلب ، الذى يخفق فى قوة ، كلما استعادت ذاكرتها تفاصيل لقائهما القصير ..

ولكنها استنفرت كل إرادتها ، لإخماد تلك المشاعر فى أعماقها ..

فأمامها عمل عاجل ، لا بد من إنجازه ..

وإن كانت تجهل فائدته وأهميته تمامًا ..

تُرى ما الذى يعنى المخابرات المصرية ، من استهلاك طاقم الحراسة للقهوة ، ومتابعة برامج البث التليفزيونى ؟!..

ثم كيف يمكنها الحصول على معلومات كهذه ؟!..

ظلّ السؤال الأخير يتردَّد فى رأسها طويلاً ، وهى تجلس فى مكتبها ، فى قسم السكرتارية العسكرية ، حتى خلا المكتب من المترددين ، فتلفَّتت حولها فى حذر ، ثم نهضت إلى أرشيف التوريد ، وراحت تراجع فى سرعة سجلات الموردين ، وسجَّلت أسماء مورّدى البن ، والكميات التى يتم توريدها لمبنى (درع القادة) أسبوعيًا ، و ...

« ماذا تفعلين عندك ؟! »

انتفض جسدها فى عنف ، عندما انطلقت العبارة من خلفها ، فى صرامة شديدة ، واستدارت فى حركة حادة ، تواجه (دافيد أهارونى) ، ذلك العقيد الصلف ، الذى يرأس القسم ، والذى رمقها بنظرة نارية ، وهو يمدّ يده إليها ، مستطردًا فى حدة :

ـ ماذا لديك ؟!

كانت يدها الممسكة بالورقة تختفى ، خلف طرف مكتب قريب ، لذا فقد أفلتتها فى خفة ، وتركتها تسقط أسفل المكتب ، وهى تجيب :

ـ لا شىء يا سيِّدى .. إننى أراجع بعض الأوراق فحسب .

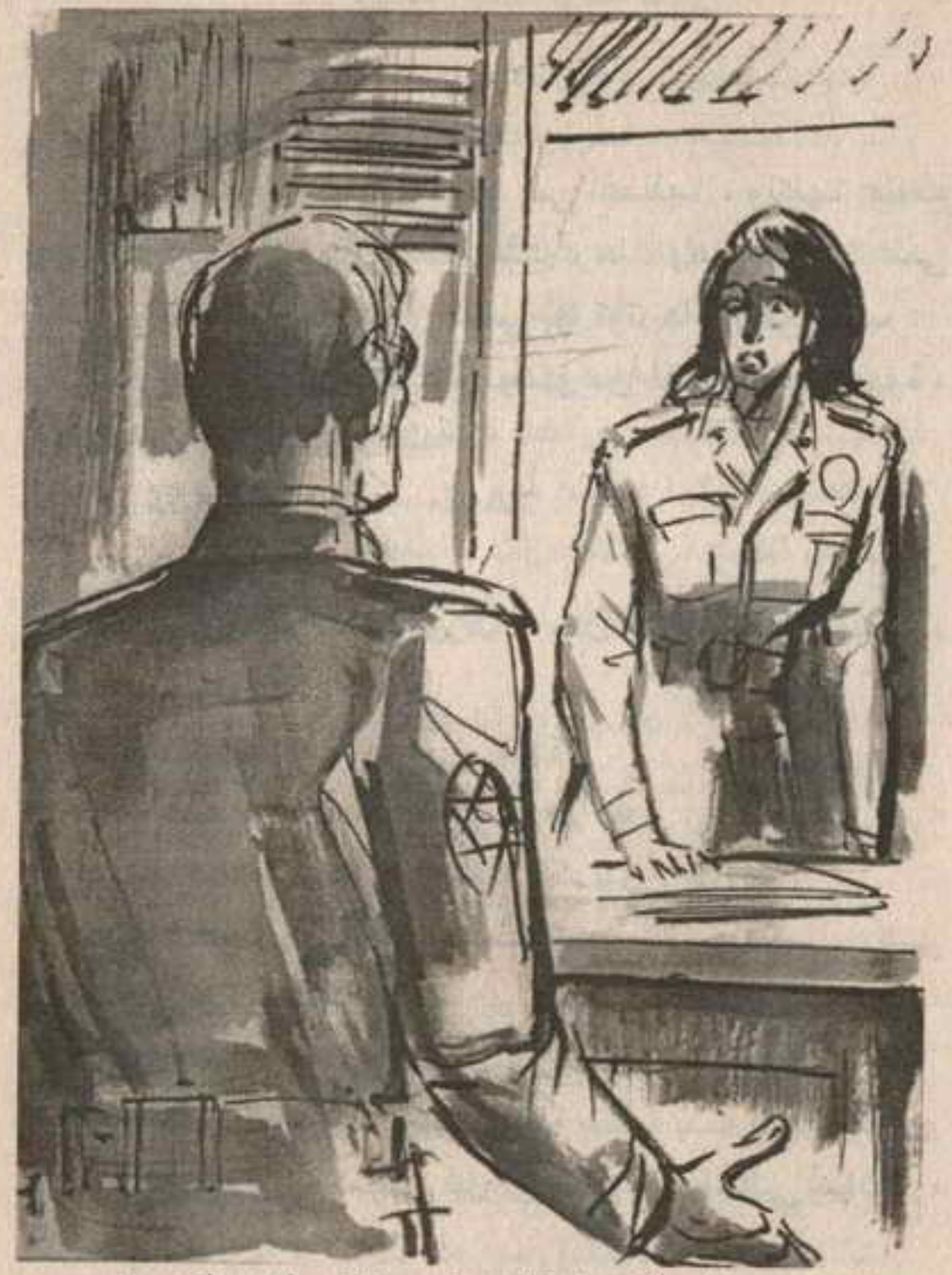

كانت يدها الممسكة بالورقة تختفى ، خلف طرف مكتب قريب

سألها فى صرامة :

ـ أية أوراق !!

كانت تشعر باضطراب شديد فى أعماقها ، ولكنها بذلت جهدًا خرافيًا ، للسيطرة على مشاعرها ، وهى ترسم على شفتيها ابتسامة ، حاولت أن تخفى بها توترها ، وهى تجيب :

ـ أوراق الموردين ، فالبعض يشكو من نقص كميات القهوة ، وبالذات فى النوبتجيات الليلية .

عقد كفيه خلف ظهره ، متسائلاً :

ـ ومن هذا البعض ؟!

خشيت أن يعثر على الورقة ، بكل ما بها من بيانات ، فأجابت فى سرعة :

ـ أطقم حراسة مبنى (درع القادة) .

انعقد حاجباه الكثَّان فى شدة ، وهو يقول :

ـ (درع القادة) ؟! وما شأنك أنت بدرع القادة ؟!

هزَّت كتفيها ، وأزاحت خصلة شعر عن جبهتها ، وهى تضحك فى توتر ، قائلة :

ـ إنهم يحتاجون القهوة كالآخرين .

ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يرمقها بنظرة بدت أشبه بخناجر حادة ، تنغرس فى جسدها ، قبل أن يلقى نظرة على ساعته ، قائلاً :

ـ أعتقد أن ساعة الانصراف قد حانت .

ازدردت لعابها ، وهى تغمغم :

ـ هذا صحيح .. سأرتب بعض الأوراق ، ثم أنصرف على الفور .

أشار بيده ، قائلاً :

ـ فليكن .. رتبى أوراقك .

قالها ، وهو يقف فى موضعه ، ويراقبها فى اهتمام ، فاتجهت إلى مكتبها ، وراحت ترتِّب بعض الأوراق فى ارتباك ، ثم التقطت حقيبتها ، قائلة :

ـ هل تسمح لى بالانصراف يا سيِّدى ؟!

أومأ العقيد (أهارونى) برأسه إيجابًا ، وأشار بيده ، قائلاً :

ـ هيا .. انصرفى ..

اختلست نظرة عصبية إلى المكتب المجاور ، الذى سقطت الورقة أسفله، ثم عادت ترسم تلك الابتسامة الخاوية على شفتيها ، وهى تغادر المكتب ، قائلة :

ـ إلى اللقاء يا سيادة العقيد .

تابعها الرجل ببصره ، دون أن يجيب تحيتها ، حتى غادرت المكان ، ثم أدار عينيه إلى ذلك المكتب الآخر ، واتجه إليه ، وانحنى يبحث أسفله ، حتى التقط تلك الورقة ، التى دوَّنت فيها البيانات ..

وتلاقى حاجباه الكثَّان فى شدة ، وهو يراجع ما كتبته ..

كانت كل البيانات تتفق مع ما ذكرته ، عن نقص كميات القهوة ..

ولكن شيئًا ما فى أعماقه ، كان يشتعل بالشك والريبة ..
وبسبب هذا الشىء ، دسّ العقيد (أهارونى) الورقة فى جيبه ، ثم التقط سمّاعة هاتف القسم ، وطلب رقمًا داخليًا ، ولم يكد يسمع صوت محدثّه ، حتى قال فى صرامة :
ـ أنا العقيد (أهارونى) .. (دافيد أهارونى) .. أريد مراجعة ملف السكرتيرة العسكرية (ميرينا يازوسكى) .. نعم .. مراجعة كاملة شاملة .. أريد التحقّق من كل بند ورد فى ملفها .. كل جملة .. كل كلمة .. بل كل حرف ..
وازداد التقاء حاجبيه ، حتى امتزجا ببعضهما ، وهو يضيف :
ـ أريد أن أعرف حقيقة ما تخفيه .. أيًا كان الأمر ..
وكان هذا يعنى أن العملية ستتخذ حتمًا منحنى أكثر تعقيدًا .. وخطورة ..

★ ★ ★

٤ ـ ميرينا ..

« أراهن على أنه قد امتلأ بالشكوك ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه .. »
نطقت (ميرينا) العبارة فى عصبية شديدة ، وهى تدور فى صالة ذلك المنزل الآمن ، فى شارع (بن جوريون) ، فى حين جلس (أكرم) يستمع إليها فى صمت واهتمام ، وهى تتابع :
ـ إنك لم تر نظراته ، ولم تشهد إصراره على ألا يغادر المكتب ، إلا بعد أن أغادره أنا .
ثم لوّحت بذراعيها فى حدة ، مستطردة :
ـ ولا ريب فى أنه سيعثر على الورقة ، وستنتابه عشرات الشكوك .
التقى حاجبا (أكرم) ، فى تفكير عميق ، وهو يقول :
ـ الورقة ستتناسب مع ما أخبرته به ، فى الوقت الحالى .
قالت فى عصبية :
ـ ولكنه سيتحرّى الأمر ، وسيدرك بسرعة أن أحدًا لم يشك من نقص القهوة ، فى (درع القادة) ، وسيشعل هذا شكوكه أكثر وأكثر ، وأمثاله لا يكتفون قط بالشكوك ، وإنما يحولونها على الفور إلى استجوابات ، وتحريات ، وعنف ، وقسوة .
ظلّ يتطلّع إليها فى صمت ، وعقله يعيد دراسة الموقف مرات ومرات ، ثم لم يلبث أن قال فى حزم :

ـ هل تحفظين التفاصيل ؟!

سألته فى دهشة متوترة :

ـ أية تفاصيل ؟!

أجاب فى صرامة :

ـ تفاصيل المعلومات ، التى حصلت عليها ، بشأن موردى وكميات القهوة .

ثم مال إلى الأمام مستطردًا :

ـ والتى ما كان ينبغى تدوينها قط ، طبقًا لما تعلّمته من قبل .

انعقد حاجباها فى عصبية ، وهى تقول :

ـ كانت معلومات كثيرة ، وليس من السهل حفظها ، فى ذلك الوقت الضيق .

قال فى صرامة :

ـ ولكنك تحفظينها الآن .

عضت شفتها السفلى فى قوة ، قبل أن تقول فى عصبية :

ـ حسن .. لقد أخطأت .. هل ستعاقبنى على هذا ؟!

نهض ، قائلاً :

ـ لا مجال هنا للعقاب أو المحاسبة .. المهم أن ننجز العمل .

ثم جذب مقعدًا ، وقدّمه إليها ، مستطردًا :

ـ والآن اجلسى ، وأخبرينى كل ما لديك .

أطاعته فى استسلام ، قائلة :

ـ لم أستطع معرفة برامجهم المفضّلة ، ولكننى حصلت على كل البيانات الأخرى ..

قال فى هدوء :

ـ أخبرينى إياها .

أخذت نفسًا عميقًا من هواء الحجرة ، فى محاولة لتهدئة أعصابها الثائرة ، قبل أن تبدأ فى إلقاء ما لديها ..

وفى هدوء وتركيز شديدين ، استمع هو إليها ، وعقله يختزن كل ما تلقيه على مسامعه من معلومات ، بشأن كميات القهوة المستهلكة ، وأسماء موزديها وبياناتهم ..

وعندما انتهت مما لديها ، كانت أعصابها قد هدأت إلى حد كبير ، فارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة ، وهى تقول :

ـ مازلت أجهل كيف يمكن أن يفيدك هذا ؟!

ابتسم ، قائلاً :

ـ دعى الأمر لى ..

ثم نهض مستطردًا فى حزم :

ـ المهم الآن ألا تذهبى إلى العمل غدًا .. تقدّمى بطلب إجازة طارئة ، أو تمارضى ، أو افعلى أى شىء يخطر ببالك .. المهم أن تختفى تمامًا عن الأنظار ، حتى تنتهى هذه المهمة .

سألته فى حذر وقلق :

ـ ثم ؟!

التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يجيب :

ـ ثم نعمل على إعادتك إلى (القاهرة) .

صعقها الجواب على نحو ملحوظ ، إذ انتفض جسدها كله فى عنف ، وهى تهتف :

ـ (القاهرة) ؟!

أجاب فى حزم :

ـ نعم .. (القاهرة) يا (ميرينا) .. لقد انكشف أمرك أو كاد ، وأصبح من المستحيل أن يستمر وجودك هنا .

ارتج عليها بعض الوقت ، وارتسمت فى عينيها حيرة كبيرة ، قبل أن تقول فى توتر بالغ :

ـ ولكن هذا يعنى نهاية عملى هنا .

أجاب :

ـ بالتأكيد .

تضاعف توترها وحيرتها لحظة أخرى ، قبل أن تنهض فى حدة ، قائلة :

ـ ليس الأمر بهذه البساطة .. أنا هنا منذ خمسة أعوام ، ولقد بذل الجميع جهدًا خرافيًا لزرعى فى المجتمع الإسرائيلى ، باعتبارى مهاجرة يوغسلافية ، ولقد كانت عملية متقنة ، حتى أننى حصلت على هذا العمل ، فى السكرتارية العسكرية ، فى وزارة الدفاع الإسرائيلية ، وليست أعتقد أن (القاهرة) ستتخلى عن هذا بسهولة .

أجابها فى صرامة :

ـ أنا هنا أمثِّل (القاهرة) .

هتفت محتدّة :

ـ كلاَّ .. لا يمكننى أن أقبل هذا .. إنها عملية متقنة ، وليس من السهل أن ..

قاطعها فى صرامة أكثر :

ـ عمليتك انتهت بالفعل يا (ميرينا) ، فملف (دافيد أهارون) يؤكد أنه رجل جم الحذر والشك ، ومادام قد شعر بالقلق تجاهك ، فلن يهدأ حتى ينبش ماضيك كله ، ولن يلبث أن يكشف أمرك ، إن عاجلاً أو آجلاً ، وعندئذ لن يمكنك الإفلات منه قط .

امتقع وجهها ، وهى تمتم :

ـ يا إلهى !.

تابع بلهجة آمرة :

ـ حاولى إنهاء كل الأمور المتعلِّقة بك الليلة دون إبطاء ، ثم انتقلى مع الصباح الباكر إلى هنا .. أو فى ساعة متأخرّة الليلة لو استطعت ، وسأقوم بكل الترتيبات الممكنة ، لإخراجك من (إسرائيل) ، بأسرع وسيلة ممكنة .

تطلَّعت إليه بنظرة صامتة لبضع لحظات ، قبل أن تقول فى خفوت :

ـ سأحاول .

والتقطت حقيبتها فى استسلام ، ثم اتجهت إلى الباب ، وتوقَّفت عنده لحظة فى توتر ، ثم التفتت إليه ، قائلة :

ـ أنا لست إسرائيلية فى الواقع .

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ أعلم هذا .

تنهَّدت فى عمق ، ثم لوَّحت بيدها ، وهى تغادر المكان ، قائلة :

ـ إلى لقاء قريب .

غمغم :

ـ بإذن اللَّه (سبحانه وتعالى) .

ـ ابتسمت فى توتر ، ولوَّحت بيدها مرة أخرى ، قبل أن تغلق الباب خلفها فى حذر ، حتى لا يصدر عنه أدنى صوت ..

ولثوان ، ظلّ هو يتطلَّع إلى الباب فى صمت ، ثم لم يلبث أن انتزع نفسه من مشاعره ، وجلس على مقعده صامتًا ، مغلق العينين ، يراجع فى ذهنه كل ما تجمَّع لديه من معلومات ، ثم نهض إلى حقيبته ، فأخرج منها جهاز تسجيل صغيرًا ، وضعه على المائدة ، ودسّ فيه ذلك الشريط ، الذى أحضره الطبيب ، ثم وضع سماعتى الجهاز على أذنيه ، وراح يستمع إلى حديث (ليفى) والطبيب فى اهتمام عدة مرات ، وبعدها أوصل جهاز التسجيل بجهاز خاص لقياس ذبذبات الصوت ، وأخذ يدرس ذبذبة صوت (ليفى) لبعض الوقت ، قبل أن يلتقط ميكروفون جهاز قياس الذبذبة ، ويقول :

ـ عينى لا تؤلمنى ، ولكننى أتزعج من التطلُّع إلى الضوء .

كانت نفس العبارة ، التى قالها (ليفى) للطبيب الإسرائيلى فى الشريط المسجَّل ..

والعجيب أن جهاز قياس الذبذبة قد سجل ذبذبات مقاربة للغاية ، لتلك التى سجَّلها مع صوت (ليفى) ..

وخفض الشاب جفنيه فى ارتياح ، ثم عاد يواصل تدريباته على تقليد صوت (ليفى) مرة ..

ومرة ..

ومرات ..

وعندما أشارت عقارب الساعة إلى تمام السابعة ، كان جهاز قياس الذبذبة يسجِّل نفس الذبذبات ، التى رصدها من قبل ، لصوت النقيب (شارون ليفى) ..

وكان هذا يعنى أن الجزء الأوَّل من الخطة قد اكتمل ..

وبنجاح ..

وبقى أن يدخل الأمر حيز التنفيذ ..

فى الوقت المناسب ..

★ ★ ★

لم تكد عقارب الساعة تعلن تمام الثامنة مساء ، حتى بدأت عملية تغيير واستبدال أطقم الحراسة ، فى مبنى (درع القادة) ، بنفس النظام اليومى المعتاد ..

وفى خطوات واسعة قوية ، اتجه النقيب (شارون ليفى) إلى بوَّابة المبنى ، وأبرز بطاقته العسكرية كالمعتاد ، فرفع رئيس فريق الاستبدال عينيه إليه ، قائلاً فى دهشة :

ـ لماذا تضع هذا المنظار الداكن على عينيك أيها النقيب ؟!

أجابه (ليفى) بصوته الخشن الجاف :

ـ إنهـا أوامـر الطبيب أيها العقيد .. لقد أصابنى التهاب طارئ فى عينىّ اليوم .

تطلّع إليه العقيد بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يغمغم :

ـ هكذا .

ثم أشار بيده ، مستطردًا :

ـ حاول أن تتقى الكشافات القوية إذن .

ابتسم (ليفى) ، مغمغمًا :

ـ سأحاول .

قالها ، وهو يستعيد بطاقته العسكرية ، ويتجه إلى المبنـى ، ليحتلّ موقعه المعتاد ..

وفى صمت ، تابعه العقيد ببصره ، حتّى غاب داخل المبنى ، ثم تمتم :

ـ منظار شمسى داكن ، فى نوبتجية ليلية ؟! عجبًا !

تصاعد التساؤل فى أعماقه ، وعربد الشك فـى كيانـه بعض الوقت ، حتى بلغ حدًا لم يستطع معه الوقوف ساكنًا ، فهبّ من مجلسه ، واتجه نحو المبنى ، واندفع إلى الثكنة العسكرية فى الطابق الأوّل ، وهو يتساءل فى حدة :

ـ أين النقيب (ليفى) ؟!

بدت الدهشة على وجوه الرجال ، مع هذا الأسلوب الفظ ، وأشار أحدهم بيده ، قائلاً فى توتر :

ـ النقيب (ليفى) ذهب يتفقّد إجراءات الأمن كالمعتاد .

انعقد حاجبا العقيد فى صرامة ، وهو يستلّ مسدسه ، هاتفًا :

ـ إجراءات الأمن .

ثم اندفع نحو الممر ، الذى يقود إلى حجرة المراقبة ، على نحو جعل عددًا من الجنود يعدون خلفه ، وبعضهم يهتف منزعجًا :

ـ ماذا هناك أيها العقيد ؟! ماذا حدث ؟!

اقتحم العقيد حجرة المراقبة فى عنف ، وهو يهتف :

ـ توقّف يا هذا .

التفت إليه النقيب (ليفى) فى دهشة ، فى حين هتف رجال المراقبة فى ذعر :

ـ ماذا حدث ؟!

انقضّ العقيد على النقيب فى عنف ، وجذبه من سترته العسكرية فى قوة ، وهو يغرس فوهة مسدسه فى صدره ، هاتفًا فى صرامة :

ـ محاولة ذكية ، ولكنها لن تنجح أيها المحتال .

هتف (ليفى) فى حدة ، ورجال المراقبة يتراجعون مذعورين :

ـ ماذا تفعل أيها العقيد ؟!

صاح به العقيد فى حدة :

ـ لقد حذرونا من هذا ، خلال الدورات الأمنية .. أن يحاول بعضهم انتحال شخصية أحد العاملين هنا ؛ للتسلّل إلى المكان .

هتف (ليفى) :

ـ انتحال ماذا ؟! أى قول هذا أيها العقيد ؟!

وثبت يد العقيد لتجذب شارب (ليفى) الضخم ، وهو يهتف :

ـ القول الفاصل أيها الـ ...

بتر عبارته بغتة ، عندما أنطلقت آهة ألم ، من بين شفتى النقيب (ليفى) ، مع جذبة شاربه العنيفة ، وأفلت الشارب بحركة مذعورة ، وهو يتراجع ، قائلاً :

ـ ياللتوراة ! إنه شارب حقيقى .

تبادل رجال المراقبة نظرة متوترة ، فى حين هتف (ليفى) ، وهو يعتدل محنقًا :

ـ بالطبع هو شارب حقيقى .. ما الذى كنت تتوقَّعه ؟!

ارتبك العقيد ، ولوَّح بذراعيه لحظة فى توتر ، قبل أن يطاوعه لسانه على أن يقول فى عصبية :

ـ إنه ذلك المنظار الداكن .. لقد أخبرونا فى تلك الدورة الأمنية ، أن الشىء الوحيد الذى يصعب تغييره ، فى ملامح الوجه كلها ، هو العينان ، لذا فالشخص ، الذى يحاول انتحال شخصية آخر ، يحرص على إخفاء عينيه فى المعتاد .

قال (ليفى) فى حنق :

ـ المنظار الداكن ؟! أهذا كل ما أقلقك أيها العقيد ؟!

إننى أرتدى المنظار الداكن لإخفاء هذا .

نطقها ، وهو ينتزع المنظار عن عينيه فى حدة ، ويميل نحو العقيد ، متطلِّعًا إلى عينيه مباشرة ..

بتر عبارته بغتة ، عندما انطلقت آهة ألم من بين شفتى النقيب (ليفى) مع جذبه شاربه

وازدرد العقيد لعابه فى صعوبة ، وهو يتطلّع إلى العينين المحمرتين المتورمتين ، فى وجه (ليفى) ، قبل أن يشيح بوجهه ، مغمغمًا :

ـ فليكن .. يمكنك أن تقول : إنه إفراط فى الحذر .

واستدار يغادر المكان ، وهو يضيف فى عصبية :

ـ والإفراط فى الحذر أفضل من الإهمال فى تطبيق إجراءات الأمن .

مطّ (ليفى) شفتيه ، وهو يغمغم محنقًا :

ـ بالتأكيد .

ثم التفت إلى رجال المراقبة ، وهو يقلب شفتيه فى ازدراء ، فى حين غادر العقيد الحجرة ، وهو يقول فى حدة :

ـ هيا .. فليعد كل منكم إلى أعماله .. هيا .

قالها ، واندفع عائدًا إلى موقعه ، دون أن يدرى أنه ، بأسلوبه المبالغ هذا ، قد أسهم فى إحكام الخطة ..

خطة اقتحام (درع القادة) ..

★ ★ ★

« لا يمكننى استيعاب كل هذا »

هتفت بالعبارة فى توتر ملحوظ ، عندما بلغ (ا . ص) هذا الجزء من روايته ، فتوقّف الحديث دفعة واحدة ، والتفت الرجلان إلىّ فى تساؤل ، قبل أن يميل البطل نحوى ، متسائلاً فى اهتمام :

ـ ما الذى لا يمكنك استيعابه ؟!

أجبته فى توتر :

ـ كل شىء .. إنك تخبرنى بأحداث لا يفترض قط أنك قد شاهدتها ، ثم إننى كنت أتصوّر أنك ستنتحل شخصية (ليفى) هذا ، وعلى الرغم من ذلك فقد فوجئت بأنك لم تفعل .

ابتسم ، قائلاً :

ـ ما أخبرك به هو خلاصة كل ما حصلنا عليه من معلومات ، بعد أكثر من عشر سنوات ، على انتهاء الواقعة ، وهذا يتضمّن كل ما تم تسجيله ، فى ملفات الإسرائيليين السرية ، التى أمكننا الاطلاع عليها ، من خلال عملية أخرى ، فى أوائل الثمانينات .

قلت :

ـ وماذا عن انتحال شخصية (ليفى) ؟!

هزّ رأسه ، قائلاً :

ـ لم يكن هذا ممكنًا أو عمليًا ، فى مساء الأربعاء .

سألته فى فضول :

ـ ولماذا ؟!

لوّح بيده فى الهواء ، مجيبًا :

ـ نحن أيضًا كنا نعلم ما تعلّمه الإسرائيليون ، فى دوراتهم الأمنية ، وكنا ندرك جيّدًا أن ارتداء (ليفى) لذلك المنظار الداكن ، فى نوبتجية ليلية ، كان كفيلاً بإثارة الشكوك ، بحيث يحدث ما حدث .

قلت مبهورة :

ـ إذا فقد تعمَّدت هذا .

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .

ثم أشار بسبَّابته ، مستطردًا :

ـ ولولا هذا ما نجحت الخطة قط .

هتفت :

ـ حقًا ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، ثم استعادت ملامحه جديتها ورصانتها ، وتلاشت الابتسامة من شفتيه ، وهو يقول :

ـ ولكن هذا لا يمنع من أن مـا حدث فى تلك الليلة ، كان يمكن أن يفسد العملية كلها ، وينقلها فى عنف ، من خانة النجاح إلى بئر الفشل .

سألته فى سرعة :

ـ لماذا ؟! ماذا فعلت ؟!

هزَّ رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ ليس أنا من فعل ، وإنما (ميرينا) .

سألته مبهوتًا :

ـ وماذا فعلت ؟!

اعتدل فى مجلسه ، قائلاً :

ـ سأخبرك .

وعاد يروى ..

وبكل التفاصيل ..

★ ★ ★

لم تهدأ (ميرينا) لحظة واحدة ، منـذ عادت إلى منزلها ، بعد أن فارقت (أكرم) ..

لقد أدركت جيدًا أن كل ما نطق به صحيح ..

لقد انكشف أمرها ، وعليها أن تسعى للفرار ، بأسرع وسيلة ممكنة ..

وبينما راحت تجمع أشياءها ، وتعدم كل ما لديها من وثـائق وأدلة ، يمكن أن تلقـى بهـا فـى غياهب السجون ، راح عقلها يستعيد كلمات السيِّد (رفعت) ، رجل المخابرات المصرى ، الذى تولَّى تدريبها والعناية بها منذ البداية ..

« أكثر ما يهمنا هو أمنك وسلامتك .. » ..

« عند شعورك بالخطر ، تخلَّصى من كل ما يمكن أن يدينك ، ثم ارحلى على الفور .. » ..

« ستكون هناك دائمًا خطة لإنقاذك ، إذا ما تعقَّدت الأمور .. »

« فقط اتصلى بهذا الرقم ، واذكرى ما حفظتِه عن ظهر قلب ، وسيسير كل شىء على ما يرام .. » ..

توقَّف عقلها طويلاً عند العبارة الأخيرة ، واسترجعت فى سرعة رقم الهاتف ، الذى حصلـت عليـه منذ خمس سنوات ، مع عبارة التعارف ..

« لا تستخدمى هذا الرقم أبدًا .. أبقيه فى ذاكرتك ، حتى لحظة الطوارئ القصوى فحسب .. » ..

هذا ما ردَّده على مسامعها السيِّد (رفعت) مرات ومرات ، بعد أن منحها ذلك الرقم ..

ولكنها تعتقد أن الوقت المناسب قد حان ..

إنها بالفعل لحظة الطوارئ ..

القصوى ..

اللحظة ، التى يمكن أن يرفع فيها الإسرائيليون النقاب عن وجهها الحقيقى ، وينكشف كل ما أخفته منذ سنوات ..

وإذا ما فعلوا لن يكون فى انتظارها سوى مصير واحد ..

الموت ..

صحيح أن الإسرائيليين لا يستخدمون حكم الإعدام أبدًا ، ولكنها لن تصمد حتمًا أمام وسائل تعذيبهم الوحشية طويلاً :

وهى لا تخشى الموت ، بقدر ما تخشى أن تتحطَّم مقاومتها ..

وتنهار ..

وتعترف ..

تخشى أن تضطر لكشف كل ما تعلمته وأخفته فى أعماقها ..

هذا أكثر ما يخيفها ..

ويؤلمها ..

ومع تدفُّق تلك الأفكار فى عقلها ، راحت تعمل بجهد أكبر ، حتى تخلَّصت من كل ما يمكن أن يدينها ..

ثم انتقلت إلى الهاتف ..

كانت أصابعها بطيئة متثاقلة ، وهى تطلب ذلك الرقم ..

« عندما تطلبين ذلك الرقم ، تأكَّدى تمامًا من أنها اللحظة المناسبة ، فما إن يتم الاتصال حتى لا يعود هناك مجال للتراجع قط ..» ..

استعاد عقلها تلك التعليمات الأخيرة للسيِّد (رفعت) وهى تدير الرقم الأخير ..

ولثوان ، راحت تستمع إلى الرنين ، على الجانب الآخر ، قبل أن يأتيها صوت هادئ رصين ، يقول بالعبرية :

ـ من المتحدِّث ؟!

ازدردت لعابها فى صعوبة، وقالت بصوت مختنق مرتبك ، وباللغة العربية :

ـ كيف يمكننى الاشتراك فى رحلة الشمس ؟!

حملت إليها أسلاك الهاتف صمتًا استغرق ثوان معدودة ، قبل أن يقول صاحب الصوت فى حذر واضح ، وباللغة العربية أيضًا :

ـ هذا يتوقَّف على توقيت الغروب .

ازدردت لعابها مرة أخرى ، ثم قالت :

ـ الشفق تلوَّن بالفعل .

سمعت تنهيدة ارتياح ، أعقبها صوت الرجل ، يقول فى حزم :

ـ كل شىء سيصبح معدًا ، خلال أربع وعشرين ساعة .. غدًا ، فى منتصف الليل تمام .. سأنتظر الاتصال .

غمغمت فى توتر :

ـ بالتأكيد .

عاد يسألها فى اهتمام بالغ :

ـ ألديك مكان آمن ؟!

أجابته فى سرعة :

ـ نعم ، ولكن ليس لفترة طويلة .

سألها :

ـ هل يكفى لأربع وعشرين ساعة ؟!

قالت متوترة :

ـ بالتأكيد .

سمعت مرة أخرى تنهيدة ارتياح ، قبل أن يقول الرجل فى حزم :

ـ سأنتظر اتصالك غدا .

قالها ، وأنهى المحادثة على الفور ، فأعادت السماعة إلى موضعها ، ونهضت تلتقط حقيبتها ، و ...

وفجأة ارتفع رنين جرس الباب ..

وانتفض جسدها فى عنف ..

من ذا الذى يمكن أن يزورها ، فى هذه الساعة ؟!

من ؟!

وفى حذر متوتر ، اتجهت نحو الباب ، ورنين الجرس يتردد مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وفى عصبية ، انحنت تلصق عينها بالعين السحرية للباب ..

وفى هذه المرة ، انتفض جسدها فى قوة ، وكأنما أصابته ألف صاعقة ..

إنه هو ..

العقيد (أهارونى) ..

هو بشحمه ، ولحمه ، وصرامته ، وقسوته ..

وشكوكه ..

كان يقف أمام الباب فى صرامة شديدة ، حفرت ملامحها فى وجهه ، وفى انعقاد حاجبيه الكثين ، وانعقاد كفيه خلف ظهره ، وزيه العسكرى ، الذى لم يستبدله بعد ، على الرغم من مرور كل تلك الساعات ، على موعد الانصراف الرسمى ..

وخفق قلبها فى عنف ..

أو سقط بين قدميها ..

هى نفسها لم يمكنها التمييز ..

ولكنها لاذت بالصمت تمامًا ، وقفزت إلى ذهنها فكرة تجاهل الرنين ، والتظاهر بأنها غير موجودة ، و ..

ولكن العقيد (أهارونى) قال فى صرامة جافة :

ـ أنا أعلم أنك هنا يا (ميرينا) .. حارس البناية أخبرنى بهذا ..

عضت شفتيها فى حنق ، قبل أن تحسم أمرها ، وتهتف :

ـ أنا هنا بالطبع أيها العقيد .

نطقتها ، وهى تفتح الباب ، وتواجه العقيد الصارم بابتسامة ، متوترة ، مستطردة :

ـ ولكننى أتساءل فى الواقع : ما سر هذه الزيارة المفاجئة ؟!

دفع الباب فى خشونة ، ودلف إلى شقتها ، مجيبًا :

ـ يمكنك أن تقولى : إنها زيارة عمل .

ردَّدت فى توتر شديد ، وهى تغلق الباب خلفه :

ـ زيارة عمل ؟!

استدار إليها فى صرامة ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره ، قائلاً :

ـ لماذ جمعت تلك المعلومات ؟!

سألته فى عصبية :

ـ أية معلومات ؟!

أجابها فى خشونة :

ـ تلك التى كانت على الورقة ، التى ألقيتها خلف المكتب .

لم تعترض على عبارته ، أو أنها أدركت عدم جدوى إنكارها ، فلاذت بالصمت فى مواجهته ، مما جعله يميل نحوها ، قائلاً فى قسوة :

ـ لماذا نقلت تلك المعلومات يا (ميرينا) ؟!

عجزت هذه المرة عن ازدراد لعابها ، من حلقها الجاف ، وهى تجيب بصوت مبحوح :

ـ لقد أخبرتك أيها العقيد أن الـ ..

قاطعها فى غضب :

ـ كاذبة .

تراجعت بحركة حادة ، مع تلك الصرخة الهادرة ، فاندفع هو نحوها ، قائلاً :

ـ لقد اتصلت بنفسى بطاقم حراسة (درع القادة) ، ولم أجد لديهم أية شكوى بهذا الشأن .

قالت فى توتر :

ـ اطقم النوبتجية الليلية هو الذى ...

قاطعها مرة أخرى ، وهو يكاد ينقضّ عليها ، كما ينقضّ ضبع شرس على عصفور رقيق :

ـ كاذبة .. لا أحد يشكو من نقص القهوة على الإطلاق .. المورِّدون يرسلون كميات كافية طازجة يوميًا ، من أفضل أنواع البن ، وما يتبقَّى منها يتم إرساله إلى قوات المشاة ، صباح اليوم التالى ، وهذا يعنى أن لديهم دائمًا فائض من البن الطازج ، ولا يمكنهم أن يشكو من نقصه .

ـ امتقع وجهها ، دون أن تجرؤ على قول شىء ، فى حين تراجع هو نحو الهاتف ، وهو يواصل ، بنفس القسوة والشراسة :

ثم دار حول نفسه وهوى وهو يرتطم بالأرض

ـ ولهذا طلبت إعادة فحص ملفك ، ومزيد من التحريات عن حياتك السابقة فى (براج) ، وأغلب الظن أن صورتك ستختلف حتمًا عن صورة (ميرينا زوسكى) الحقيقية .

ثم التقط سمّاعة الهاتف ، وراح يدير رقمًا ما ، وهو يتابع بنفس اللهجة المخيفة :

ـ وأنا هنا الآن بصفة غير رسمية ، لأقنعك بتسليم نفسك ، والاعتراف بكل ما تخفينه ، قبل أن ...

ولم تدر (ميرينا) ما قاله بعد هذا ...

بل لم تدر حتى كيف فعلت ما فعلته ..

لقد رأته يوليها ظهره ، ويبدأ فى طلب ذلك الرقم ، وأدركت أنه ما إن يجرى هذا الاتصال ، حتى يصبح أمرها فى خبر كان ..

لذا ، فقد اندفعت فجأة نحو تمثال من البرونز ، يزيّن مدفأة وهمية لديها ، واختطفته ، لتهوى به على رأس العقيد (أهارونى) ..

وبمنتهى العنف ..

واتسعت عينا العقيد عن آخرهما ، والتفت إليها ، هاتفًا :

ـ أيتها الـ ... الـ ...

ثم دار حول نفسه ، وهوى ليرتطم بالأرض فى عنف ..

وتركت (ميرينا) التمثال يسقط من يدها ، وهى تحدّق فى الجسد الملقى أمامها ، والذى تسيل من رأسه الدماء فى غزارة ،

ثم لم يلبث جسدها أن انتفض مرة أخرى ، وهى تنتزع نفسها من ذعرها ، هاتفة :

ـ رباه ! لابد أن أغادر هذا المكان بأقصى سرعة .

قالتها ، وعادت تختطف حقيبتها ، وتعدو نحو الباب ..

وبكل سرعتها ، راحت تقفز فى درجات السلم ، حتى بلغت الطابق الأرضى ، و ...

وانتفض جسدها كله مرة أخرى ..

فهناك ، عند مدخل البناية تمامًا ، كان يقف اثنان من رجال الشرطة العسكرية ، وعلى مسافة متر واحد منهما سيارة من سيارات الاعتقال العسكرى ..

وكان هذا يعنى أن العقيد (أهارونى) كان كاذبًا كبيرًا ..

إنه لم يأت إليها بصفة ودية كما ادّعى ..

لقد أتى خصيصًا لإلقاء القبض عليها ..

وهذا يعنى أيضًا أنها صارت محاصرة هنا ..

فى قلب البناية ، و ...

وفى قلب (إسرائيل) .

★ ★ ★

٥ـ شكوك إسرائيلية ..

توقّف (ا . ص) عن الاستطراد فى روايته ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ودود ، وهو يدير عينيه بينى وبين السيِّد (لبيب) ، قائلاً :

ـ أعتقد أن الوقت مناسب لتناول طعام العشاء .

أومأ السيِّد (لبيب) برأسه ، وهو يقول فى بساطة :

ـ نعم .. أعتقد هذا .

أما أنا ، فقد ردّدت فى دهشة :

ـ طعام العشاء ؟!

أطلق (ا . ص) ضحكة هادئة ، وهو يقول :

ـ وما الذى يدهشك فى هذا ؟! أليس من الطبيعى أن نتناول طعام العشاء ؟!

هتفت ، معترضًا :

ـ أريد أن أعرف ماذا أصاب (ميرينا) !

أجابنى فى هدوء :

ـ لقد أفلتت من رجال الشرطة العسكرية ، وأتت إلى ذلك المنزل الآمن ، فى شارع (بن جوريون) .

هتفت مستنكرًا :

بهذه البساطة ؟! إننى أريد معرفة التفاصيل .

ابتسم (ا . ص) ، وتبادل نظرة صامتة مع السيِّد (لبيب) ، قبل أن يجيب :

ـ (ميرينا) كانت جاسوسة محترفة ، تلقَّت تدريباتها على يد السيِّد (رفعت) ، أحد أفضل الرجال ، الذين عرفتهم المخابرات العامة المصرية ، وهذا يعنى أنها كانت تعرف جيِّدًا ما ينبغى فعله ، فى مثل هذه الظروف .

كرَّرت فى عناد :

ـ ما زلت أريد معرفة التفاصيل .

هزَّ رأسه نفيًا فى هدوء ، وهو يقول :

ـ هذا ليس متاحًا دائمًا ، وبالذات فى حالتنا هذه ، فحتى التدريبات ، والدروس التى يتلقَّاها كل جاسوس محترف ، تعتبر من أدق أسرار أى جهاز مخابرات ، ومن غير الممكن كشفها ، قبل أن يتخلَّى الجهاز نفسه عنها ، ويعتبرها أساليب قديمة محترقة ، لا بد من استبدالها بأخرى حديثة ومبتكرة .

سألته فى دهشة :

ـ أتعنى أن تلك التدريبات ما زالت مستخدمة . حتى يومنا هذا ؟!

هزَّ رأسه مرة أخرى ، قائلا :

ـ بعضها .

ثم اتسعت ابتسامته ، وهو يضيف بلهجة مهذَّبة حاسمة :

ـ ولكنها جميعها ليست متاحة ، حتى هذه اللحظة .

لم يرق لى هذا ، فتنهَّدت فى حرارة ، وقلت :

ـ للأسف .

ضحك السيِّد (لبيب) ، وهو يربِّت على كتفى ، قائلاً :

ـ مادمت ستعمل معنا ، فينبغى أن تعتاد هذا .

قلت فى حنق :

ـ إننى أحاول .

قال (ا. ص) فى هدوء ، وهو ينهض من مقعده :

ـ سرعان ما تعتاد هذا .

كنت أدرك عدم جدوى المناقشة ، فى مثل هذه الأمور ، لذا فقد نهضت معهما إلى مائدة العشاء ، الذى تكوَّن من منتجات ريفية بسيطة ، وشهية ، وإن لم أستمتع كثيرًا بتناولها ، ولا بأحاديث (ا . ص) الرقيقة ، مع ذلك السيل من الأفكار ، الذى تدفَّق فى ذهنى ..

ترى كيف نجحت (ميرينا) فى الفرار ، من حصار الشرطة العسكرية ؟!

هل تنكَّرت فى هيئة أخرى ؟!

أم فرَّت عن طريق السطح ، إلى سطح المبنى المجاور ؟!

أم ..

أم ..

أم ..

عشرات الأفكار عربدت فى رأسى ، طوال فترة العشاء ، لتفسد علىَّ تلك الدقائق الثلاثين ، قبل أن ينتصر عقلى فى النهاية ،

ويقنعنى بأنه من المحتم أن أتجاوز هذه النقطة ، حتـى لا أفسد ما تبقّى من اللقاء ..

لقد نجحت (ميرينا) فى الفرار فحسب ..

هذا كل ما فى الأمر ..

وفى ذهنى ، رحت أرسم صورة وهمية لتلك الفتاة ..

نفس الصورة ، التى شاهدتها على جدار فيلته فى (فايد)(*)..

العينان السوداوان ..

الشعر الأسود الطويل ..

وتلك الابتسامة ..

الابتسامة التى لا يمكنك أن تنساها أبدًا ..

حتى لو حاولت ..

« هل نكمل روايتنا ؟! »

ألقى الرجل سؤاله ، ونحن نرتشف أكواب الشاى ، فـى حجرة منزله الريفى ، فانتزعنى من أفكارى فى عنف ، وجعلنى أهتف فى حماس :

ـ بالتأكيد .

ابتسم ، على نحو يوحى بأنه قد فهم ما أعانيه ، ثم اعتدل فى مقعده ، وارتشف رشفة من كوب الشاى الساخن ، فى استمتاع واضح ، قبل أن يقول :

(*) راجع قصة العدد (أوراق بطل) ، فى (كوكتيل ٢٠٠٠) .. العدد (٢٥) .

ـ كان ما حدث مفاجأة حقيقية ، تعنى أن الإسرائيليين قد انتبهوا إلى اهتمام شخص ما ، أو جهة ما بكميات البن وعدد أقداح القهوة ، التى يتناولها رجال الحراسة ، فى (درع القادة) ، وهذا يعنى بالتالى أن تفشل خطة التسلُّل إلى المكان ، واستعادة شريط التسجيل ، فى الوقت المناسب .

سألته فى لهفة :

ـ وهل اضطررتم لتغيير الخطة ؟!

صمت بضع لحظات ، ثم أجاب فى حزم :

ـ كلاَّ .

سألته مبهورًا :

ـ على الرغم من المخاطرة .

هزَّ كتفيه ، قائلاً :

ـ الأمر كله كان مخاطرة كبيرة .

ثم مال إلى الأمام ، مستطردًا :

ـ ولكن كان هناك احتمال وارد ، ألا يستوعب الإسرائيليون الأمر ، إلا بعد انتهاء العملية ، كما يوجد احتمال آخر بأن (أهارونى) قد احتفظ بالأمر كله لنفسه ، حتى يفوز بالغنيمة كلها وحده ، ويظهر فى صورة البطل الأوحد ، الذى نجح وحده فى كشف عملية جاسوسية خطيرة ، استهدفت (درع القادة) نفسه .

قلت فى اهتمام متوتِّر :

ـ ولكن (ميرينا) قتلت العقيد (أهارونى) بالفعل .

قال فى هدوء :

ـ هذه قضية أخرى ، ربما تفيد العملية أكثر مما تضرّها .

سألته فى حيرة :

ـ كيف ؟!

أجابنى فى بساطة :

ـ مصـرع (أهارونـى) جذب انتبـاه الإسرائيليين بشـدة ، وجعلهم يبحثون عن (ميرينا) فى شراسة ، ولكنهم فى الوقت ذاته ، ركزوا كل همّهم فى البحث عن سر مقتل (أهـارونى) ، وعما يمكن أن يعنيه هذا ، بالنسـبة لموقعـه كرئيـس لقسـم السكرتارية العسكرية والمعلومات .. وهذا ما أفادنا كثيرًا .

قلت مبهورًا :

ـ إذن فقد تم تنفيذ الخطة نفسها .

أشار إلىَّ بسبَّابته ، قائلاً :

ـ بالضبط .

ثم اعتدل فى مقعده ، مستطردًا :

ـ ولقد بدأ تنفيذها مـع صبـاح الخميس .. وبـالتحديد فـى الثامنة والنصف صباحًا .

سألته بكل لهفة الدنيا :

ـ كيف ؟!

ارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة ، وهو يعيد كوب الشاى الفارغ إلى المائدة ، ثم يواصل قصته ..

وبكل التفاصيل الممكنة ..

كالمعتـاد ..

★ ★ ★

مـع دقـات الثامنـة صباحًـا ، بـدأت تغيـير واسـتبدال أطقـم الحراسـة المعتـادة ، عنـد مبنـى (درع القـادة) ، وبـدأت معهـا عمليات الإحلال والمراجعة اليومية ..

كل وسائل الأمن تم التأكّد من صلاحيتها وسلامتها ..

كل النُظم روجعت بمنتهى الدقة والإحكام ..

وفى الثامنة وست عشرة دقيقة ، وصل مورِّد البن الطازج ، وسلّم الكمية اليومية المعتادة ..

وفى هذه المرة ، كان المورِّد دقيقًا للغاية ، وهو يرص علب البن بعضها فوق البعض ..

فبعض هذه العلب كـان يحمـل علامـة حمـراء دقيقـة ، تكـاد لا تُرى إلا للملاحظ قوى البصر ، عند قاعدتها ..

ولقد حـرص المـورِّد علـى وضـع تلـك العلب ، ذات العلامـة الحمراء ، أسفل باقى العلب الأخـرى ، قبـل أن يغـادر المكـان ، تحت إجراءات دقيقة مشدَّدة كالمعتاد ..

وفى الثـامنة والنصف تمامًـا ، كان (وليـد) يـدق بـاب ذلك المنزل الآمن ، المجاور للمبنى ، ثلاث دقّات منتظمـة ، لـم يكـد (أكرم) يسمعها ، حتى أسرع يفتح الباب ، ويسأله فى اهتمـام بالغ :

ـ هل تم المطلوب ؟!

أغلق (وليد) الباب خلفه ، وهو يومئ برأسه إيجابًا ، قائلاً فى حماس :

ـ وعلى خير ما يرام .

ثم تضاعف حماسه ، وهو يلوِّح بيديه ، مستطردًا :

ـ المورِّد الإسرائيلى لم يتورَّع عن تقاضى رشوة ، ليستبدل ببعض علب البن البرازيلى الطازج علبًا أخرى ، بعد أن أقنعه أحد رجالنا أنها محاولة احتيال ، الغرض منها الاستيلاء على البن الطازج ، وإبداله ببن قديم ، مدعيًا أن طاقم الحراسة لن ينتبه إلى هذا ، لو أننا وضعنا علب البن القديم أسفل الجديد ، بحيث يتم استهلاكه فى نهاية فترة السهر .

وضحك مضيفًا :

ـ إننا نستغل فسادهم لضربهم .

ابتسم الشاب ، مغمغمًا :

ـ بالتأكيد .

ثم عاد يسأل :

ـ وماذا عن (ليفى) ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ لقد عاد إلى منزله مباشرة كالمعتاد ، وأراهن أنه غارق الآن فى سبات عميق .

سأله الشاب فى اهتمام :

ـ هل رتبتم أمر سفر زوجته ؟!

أومأ (وليد) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ لقد أرسلنا لهم تلك البرقية الزائفة صباح اليوم ، والتى تشير إلى أن أمها تعانى مرضًا شديدًا ، فى (بولندا) ، وترغب فى رؤيتها بأسرع ما يمكن ، لتبلغها بعض الأمور المالية .

ابتسم الشاب ، قائلاً :

ـ العبارة الأخيرة ستجعلها تهرع إلى هناك حتمًا ، وخاصة عندما أوحينا إليها بأن كل الاتصالات الدولية مقطوعة ، فهى ستخشى أن يسبقها شقيقاها إلى (وارسو) ، وينتزعا تلك الأسرار المالية من أمها .

ضحك (وليد) ، وقال :

ـ من الواضح أنك تفهم النفس البشرية جيِّدًا .

هز (أكرم) كتفيه ، وقال :

ـ إلى حد ما .

ثم راح يداعب ذقنه فى تفكير عميق ، مستطردًا :

ـ المهم الآن أن النقيب (شارون ليفى) يرقد فى منزله وحده ، والكل يعلم أنه سينام بعمق ، حتى الرابعة عصرًا على الأقل .

سأله (وليد) فى اهتمام :

ـ وماذا ستفعل ؟!

صمت قليلاً ، قبل أن تفتر شفتاه عن ابتسامة ساخرة ، وهو يجيب :

ـ سنطيل فترة نومه فحسب .

نطقها فى هدوء ، ثم التقط سترته ، مستطردًا فى حزم :

ـ أعتقد أننى سأذهب لزيارته .

سأله (وليد) فى قلق :

ـ وما الذى ينبغى علينا أن نفعله ؟!

ربَّت (أكرم) على كتفه ، وهو يتطلَّع إليه قليلاً فى صمت ، ثم قال :

ـ لا شىء يا صديقى .. لا شىء .. لقد فعلتم كل ما يمكنكم فعله .

سأله (وليد) فى تأثُّر :

ـ ألا يمكننا تقديم المزيد من التعاون ؟!

هزَّ رأسه نفيًا ، ثم لم يلبث أن ابتسم ، قائلاً :

ـ أتعشَّم ألا نضطر لهذا .

أمسك (وليد) كتفيه ، وتطلَّع إلى عينيه مباشرة ، وهو يقول :

ـ هل يعنى هذا أننا قد لا نلتقى ثانية أبدًا ؟!

صمت الشاب لحظة ، قبل أن يقول فى خفوت :

ـ ربمـا .

تضاعف التأثُّر فى عينى (وليد) ، قبل أن يحتضن الشاب فجأة فى حرارة ، ويقول :

ـ يا للخسارة !

ثم تراجع مستطردًا :

ـ ولكن لا تنس أن تبلغ سلامى وسلامنا جميعًا ، لكل الرجـال فى (مصر) .

ابتسم الشاب ، قائلاً :

ـ سأفعل بإذن اللّه (سبحانه وتعالى) .

وفى أعماقه ، اكتملت العبارة :

ـ هذا لو أننى بقيت حيًا ، حتى أعود إلى الوطن .

تصافحا مرة أخرى ، قبل أن يغادر الشاب المكان ، ويتجه على الفور إلى حيث يقيم النقيب (ليفى) ..

كان اختياره لذلك الرجل بالذات دقيقًا للغاية ، ومدروسًا بعناية فائقة ..

هذا لأن النقيب (ليفى) كان ، بحكم منصبه ، المسئول عن مراجعة ومتابعة كل إجراءات الأمن فى مبنى (درع القادة) ..

ثم إن ملامحه متميِّزة للغاية ..

شارب ضخم ، وطابع حسن ، وعينان أدرك الجميع أنهما مصابتان بالتهاب حاد ، يدفعه إلى إخفائهما طوال الوقت بمنظار داكن ..

كما أن قامته كانت تتناسب كثيرًا مع قامة الشاب ..

وهذا يجعله شخصًا مثاليًّا ، يمكن انتحال هيئته ببعض البراعة ..

وهذا ما خطَّط له الشاب بالضبط ..

وفى العاشرة والنصف صباحًا ، كان يقف أمام باب منزل (ليفى) ..

وبأصابع ماهرة سريعة ، عالج قفل الباب ، بقطعتين من السلك ، حتى سمع تكة خافتة ، أنبأته بأن القفل قد استجاب ، فدفع الباب فى رفق ، ودلف إلى الداخل فى خفة ، و ...

« من بالباب ؟! »..

ارتفع الهتاف بغتة من الداخل ، قبل أن يبرز (ليفى) ، دون سابق إنذار ، من المطبخ المجاور لباب الشقة ..

وكانت مفاجأة غير متوقعة ..

على الإطلاق ..

★ ★ ★

« هذا الأمر مثير للقلق يا سادة .. »

نطق مدير المخابرات الإسرائيلية العبارة ، فى توتر ملحوظ ، وهو يجلس على رأس مائدة الاجتماعات ، فى القاعة الرئيسية ، فى مبنى (الموساد) ، قبل أن يشير بيده للرجال الخمسة ، الذين شاركوه الاجتماع ، مستطردًا :

ـ فمن الواضح أننا لسنا أمام جريمة قتل عادية ، أو حتى

جريمة عاطفية تقليدية ؛ إذ إن ملف (ميرينا) يؤكِّد أنها فتاة ملتزمة ، لا تميل إلى إقامة أية علاقات مشبوهة ، سواء مع رجال جيش الدفاع أو سواهم ، كما أن زيارة (أهارونى) لها لم تكن زيارة ودية أو معتادة ؛ فقد اصطحب معه فريقًا من الشرطة العسكرية ، ولا أحد يحيط نفسه بهذه الزفة ، وهو فى طريقه لزيارة تقليدية .. ولو أضفنا إلى كل هذا طلب (أهارونى) بمراجعة ملف (ميرينا) ، والبحث عن كل تفاصيل حياتها السابقة فى (براج) ، وتلك الورقة ، التى عثرنا عليها فى مكتبه ، والتى تحوى بعض المعلومات العجيبة ، حول استهلاك أطقم الحراسة فى مبنى (درع القادة) للقهوة ، فسنجد أننا حتمًا أمام حالة واضحة ، من حالات الجاسوسية المعتادة ، الجاسوس فيها هو (ميرينا يازوسكي) ، التى كشف (أهارونى) أمرها ، فاضطرَّت لقتله ، حفاظًا على سرها .

سأله أحد الرجال الخمسة :

ـ لماذا تركت جثته فى منزلها إذن ؟!

أجابه المدير فى سرعة وحزم :

ـ لأن رجال الشرطة العسكرية كانوا يحاصرون المبنى .

هزَّ رجل آخر رأسه ، قائلاً :

ـ غير منطقى .. طبقًا لأقوال رجال الشرطة العسكرية ، فقد كانوا يقفون أمام مدخل المبنى ، ولا يحاصرونه كله ، ثم إنه لو كانت (ميرينا) جاسوسة محترفة بالفعل ، لوجدت وسيلة للتخلص من الجثة ، قبل أن تغادر المكان .

أشار مدير المخابرات بيده ، قائلاً :

ـ خطأ أيها السادة .. الجاسوسة المحترفة لن تفعل هذا أبدًا ، فما إن يواجهها (أهارونى) بما لديه ، حتى تدرك مباشرة أن أمرها قد انكشف ، ولم يعد لبقائها ما يبرِّره ، لذا فكل ما ستفعله ، بعد أن تقتل (أهارونى) ، هو أن تبادر بالفرار ، وتلجأ إلى منزل آمن ، معدّ لهذا الغرض بالتحديد ، أو تحاول الخروج من (إسرائيل) كلها .. ولأن الخطوة الأخيرة ليست هينة أو بسيطة ، ومن الممكن كشف أمرها فى سرعة ، فالأرجح أنها تختفى الآن فى مكان ما ، حتى يتم الإعداد لهروبها ..

تبادل الرجال الخمسة نظرة صامتة ، قبل أن يغمغم أحدهم :

ـ منطق معقول .

اعتدل مدير المخابرات فى ثقة ، بعد أن أيقن من أنه قد نجح فى إقناع الجميع ، وأشار بيده ، قائلاً :

ـ وهكذا أيها السادة ، تصبح نظرية الجاسوسية هى الأرجح ، لذا فمن المحتم أن نعتصر أذهاننا ، ونركِّز جهودنا على البحث عن أمر واحد ، يربط ما بين (ميرينا) ، و(أهارونى) ، و(درع القادة) ، والقهوة .. وفى الوقت ذاته ، علينا أن ننبش كل شبر فى (إسرائيل) ، وفى (تل أبيب) بالذات ، بحثًا عن (ميرينا يازوسكى) ..

قال أحدهم فى حزم :

ـ فلنعلن حالة الطوارئ القصوى .

قال آخر فى توتر :

ـ هل تعتقد أن رئيس الوزراء سيوافق على هذا ؟!

هزَّ ثالث رأسه ، قائلاً :

ـ لست أعتقد هذا ، فهم لا يوافقون على إعلان حالة الطوارئ الأمنية القصوى ، إلا فى حالات الحروب .

قال مدير المخابرات :

ـ ولكن الأمر يحمل اسم (درع القادة) هذه المرة ، وأعتقد أن هذا كفيل بإثارة قلقهم ، إلى أقصى حد .

أجابه الرابع فى حسم :

ـ حتى ولو نجحنا فى إثارة قلقهم ، فهل تعلم كم سيستغرقون من وقت ، قبل إصدار مثل هذا القرار ؟!

قال الخامس فى سرعة :

ـ يومين ، على أقل تقدير .

انعقد حاجبا مدير المخابرات فى صرامة ، وهو يقول :

ـ فليكن ..

ثم شدّ قامته ، مستطردًا ، وهو يلتقط سمّاعة الهاتف الخاص :

ـ طبقًا للقواعد ، فنحن نتولَّى حراسة وحماية مبنى (درع القادة) ، من الناحية الرسمية ، وهذا يعنى أن باستطاعتنا إصدار كل التعليمات الممكنة ، فى هذا الشأن ، وتعديل وسائل الأمن والمراقبة ، فى أية لحظة .

وضرب رقمًا خاصًا ، فى أثناء حديثه ، وما إن سمع صوت محدثه ، حتى قال فى لهجة صارمة ، حازمة ، آمرة :

ـ اسمعنى جيدًا يا رجل .. لدينا هنا بعض الشكوك ، فى أن (درع القادة) قد يتعرض لهجوم مباغت ، أو محاولة اختراق خفية ؛ لذا فعليك أن تنفذ كل ما سآمرك به ، وبمنتهى الدقة .

قالها ، وراح يملى أوامره الجديدة ، بشأن نظم الأمن والمراقبة ، فى مبنى (درع القادة) ..

وكانت هذه الأوامر الجديدة تعنى أن خطة (أكرم) ستواجه عقبة خطيرة ، قد تؤدى إلى فشل العملية بأكملها ..

وبمنتهى العنف ..

★ ★ ★

كان ظهور (ليفى) مفاجأة حقيقية ، فى تلك اللحظة ..

وللطرفين ..

ولعل الأثر الأعظم ، كان من نصيب (ليفى) نفسه ..

لقد اتسعت عيناه فى ذهول ، وتدلى فكه الأسفل فى بلاهة ، قبل أن يهتف فى حدة غاضبة ، وهو يختطف سكينًا ضخمًا من المطبخ :

ـ اللعنة ! لص ؟!

ولكن الشاب لم يمهله ..

لقد وثب نحوه كالفهد ، وهوى على فكه بلكمة كالقنبلة ، ويده الأخرى تقبض على معصمه بأصابع كالفولاذ ، وتلويه فى عنف ، لتجبره على إفلات السكين ..

ومن المؤكد أن (ليفى) ، كضابط أمن من طراز خاص ، كان يجيد القتال إلى أقصى حد ..

ولكن من المؤكد أيضًا أن الشاب كان أكثر قوة ومهارة ..

فلم تمض ثوان معدودة ، حتى كانت قبضته تهوى على فك الإسرائيلى بلكمة قاضية كالقنبلة ، دفعته إلى الخلف فى عنف ، ليرتطم بالجدار ، ثم يسقط أرضًا ، ويهمهم بكلمات غير مفهومة ، والدنيا تظلم أمام عينيه ..

وتظلم ..

وتظلم ..

ولم يدر الإسرائيلى كم بقى فاقد الوعى ، ولكن الشىء الذى ذكره فى تقريره ، فيما بعد ، هو أنه لم يكد يسترد وعيه المفقود ، ويفتح عينيه ، حتى أدرك أنه مقيَّد بإحكام إلى مقعد ثقيل ، فى حجرة نومه الخاصة ، وأن كمامة عريضة قوية تكتم فمه ، و ...

ولم تكن هذه هى المفاجأة الوحيدة له ..

لقد كانت المفاجأة الحقيقية أمامه مباشرة ..

عند المرآة الكبيرة ، المواجهة للفراش ..

فهناك ، أمام المرآة مباشرة ، كان يقف ذلك الشاب ، الذى أفقده الوعى ، وهو يتعامل مع ملامحه على نحو مذهل ..

فبكل سرعة ودقة وبراعة ، كان ذلك الشاب يتحوَّل إلى نسخة منه ..

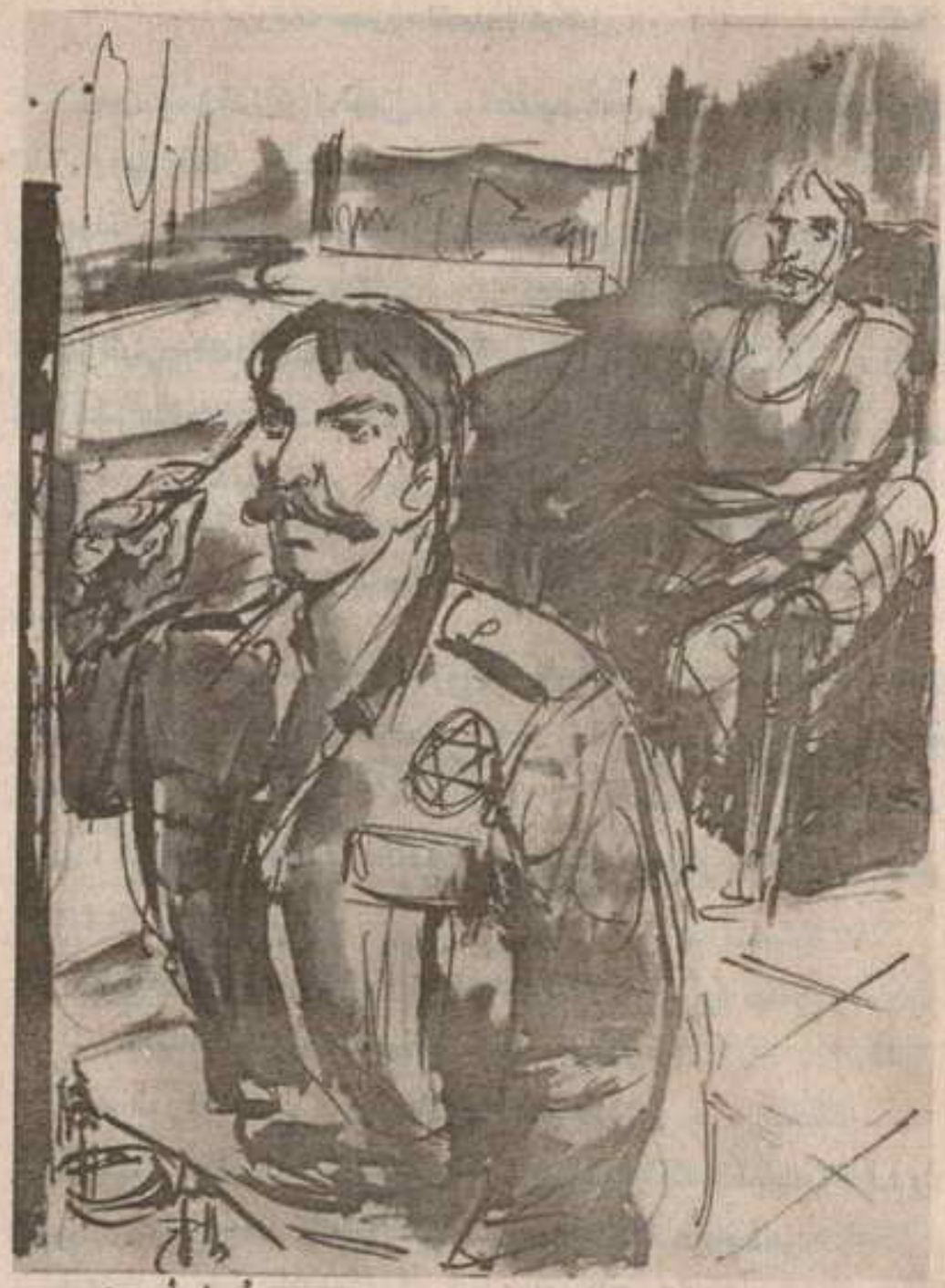

لم يكد يسترد وعيه المفقود ، ويفتح عينيه حتى أدرك أنه مقيد بإحكام إلى مقعد ثقيل

نسخة متقنة بشدة ..

نفس البشرة الشقراء ..

والشارب الضخم ..

وطابع الحسن فى منتصف ذقنه ..

كل هذا راح يتكوَّن فى سرعة ، لتختفى تحته ملامح الشاب الحقيقية ، وتتحوَّل إلى ملامحه هو ..

إلى ملامح النقيب الإسرائيلى (شارون ليفى) ..

ولفرط ذهوله ، انطلقت من حلق (ليفى) شهقة قوية ، كتمتها تلك الكمامة على وجهه ، فالتفت إليه (أكرم) ، قائلاً :

ـ هل تشعر بالدهشة ؟!

اتسعت عينا (ليفى) عن آخرهما ، وهو يحدِّق فيه ، فى حين تابع الشاب فى هدوء :

ـ ربما كان هذا هو السبب الرئيسى لاختيارى لك ؟ فملامحك حادة متميِّزة ، يسهل انتحالها .

كان قوله هذا يبسِّط الأمر بشدة ، ولكنه لم يكن يكفى لإقناع (ليفى) ، الذى سرى الذهول فى كيانه ، وجرى فى عروقه مجرى الدم ، حتى بدا له وكأن ما فعله (أكرم) أشبه بالمعجزة ..

والواقع أنه كان كذلك ، بكل المقاييس ..

فالتنكر المتقن ، الذى قام به ، لم يجعله أشبه بالنقيب (ليفى) فحسب ..

بل ، لقد جعله نسخة طبق الأصل منه ..

فيما عدا العينين ..

ويبدو أن الشاب قد قرأ العبارة الأخيرة فى عينى (ليفى) ، لذا فقد التقط منظار هذا الأخير الداكن ، وهو يقول ساخرًا :

ـ أظنك قد أدركت الآن لماذا أصبنا عينيك عمدًا يا رجل !

شهق (ليفى) مرة أخرى ، وراح يقاوم قيوده فى استماتة ، ولكن الشاب تجاهل هذا تمامًا ، وهو يلتقط زى (ليفى) العسكرى ، قائلاً :

ـ لا تحاول يا رجل .. قيودك محكمة للغاية ، ولن يمكنك التخلص منها فى سهولة .

وأخذ يرتدى الزى العسكرى الإسرائيلى فى هدوء ، مضيفًا :

ـ وكل ما يدور فى عقلك من أفكار ، لا يمكن تنفيذه عمليًا .. لن يمكنك إحداث أية جلبة لجذب الأنظار ، ولن يمكنك طلب رقم هاتفى بأسنانك .. أما ما تتصوَّره عن كشف رفاقك لأمرى ، فهو دعابة سمجة .. لقد شاهدوك أمس بهذا المنظار الداكن ، ولا ريب فى أنهم قد شعروا بالدهشة والشك ، وتعاملوا معك من هذا المنطلق ، ومن المؤكد أنهم قد شعروا بسخافتهم أيضًا ، عندما تأكدوا من شخصيتك ، بحيث لن يفكروا فى تكرار هذه المهزلة اليوم .

وراح يضع اللمسات الأخيرة لزيه ، مستطردًا :

ـ أما بالنسبة للصوت ، فسيدهشك أنه لن يثير شكوكهم قط .

نطق النصف الثانى من عبارته ، مقلدًا ومحاكيًا صوت (ليفى) ، على نحو جعل هذا الأخير ينتفض فى مقعده بعنف ، وتتسع عيناه مرة أخرى ، فى ذهول تام ..

ومع ذهوله وهيئته المضحكة البلهاء ، ارتسمت ابتسامة على شفتى الشاب ، وقال ، وهو يتجه نحوه ، ملتقطًا شيئًا ما من حقيبته :

ـ هل أدركت ما أعنيه يا نقيب (ليفى) ؟!

راح الإسرائيلى يقاوم قيوده مرة أخرى فى عنف ، وقد دفعه الغضب الأعمى إلى محاولة عابثة لتمزيقها ، فقال الشاب فى هدوء ، وهو يكشف ذراعه :

ـ قلت لك : لا فائدة .

حدَّق (ليفى) مذعورًا فى ذلك المحقن ، الذى أبرزه الشاب ، وتأوَّه عندما غرس إبرته فى عروقه بسرعة ، والشاب يتابع :

ـ إنها السابعة مساءً الآن ، وهذا العقار ، الذى أحقنك به ، شديد المفعول ، وسيستمر تأثيره لست ساعات كاملة ، وهذا كل ما أحتاج إليه .

قاوم (ليفى) أكثر وأكثر ، ولكن الشاب اعتدل واقفًا ، وقال له فى هدوء مستفز :

ـ لا تقاوم يا رجل .. استسلم لتأثير العقار .. هذا أفضل .

كان (ليفى) يرغب فى استمرار المقاومة إلـى الأبد ، لـولا ذلك المخـدر ، الـذى سرى فـى كيانـه ، وجعل جفنيـه يتثاقلان ويتثاقلان ..

ثم عاد الظلام يحيط به فى سرعة ..

ويتزايد ..

ويتزايد ..

وأخيرًا أحاط بكل شىء ..

ومع سقوط الإسرائيلى ، اعتدل البطل المصرى ، وغمغم :

ـ معذرة يا رجل .. كان هذا ضروريًا .

ثم ألقى نظرة أخيرة على نفسه فى المرآة ، قبل أن يغمغم :

ـ على بركة اللّه (سبحانه وتعالى) .

نطقها ، وغادر المنزل فى هدوء ، ليبدأ المرحلة الأكـثر أهمية من الخطة ..

والأكثر خطورة ..

★ ★ ★

« الثامنة بالضبط فى (تل أبيب) .. »

نطق الرئيس (السادات) العبارة ، وهو ينفث دخان غليونه فى عمق ، ويتطلّع فى اهتمام إلى مدير المخابرات ، الـذى أومأ برأسه ، قائلاً :

ـ نعـم يـا سـيادة الرئيـس .. فـى هـذه اللحظـة بالتحـديد ستبدأ عمليـة تغيير واستبدال أطقم حراسـة (درع القادة) ،

والمفترض أن يكون (أكرم) فى طريقه إلى داخل المبنى الآن .

مطّ الرئيس شفتيه ، قائلاً :

ـ هى اللحظة الفاصلة إذن ؟! هل تعتقد أنه سيتجاوزها ؟!

مرة أخرى أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بالتأكيد يا سيادة الرئيس .. (أكرم) يمكنه انتحال شخصية (ليفى) بمنتهى الدقة .

سأله الرئيس فى قلق :

ـ إلى الحد الذى يخدع فيه رفاق وزملاء الإسرائيلى .

ابتسم مدير المخابرات ، قائلاً :

ـ بل إلى الحد الذى يمكن أن يخدع أمه نفسها .

ثم اتسعت ابتسامته ، وهو يضيف :

ـ الواقع يا سيادة الرئيس أن (أكرم) هذا فلتـة مـن فلتـات عالم المخابرات .. لقـد غـادر (القـاهرة) دون الحد الأدنـى مـن المعلومات ، الذى يكفى للقيـام بمهمـة مستحيلة كهـذه ، وعلـى الرغم من هذا ، فقد نجح ، خلال يومين فحسب ، فى الحصول على كل المعلومات المطلوبة ، وإعداد خطة رائعة ، كتلك التـى أرسلها إلينا شفريًا ، عبر البث اللاسلكى الفائق .

نفث الرئيس دخان غليونه ثانية ، وهو يقول :

ـ المهم أن ينجح فى تنفيذها .

تنهّد المدير ، قائلاً :

ـ فلندع اللّه (سبحانه وتعالى) أن يفعل يا سيادة الرئيس .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها مدير المخابرات عبارته ، كان (أكرم) يتجه نحو مبنى (درع القادة) ، فى خطوات واسعة ثابتة قوية ، تشبه تمامًا خطوات (ليفى) ..

وعندما توقَّف عند قسم إثبات الشخصية ، أبرز بطاقة (شارون ليفى) العسكرية بمنتهى الثقة ، وهو يقول ، بصوت يحاكى صوت النقيب الإسرائيلى تماما :

ـ مساء الخير .. أتعشم أن تكون هذه الليلة أفضل من غيرها .

كانت نفس العبارة ، التى يستخدمها (ليفى) فى المعتاد ، عند البوَّابة الرئيسية للمبنى ، والتى قرأها الشاب على شفتيه ، وهو يراقب المكان من بعيد ، فى الليلة السابقة ، بوساطة منظار مقرَّب قوى ..

وكان من الواضح أنه يؤدَّى دوره بعبقرية فذة ، ومهارة ليس لها مثيل ، إذ إن ضابط المتابعة قد أجابه فى هدوء :

ـ كلنا نتعشَّم هذا أيها النقيب .

ابتسم الشاب فى هدوء ، واستعاد البطاقة العسكرية ، ثم عبر البوَّابة الرئيسية للمبنى ، وقطع الساحة الواسعة ، فى خطوات طويلة قوية ، و ...

وفجأة ، ارتفع صوت العقيد من خلفه فى صرامة :

ـ قف .. قف أيها النقيب .

اخترقت الصيحة أذنيه ، فتجمَّدت ساقاه ، وتوقَّفتا فى منتصف المسافة ..

ومرة أخرى ، ارتفع صوت العقيد الصارم ، يقول :

ـ استدر .

شدَّ الشاب قامته ، وتحسَّس مسدسه ، المختفى فى حزامه ، وهو يدور على عقبيه فى بطء رصين ؛ ليواجه العقيد ، الذى رمقه بنظرة كاللهب ، وهو يقول بكل صرامة الدنيا :

ـ نظم الأمن تغيَّرت أيها النقيب .. تغيَّرت تمامًا .

وانقبض قلب الشاب بين ضلوعه فى عنف ..

فالعبارة ، التى نطق بها العقيد ، كانت تعنى أن خطته كلها قد انهارت دفعة واحدة ..

بل تعنى أنها قد انسحقت ..

تمامًا .

★ ★ ★

٦ ـ قلب الخطر ..

لثوان ، بدا الموقف وكأنما تجمَّد تمامًا ، عند مبنى (درع القادة) ..

(أكرم) يقف مشدود القامة ، فى هيئة (ليفى) ، والعقيد يتطلَّع إليه فى صرامة ، وعقل الأوَّل يعمل بسرعة البرق ، فى محاولة لاستنباط ذلك التغيير الطارئ ، فى نظم الأمن ..

ثم تكلَّم العقيد ..

كان صوته جافًا خشنًا كعادته ، وهو يقول :

ـ سنحصل على بصماتك .

بدت دهشة الشاب طبيعية ، وهو يهتف :

ـ بصماتى ؟! ولماذا ؟!

والعجيب أنه ، وعلى الرغم من دهشته الطبيعية ، تحدَّث بصوت (ليفى) نفسه ، على نحو لم يسمح بذرة واحدة من الشك ، فى التسلُّل إلى نفس العقيد ، وهو يجيب :

ـ إنها الأوامر الجديدة .. كل شخص هنا سيتم فحص بصماته ، للتأكد من شخصيته ، كما ستتم مراجعة كل بطاقات الهوية العسكرية ، للتيقن من صحتها .

ثم هزَّ كتفيه ، قبل أن يضيف :

ـ يبدو أنهم يشكون فى أن بعضهم يحاول التسلُّل إلى هنا .

رسم الشاب على شفتيه ابتسامة شبيهة بابتسامة (ليفى) ، وهو يجيب :

ـ التسلُّل إلى هنا ، يا للسخافة ؟! الباعوضة نفسها لا يمكنها أن تتسلَّل إلى هنا ، دون أن نكشف أمرها .

ابتسم العقيد ، مغمغمًا ..

بالتأكيد .

ثم اتجه إليه ، ودفعه فى رفق ، مستطردًا :

ـ ولكنها الأوامر .

كرَّر الشاب مرة أخرى :

ـ يا للسخافة ؟!

ودون أدنى اعتراض ، سمح لمندوب المخابرات بالحصول على بصماته ، ثم سلَّمه بطاقة (ليفى) العسكرية ، وهو يقول ساخرًا :

ـ محاولة تسلُّل ؟! يا لها من فكرة سخيفة !

كان يعلم ، بحكم خبرته ، أن عملية فحص البصمات الخاصة بكل أطقم حراسة المبنى ، ستستغرق حتمًا عدة ساعات(*) ، وأن عليه أن ينهى مهمته ، وبنجاح ، قبل أن يتوصَّل الخبراء إلى أن بصماته لا تتفق قط مع بصمات النقيب (شارون ليفى) ..

(*) لم يكن الكمبيوتر مستخدمًا لفحص البصمات آنذاك .

وعلى الرغم من دقة الموقف ، والسرعة الواجبة للتنفيذ ، بدا (أكرم) هادئا تمامًا ، وهو يتحدَّث إلى زملاء (ليفى) لبعض الوقت ، قبل أن يشدَّ قامته ، ويقول بنفس اللهجة الصارمة الفخمة ، التى تميز النقيب الإسرائيلى :

ـ حان الوقت لتفقد نظم الأمن .

قالها ، واسترجع عقله فى لحظة واحدة تصميم المبنى كله ، قبل أن يعقد كفيه ، ويبدأ جولته داخل حجراته وطرقاته ..

وفى شىء من الحذر ، تابع أحد زملائه حركته ، قبل أن يلتفت إلى زميل آخر ، قائلاً فى خفوت :

ـ عجبًا ؟! ألا يبدو لك (ليفى) مختلفًا الليلة ؟!

ارتفع حاجبا الزميل الآخر ، وهو يقول :

ـ مختلفًا ؟! ماذا تعنى يا رجل ؟! (ليفى) هو (ليفى) .. نفس النقيب المتغطرس الذى نعرفه ؟!

هزَّ الأوَّل رأسه ، مغمغمًا :

ـ كلاَّ .. إنه يبدو لى الليلة غريب الأطوار .

هتف الثانى :

ـ بالتأكيد .

ثم التفت إلى الباقين ، مستطردًا :

ـ وهذا يثبت أن (ليفى) الذى نعرفه ، والذى عهدناه دائمًا غريب الأطوار .

وانفجر بالضحك مع الباقين ، فى حين مطَّ الأوَّل شفتيه فى حنق ، ثم هزَّ كتفيه ، مغمغمًا :

ـ ربما .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها كلمته ، كان (أكرم) يدلف إلى حجرة المراقبة ، وهو يقول :

ـ مساء الخير يا رجال .. كيف حال العمل اليوم ؟!

التفت إليه المراقبون الثلاثة فى دهشة ، لم تلبث أن تحوَّلت عند أحدهم إلى ضحكة مرتبكة ، وهو يقول :

ـ عجبًا ! إنك تبدو ودودًا للغاية الليلة أيها النقيب .

نبهَّت عبارته الشاب إلى خطأ تصرَّفه ، فشدَّ قامته فى صرامة ، قائلاً :

ـ لا تعتادوا هذا !

تبادل الرجال الثلاثة نظرة متوترة ، قبل أن يتمتم أحدهم :

ـ هذا هو النقيب (ليفى) ، الذى نعرفه .

أجابه الشاب فى حدة صارمة :

ـ دعك من النقيب (ليفى) ، واهتمَّ بعملك .

استدار الثلاثة إلى شاشات المراقبة ، وتبادلوا نظرة ساخرة خفية ، فى حين راح (أكرم) يجوِّل فى الحجرة ، وكأنه يتفقَّد نظم الأمن ، كما يفعل (ليفى) كل ليلة ..

وفى خفة مدهشة ، ودون أن يلاحظه أحد ، التقط الشاب أحد شرائط المراقبة المسجَّلة قديمًا ، ودسَّه فى آلة تسجيل الشرائط الدورية ..

وبسرعة وبراعة ، أبدل عمل الآلة ، من التسجيل إلى البث ، وهو يسأل الرجال فى صرامة :

ـ لماذا يحيط الإهمال بكل شىء هنا ؟!

التفت إليه الرجال الثلاثة فى دهشة ، وأحدهم يهتف مستنكرًا :

ـ الإهمال ؟! أى إهمال ؟! إننا نعمل هنا بكل كفاءة ، ومن المستحيل أن ...

قاطعه الشاب فى صرامة :

ـ اصمت .

كانت مناورة بارعة منه ، صرفت أنظارهم تمامًا عن شاشات المراقبة ، فى نفس اللحظة التى ظهرت فيها عليها عبارة إليكترونية تقول :

ـ الانتقال من التسجيل إلى البث .

استمر ظهور العبارة على الشاشات الثلاث لثانية واحدة ، ثم تلاشت كالمعتاد ، وبدأت الشاشات تنقل ما تم تسجيله ، منذ شهر واحد ..

الشاب وحده لاحظ ما حدث ، وهو يتظاهر بالغضب والصرامة ، وعندما اطمأن إلى أن كل شىء صار على ما يرام ، مطَّ شفتيه فى ازدراء ، قائلاً :

ـ فليكن .. عودوا إلى عملكم ، وسنناقش هذا غدًا .

ولم يكد ينتهى من عبارته ، حتى غادر المكان فى خطوات سريعة ، تاركًا الثلاثة خلفه ، يتبادلون نظرة دهشة ، قبل أن يهزّ أحدهم رأسه ، مغمغمًا :

ـ هذا هو (ليفى) الذى نعرفه .

وعادوا يتطلّعون إلى شاشات المراقبة ، دون أن يدرك أحدهم أن تلك الشاشات لم يعد لها أدنى فائدة ..

سوى لشخص واحد ..

(أكرم) ..

(أكرم) ، الذى غادر حجرة المراقبة ، وهو يعلم أن لعبته هذه لن تنجح فى خداع هؤلاء المحترفين الثلاثة طويلاً ..

لذا ، فعليه أن يتحرّك بأقصى سرعة ..

كان الجيمع يتناولون أقداح القهوة كالمعتاد ، عندما مرَّ أمامهم ، فى طريقه إلى الجناح الخاص باستراحة القادة ، فهتف به أحدهم :

ـ (ليفى) .. هل ترغب فى تناول قهوتك الآن ؟!

لوَّح بيده ، قائلاً :

ـ لا .. ليس الآن .

ارتفع حاجبا الرجل فى دهشة ، وهو يغمغم :

ـ ليس الآن ؟!

ثم التفت إلى رفاقه ، مستطردًا :

ـ عجبًا ! لقد كان موعد تناول القهوة هذا مقدّسًا ، بالنسبة له .

ضحك آخر ، وقال ساخرًا :

ـ ألم أقل لك : إنه دائمًا غريب الأطوار .

بلغت عباراتهم هذه مسامع الشاب ، ولكنه لم يتوقَّف لحظة واحدة ، وإنما واصل طريقه إلى استراحة القادة ، ولم يكد يدخلها ، حتى أغلق بابها خلفه فى إحكام ، ثم تلفَّت حوله فى سرعة ، حتى رصد موقع فتحة التهوية ، فاتجه إليها فى سرعة ، وجذب مقعدًا ، اعتلاه فى خفة ، وراح ينتزع غطاء الفتحة فى سرعة ومهارة ..

وعندما انزاح الغطاء ، وثب الشاب يتعلَّق بالفتحة ، قبل أن يدفع جسده داخلها ، ثم يزحف عبرها فى سرعة :

ـ كان عقله يراجع تصميمات المبنى فى سرعة البرق ، وهو يزحف عبر أنابيب التهوية الواسعة ، حتى بلغ ممرًا رأسيًا ، يقود إلى الطابق الثانى ، فدفع ظهره إلى أحد جدرانه ، وألصق قدميه بالجدار المقابل ، وراح يدفع جسده بذراعيه القويتين إلى أعلى ..

وبعد خمس دقائق من الدفع والمقاومة ، انتقل إلى ممرات التهوية فى الطابق الثانى ..

وعلى الرغم من الجهد الذى بذله ، ومن أنفاسه التى تتلاحق فى سرعة ، لم يتوقَّف (أكرم) لحظة واحدة ..

لقد عاد يزحف عبر ممرات التهوية ، بأقصى سرعة يسمح بها ضيق المكان ، حتى بلغ تلك الفتحة ، التى تطلّ على حجرة اجتماعات (درع القادة) ..

وهنا توقَّف الشاب ، وراح يتطلَّع إلى الحجرة ، من خلال الشبكة المعدنية لفتحة التهوية ..

كانت نفس الصورة ، التى أطلعوه عليها فى المخابرات العامة ، قبل أن يبدأ مهمته ..

نفس الصورة ، التى رسمها ، وبمنتهى الدقة ، السيِّد (رفعت) ، منذ عدة سنوات ..

ولأن السيِّد (رفعت) قد نقل ـ آنذاك ـ صورة دقيقة للموقف ، فقد كان الشاب يعلم أن شبكة فتحة التهوية المعدنية ، لهذه الحجرة بالذات ، مكهربة ..

وأن مجرَّد لمسها سيؤدى إلى انطلاق مائة وخمسين ألف فولت(*) فى جسده ، دفعة واحدة ..

لذا ، فقد أخرج من جيبه تلك الأدوات ، التى قدَّمها له أدون (بيتون) عند وصوله ..

وبسرعة ، راح يوصل تلك الأدوات بعضها بالبعض ، ثم يوصلها بسلكين سميكين ، برزا من نهايتها ..

وفى حرص ، أوصل أحد طرفى السلك بالشبكة ، ثم أوصل الطرف الآخر بأحد أجزاء الآلة التى صنعها الآن ..

ولم يكد يتمّ عمله ، حتى مدّ يده فى جرأة ، وأمسك شبكة فتحة التهوية ، و ...

وبدأ ينتزعها من مكانها ..

(*) الفولت : هو الوحدة العملية للقوة الدافعة الكهربية وفرق الجهد ، وهى عبارة عن قوة الدفع الكهربائى ، أو فرق الجهد ، التى تنتج تيارًا مقداره أمبير واحد ، عندما تؤثِّر تأثيرًا ثابتًا على موصِّل ، مقاومته الكهربية أوم واحد .

فآلته البسيطة حوّلت مسار التيار الكهربى إليها ، وتركت الشبكة خالية منه تمامًا ..

ولم تمض ثوان معدودة ، حتى كان الشاب قد انتزع شبكة فتحة التهوية ، ودفع جسده إلى الأمام ، ليسقط داخل الحجرة ، ورأسه إلى أسفل ..

وبخفة ومهارة مدهشتين ، دار جسده فى الهواء ، كأبرع بهلوانات السيرك ، ليهبط على قدميه داخل حجرة الاجتماعات .. الحجرة السرية للغاية ..

ولثوان ، تجمّد (أكرم) فى مكانه ، وكل خلية فى كيانه تنبض بالتأهّب والتحفز والحذر ؛ ليتأكّد من أن أحدًا من رجال القوات الخاصة الأربعة ، فى الممر الخارجى ، لم ينتبه إلى وجوده ..

ثم دبّ نشاط جم بغتة ، فى الجسد المتجمّد ..

وبسرعة مدهشة ، اتجه إلى أحد الجدران الخشبية للقاعة ، وأخرج من جيبه عدة أدوات ، راح يستخدمها فى براعة ، ليزيل أحد أجزاء الجدار ..

وراحت الدقائق تمضى فى سرعة ..

وتمضى ..

وتمضى ..

ولم يتوقّف الشاب عن العمل لحظة واحدة ، على الرغم من العرق الغزير ، الذى تصبّب على وجهه وجسده ، وصبغ ملابسه كلها أو كاد ..

وبسرعة مدهشة إلى أحد الجدران الخشبية للقاعة وأخرج من جيبه عدة أدوات راح يستخدمها فى براعة ليزيل أحد أجزاء الجدار ..

وأخيرًا ، انتزع ذلك الجزء من الجدار ..

وتألقت عيناه فى ظفر ..

فأمامه مباشرة ، وداخل تجويف معدّ بمهارة مدهشة ، كان يرقد جهاز التسجيل التقليدى ، وبداخله الشريط ..

شريط التسجيل ، الذى يحوى كل أسرار (درع القادة) ..

وفى نفس اللحظة ، التى عثر فيها الشاب على الشريط ، كان أحد رجال المراقبة الثلاثة يقول لرفيقيه فى ضجر :

ـ يا له من عمل سخيف ! إننا نقضى لياليا كلها هنا ، لا عمل لنا سوى تناول القهوة ، ومراقبة تلك الشاشات ، حتى ليخيَّل للمرء أن المشاهد والأحداث لا تتغيَّر قط ، وكأنما نشاهد الفيلم نفسه كل يوم .

هزَّ أحد رفيقيه رأسه ، مغمغمًا :

ـ أنت على حق يا رجل .. إننى ـ الليلة بالذات ـ أشعر وكأننى قد شاهدت هذه الأحداث من قبل بالفعل .

لوَّح الثالث بيده ، قائلاً :

ـ وهم .. مجرَّد وهم .. هذا ما يحدث دائمًا ، عندما تراقب المكان نفسه ، بنفس الأشخاص ، لفترة طويلة متوالية من الزمن .. انظروا .. ها هو ذا العقيد يمارس سخافاته وتعنتاته كالمعتاد ، والنقيب (ليفى) يتناول قهوته ، متظاهرًا بأنه لا يسمعه ، و(موردخاى) نصف نائم كالـ ...

بتر عبارته بغتة ، واندفع جسده إلى الأمام فى حركة حادة عنيفة ، وهو يهتف :

ـ (موردخاى) ؟! ولكن هذا مستحيل ! لقد تم نقله إلى جهاز الحراسات العامة منذ أسبوعين !!

تبادل رفيقاه نظرة شديدة التوتر ، قبل أن يهتف أحدهما :

ـ أمن المحتمل أن يكونوا قد أعادوه مرة أخرى ؟!

صاح الثالث فى عصبية :

ـ كلاَّ .. إنه فيلم شاهدناه من قبل بالفعل .. لقد تذكَّرت الآن .. النقيب (ليفى) سيرتطم بـ (موردخاى) ، وستنسكب قهوته على صدره ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، ارتطم (ليفى) بـ (موردخاى) ، على الشاشة بالفعل ، وانسكبت قهوته على صدره ..

وهنا صاح أحد الثلاثة :

ـ اللعنة ! إنه شريط مسجَّل .

قفز زميله إلى جهاز التسجيل ، هاتفًا :

ـ يا للشيطان ! هذا صحيح .. لقد أبدل أحدهم عمل الجهاز ، من التسجيل إلى البث .

اتسعت عيون زميليه عن آخرها ..

والتقت عيون الثلاثة بنظرة مذعورة ، قبل أن يصرخ أحدهم :

ـ النقيب (ليفى) !!

ثم وثب إلى الجهاز ، وأعاد عمله إلى التسجيل ، وهو يستدير فى سرعة هلعة إلى شاشات المراقبة الثلاث ..

ولثانية واحدة ، حملت الشاشات عبارة :

ـ الانتقال من البث إلى التسجيل .

ومع نهاية الثانية ، عادت شاشات المراقبة تنقل ما يحدث فعليًا ..

واتسعت عيون الثلاثة عن آخرها ، وهم يحدّقون فى الصورة ، التى نقلتها الشاشات من حجرة اجتماعات (درع القادة) ، والتى أظهرت فى وضوح فتحة التهوية ، التى تدلّت شبكتها من طرفها ، وحقيبة الأدوات الصغيرة ، الموضوعة إلى جوار الجدار ..

وبكل رعب الدنيا ، تراجع الرجل ، صائحًا :

ـ مستحيل ! مستحيل !

أما رفيقه الثانى ، فقد تجمّد فى مكانه ، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما ، وتدلّى فكه السفلى فى بلاهة وذعر ، فى حين تراجع الثالث لحظة ، ثم لم يلبث أن قفز نحو باب الحجرة ، صارخًا :

ـ كارثة أيها العقيد .. كارثة .

وفى لحظة واحدة ، تفجّر الموقف كله ..

وبشدّة ..

★ ★ ★

كانت هيئتى عجيبة مضحكة بالتأكيد ، وأنا أحدّق فى وجه (ا . ص) ، عندما بلغ هذا الجزء من قصته ، إذ إن الرجل ،

على الرغم من تهذيبه الشديد ، لم يستطع منع نفسه من الضحك ، وهو يسألنى :

ـ ماذا هناك ؟!

انتبهت فجأة إلى الأمر ، فانتفض جسدى انتفاضة خفيفة ، وأنا أنتزع نفسى من انبهارى ودهشتى ، قائلاً :

ـ هناك الكثير بالتأكيد ، فأنا مندهش .. بل مذهول ؛ لأنك تروى لى كل هذا الآن .

بدت الحيرة على وجه السيِّد (لبيب) ، وهو يسألنى :

ـ وماذا فى هذا ؟!

هتفت :

ـ هذا يعنى أنه قد نجح فى الخروج من هذا الأمر حيًّا ، وهذا يبدو لى مستحيلاً تمامًا !

سألنى (ا. ص) فى اهتمام :

ـ ولماذا ؟!

أجبته فى انفعال شديد :

ـ لماذا ؟! أتسألنى لماذا ؟! لقد كشف الإسرائيليون أمرك ، وعرفوا الشخصية التى تنتحلها بالضبط ، وأنت مازلت داخل وكرهم ، محاطًا بكل أطقم حراستهم .. ألا يبدو لك كل هذا رهيبًا ؟! ألا يبدو معه الخروج بسلام أمرًا مستحيلاً ؟!

صمت لحظة ، وكأنما يسترجع تفاصيل الموقف كله ، قبل أن يبتسم ، قائلاً :

ـ هذا صحيح .

لوَّحت بذراعىً عن آخرهما ، وأنا أقول فى عصبية :

ـ أنا على حق فى دهشتى إذن .

ضحك مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .

ملت نحوه ، قائلاً :

ـ أخبرنى بالله عليك ، لماذا تركت كل شىء على حاله ، فى حجرة اجتماعات (درع القادة) ؟! بل والأكثر أهمية أن تخبرنى : كيف خرجت من ذلك المبنى سالمًا ؟!

تراجع فى مقعده ، وقال :

ـ أعتقد أن إجابة السؤال الأوَّل أكثر سهولة ، إذ إن ما فعلته ، فى حجرة اجتماعات (درع القادة) ، كان مقصودًا ، ومعدًّا منذ البداية ، وأعتقد أنه كان أفضل وسيلة لخداع الإسرائيليين ، الذين لن يدركوا حقيقة الموقف ، إلا عندما يقرءون سطورك .

قلت فى لهفة :

ـ لقد نجحت فى القفز بفضولى ولهفتى إلى الذروة .

ابتسم ، وقال :

ـ لم تتعلَّم الصبر بعد .

ثم تابع فى اهتمام :

ـ عندما بدأت دراسة الخطة فى (القاهرة) ، كان الرجال

يعلمون جيدًا أن الإسرائيليين سيكشفون حتمًا تلك الفجوة ، التى أخفى فيها السيِّد (رفعت) جهاز التسجيل التقليدى ، منذ عدة سنوات ، عندما يبدءون فى تركيب أجهزتهم الحديثة ، وسواء عثروا على الشريط المسجَّل أم لا ، فسيدرك خبراؤهم ومحللوهم أننا قد حصلنا منهم على الكثير والكثير من المعلومات لبعض الوقت ، وهذا يعنى أن معظم هذه المعلومات ستفقد أهميتها وخطورتها .

سألته فى حيرة :

ـ ولماذا ؟!

أجاب فى حسم :

ـ لأن المعلومات السرية تكتسب قوتها وخطورتها من سريتها ذاتها ، ومن كون الخصم يتصوَّر أنه وحده يعلمها ، فلو أنه يستخدم مثلاً شفرة خاصة ، لنقل رسائله لجواسيسه ، ونجحنا نحن فى الحصول عليها ، فلن يمكننا أن نستفيد بها ، إلا لو استمر هو فى استخدامها ، وهذا لن يحدث إلا لو ظلَّ على قناعته بأنها سرية ، أما لو أدرك أننا قد كشفنا أمرها ، فسيعمل على استبدالها على الفور ، مما يفقدنا الفائدة المرجوة منها أيضًا .. وهذا يعنى أن أقوى ما فى حصولك على الأسرار ، هو ألا يدرك خصمك قط أنك قد حصلت عليها .

ثم أشار بسبَّابته ، مضيفًا :

ـ وهذا كان أحد الأهداف الرئيسية للعملية .

سألته فى اهتمام :

ـ ألم يكن من الممكن إخفاء الأمر كله عن الإسرائيليين ؟!

هزَّ رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ لو أننا فكَّرنا فى الأمر من هذا المنطلق ، لفشلت العملية كلها منذ البداية ، إذ لم يكن من الممكن أن أنتحل شخصية (ليفى) مثلاً ، لأنهم كانوا سيدركون هذا حتمًا ، إن عاجلاً أو آجلاً ، لذا فقد كانت الخطة الرئيسية تضع فى الاعتبار أن الإسرائيليين سيكشفون الأمر حتمًا ، لذا فقد كان من الضرورى أن نضع أمامهم احتمالاً منطقيًا ، يصرف أنظارهم تمامًا عن العملية الفعلية .. وهذا ما دفعنى لترك كل شىء على ما هو عليه ، بل ووضعت شريط تسجيل جديد فى الجهاز ، بحيث يبدو الأمر وكأن مهمتى الرئيسية كانت وضع جهاز تنصُّت وليس استعادة شريط مسجَّل بالفعل .

سألته مبهورٌ :

ـ وهل أقنع هذا الإسرائيليين ؟!

اتسعت ابتسامته ، وهو يجيب :

ـ للغاية .. لقد درسوا الموقف كله فيما بعد ، من كل الوجوه ، ثم توصَّلوا بعبقريتهم إلى ما دفعناهم إليه بالضبط ، وخرجت تقاريرهم الرئيسية تؤكد أن مهمتى الرئيسية كانت زرع جهاز تنصُّت تقليدى ، فى حجرة اجتماعات (درع القادة) .

تراجعت ، هاتفًا فى استحسان :

ـ يا للبراعة !

بدا الفخر فى عينى السيِّد (لبيب) ، وهو يقول :

ـ كل عملياتنا تدار بهذا الأسلوب .

التفت إليه ، قائلاً :

ـ لا تقل لى : إن كل عمليات جهاز المخابرات المصرى تنجح بنسبة مائة فى المائة ، فلن أصدِّق هذا أبدًا .

ضحك ، وهو يقول :

ـ لا يمكننى أن أدَّعى هذا بالتأكيد ، ولا أى جهاز مخابرات ، فى العالم كله ، ومنذ بدء التاريخ ، يمكن أن يقول : إن كل عملياته تنجح بنسبة مائة فى المائة .. الإحصائيات تقول : إن أفضل نسبة معروفة ، فى عالمنا هذا ، هى ثلاث وثمانون فى المائة من النجاحات ، مقابل سبع عشرة فى المائة من الفشل .

سألته فى لهفة :

ـ وكم تبلغ نسبتنا نحن ؟!

بدت لى ابتسامته واثقة للغاية ، وهو يقول :

ـ لا يمكننا ذكرها ، ولكن يكفى أن تعلم أنها من أفضل النسب المعروفة ، فى هذا المضمار .

هتفت فى سعادة :

ـ حقًا ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، قبل أن يشير إلى (ا. ص) ، قائلاً :

ـ وأمامك الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة ، وربما كان هذا الاستثناء هو الذى صنع من السيِّد (ا. ص) أسطورة .

تطلّعت إلى الرجل مبهورًا ، وأنا أقول :

ـ هل يعنى حديث السيِّد (لبيب) هذا أنك لم تفشل طوال عملك قط .

صمت لحظة ، ثم أجاب فى شىء من الحياء :

ـ إنه يبالغ .

ولكن (لبيب) هتف فى حماس :

ـ لا تصدّقه .. ملفّه يقول : إنه رجل المخابرات الوحيد ، فى العالم أجمع ، الذى حقّق نسبة نجاح تعادل مائة فى المائة .

تضاعف انبهارى ، وأنا أهتف :

ـ رائع .

تصاعدت حمرة خجل إلى وجه البطل ، على نحو أدهشنى للغاية ، وهو يقول فى صرامة :

ـ دعكما من هذا الحديث الجانبى ، ولنعد إلى القضية الرئيسية .

ارتبك السيِّد (لبيب) ، وهو يقول :

ـ معذرة يا سيِّدى .. معذرة .

أما أنا ، فقد احتقن وجهى خجلاً ، وعدت استقرّ على مقعدى فى رصانة ، فى حين تجاوز هو الموقف فى سرعة ، وهو يستعيد هدوءه ، قائلاً :

ـ السؤال الحقيقى هو : كيف أمكننى الخروج من المبنى ؟!

غمغمت :

ـ بالضبط .

تنهَّد ، وقال :

ـ كان هذا دور القهوة .

قلت فى دهشة :

ـ القهوة ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وعاد يروى قصة الخروج من قلب الخطر ..

وقصة القهوة ..

الغامضة ..

★ ★ ★

٧ـ ثقب الإبرة ..

سرى توتر شديد فى عروق (ميرينا) ، وهى تضغط أزرار الهاتف ، فى الموعد المتفق عليه تمامًا ، وخُيِّل إليها أن رنينه قد استغرق دهرًا كاملاً ، قبل أن يأتيها ذلك الصوت الرصين من الجانب الآخر ، قائلاً :

ـ من المتحدِّث ؟!

أجابته فى سرعة :

ـ طائر الليل .

كان هذا هو الاسم ، الذى أخبروها أن تستخدمه ، فى حالات الطوارئ ، عندما انهت كل تدريباتها فى القاهرة ، واستعدّت للسفر إلى (إسرائيل) ..

وكان من الواضح أن الرجل يدرك هذا جيِّدًا ؛ إذ إنه لم يكد يسمع الاسم ، حتى قال على الفور :

ـ كل شىء معد .. اللقاء فى الموقع (ص) ، فى الساعة ألفين وثلاثمائة .

كان هذا كافيًا ، بالنسبة لها ، لتدرك أن اللقاء سيتم عند ميناء قديم مهجور ، فى طرف (تل أبيب) ، فى تمام الحادية عشرة مساءً ..

وفى اهتمام ، سألها الرجل :

ـ هل ستأتين بشمس أم ليل ؟

أجابت فى اقتضاب :

ـ شمس .

تمتم .

ـ سننتظرك .

ثم أنهى المحادثة على الفور ، فالتقطت هى نفسًا عميقًا ، قبل أن تعيد سمّاعة الهاتف إلى موضعها فى بطء ، ثم تلتفت لتلقى نظرة على نفسها فى المرآة ، وتطلّعت بضع لحظات إلى شعرها ، الذى اصطبغ بلون أشقر متوهِّج ، قبل أن تغمغم :

ـ صدقنى يا رجل .. لست أميل للشمس ، فالليل يناسب بشرتى أكثر .

لم تدر لماذا قفزت أفكارها ، فى تلك اللحظة إلى (أكرم) .. ولا لماذا خفق قلبها لذكره ..

ولكن من المؤكّد أنه ما إن لاح وجهه فى ذاكرتها ، حتى تفجّرت فى أعماقها موجة من مشاعر شتى ، اختلج لها قلبها بين ضلوعها فى قوة ..

لقد شعرت بالبهجة ، والسعادة ، والقلق ، والخوف ، و ... والحب ..

وكم أدهشها هذا الشعور الأخير !!

إنها لم تلتق به سوى مرات قلائل ..

ولم يتبادلا إلا أقل القليل من الكلمات ..

ولكنها بالفعل تحبه ..

بل هى مبهورة برجولته حتى النخاع ..

وليست تدرى كيف حدث هذا ؟!

ولن تشغل نفسها بالبحث عن الأسباب ..

إنها تحبه ..

وهذا يكفى ..

لا يعنيها حتى أن يدرك هذا ..

أو أن يبادلها حبًا بحب ..

المهم أن تحبه هى ..

وإلى الأبد ..

ومع أفكارها ، شرد بصرها بضع لحظات ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة حالمة ، ثم لم تلبث أن انتفضت فى قوة ، وهى تحدق فى الساعة الكبيرة ، المعلقة على الجدار ..

الساعة التى أشارت عقاربها إلى العاشرة والربع ..

وكان هذا التوقيت يعنى أن وقت الرحيل قد حان ..

فمع ازدحام طرقات (تل أبيب) ، فى هذه الساعة ، سيكون عليها أن تتحرك على الفور ، حتى يمكنها أن تصل إلى الموقع (ص) ، فى تمام الساعة ألفين وثلاثمائة ..

وعلى الرغم منها ، تركزت أفكارها كلها على (أكرم) ..

ترى ماذا يفعل فى هذه اللحظة ؟!

وكيف يؤدى مهمته ؟!

ومع تساؤلاتها ، شعرت بقبضة باردة كالثلج تعتصر قلبها ، وتعاظم فى أعماقها شعور مخيف بأن (أكرم) يواجه خطرًا داهمًا ..

خطرًا بلا حدود ..

★ ★ ★

عندما اندفع مراقب الشاشات نحو باب الحجرة ، وهو يصرخ مستنجدًا بالعقيد ، كان يتصور أن باستطاعته ، إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وكشف ما يفعله (أكرم) فى المكان ..

ولكنه لم يكن قد بلغ غايته بعد ، عندما انفتح الباب بغتة .

وانتفض جسد الرجل فى عنف ..

بل انتفضت أجساد الرجال الثلاثة فى آن واحد ، عندما وقع بصرهم على ذلك الذى عبر الباب فى سرعة ، ثم أغلقه خلفه فى قوة ، وهو يقول :

- أراهن على أنكم قد كشفتم الأمر .

سقطت قلوب الرجال الثلاثة بين أقدامهم ، وهم يحدقون فى وجه (أكرم) الذى مازال ينتحل شخصية (ليفى) ، والذى أغلق الباب بجسده ، مستطردًا فى صرامة :

- من سوء حظكم أن جدران حجرتكم عازلة للصوت ؛ لتضمن لكم الهدوء والعزلة .

انتزع أحد الرجال الثلاثة نفسه من ذهوله وذعره فى سرعة ، وقفز محاولاً بلوغ جهاز الاتصال الداخلى ..

ولكن الشاب كان أكثر سرعة وخفة ..

لقد وثب نحو الرجل كالليث ، واستقبل اندفاعه بلكمة كالقنبلة ، ارتدّ معها الرجل فى عنف ، ليرتطم بعدد من أجهزة التسجيل ، قبل أن يسقط فاقد الوعى ..

وفى ذعر ، اندفع الرجل الثانى نحو الباب ، فى محاولة للفرار ، فى حين انقضّ الأخير على (أكرم) ، صارخًا :

ـ النجدة أيها العقيد .. خيانة .. خيانة .

مال (أكرم) جانبًا فى خفة ، متفاديًا انقضاضة المراقب الأخير ، ووثبت قدمه فى اللحظة نفسها ، لتغوص فى معدة الآخر ، قبل أن يبلغ الباب ، ثم قفز إلى أعلى ، ودار حول نفسه بمهارة مدهشة ، ليركل الأخير فى فكه بقدمه اليسرى ، والآخر فى أنفه باليمنى ..

وسقط أحد الرجلين أرضًا ، وهو يتأوّه فى شدة ، فى حين اصطدم الآخر بالجدار ، وارتدّ عنه فى عنف ، ليستقبله الشاب بلكمتين متعاقبتين سريعتين ، تفجّرتا فى أنفه وفكه ، ليسقط كالحجر ..

وفى محاولة يائسة ، حاول الأخير أن ينهض من سقطته ، ويفتح باب الحجرة ، ولكن الشاب أمسك كتفه فى قوة ، قائلاً :

ـ لا تحاول يا رجل .

لوّح الرجل بيده فى ذعر ، وهو يهتف :

ـ أنت .. أنت لست (ليفى) .. (ليفى) الحقيقى ليس قويًا إلى هذا الحد .

أجابه الشاب فى صرامة :

ـ استنتاج عبقرى يا رجل .. أنا لست (ليفى) بالفعل .

هتف الرجل :

ـ لن تفلح خطتك أبدًا .. العقيد سيراجع بنفسه إجراءات الأمن ، بعد نصف ساعة من الآن ، وسيكشف أمرك حتمًا .

أجابه الشاب فى برود :

ـ لا تقلق نفسك بهذا الأمر .

ولكن الرجل تابع فى عصبية :

ـ أنهم لن يسمحوا بخروجك من هنا أبدًا ، قبل الموعد الرسمى لانتهاء النوبتجية ، فى الثامنة صباحًا .. هذا هو القانون ، ولن يمكنك إخفاء ما حدث ، طوال هذه الفترة .. لن يمكنك هذا قط ..

هزّ الشاب رأسه ، وقال فى حزم :

ـ قلت لك : لا تقلق نفسك بهذا الأمر .

قالها ، ثم رفع قبضته ، مستطردًا :

ـ معذرة يا رجل .. لا تأخذ هذا بمأخذ شخصى ..

هتف الرجل :

ـ لا .. أرجوك .

هوى (أكرم) بقبضته على فك الرجل ، وهو يغمغم فى ضيق :

ـ إننى مضطر للأسف .

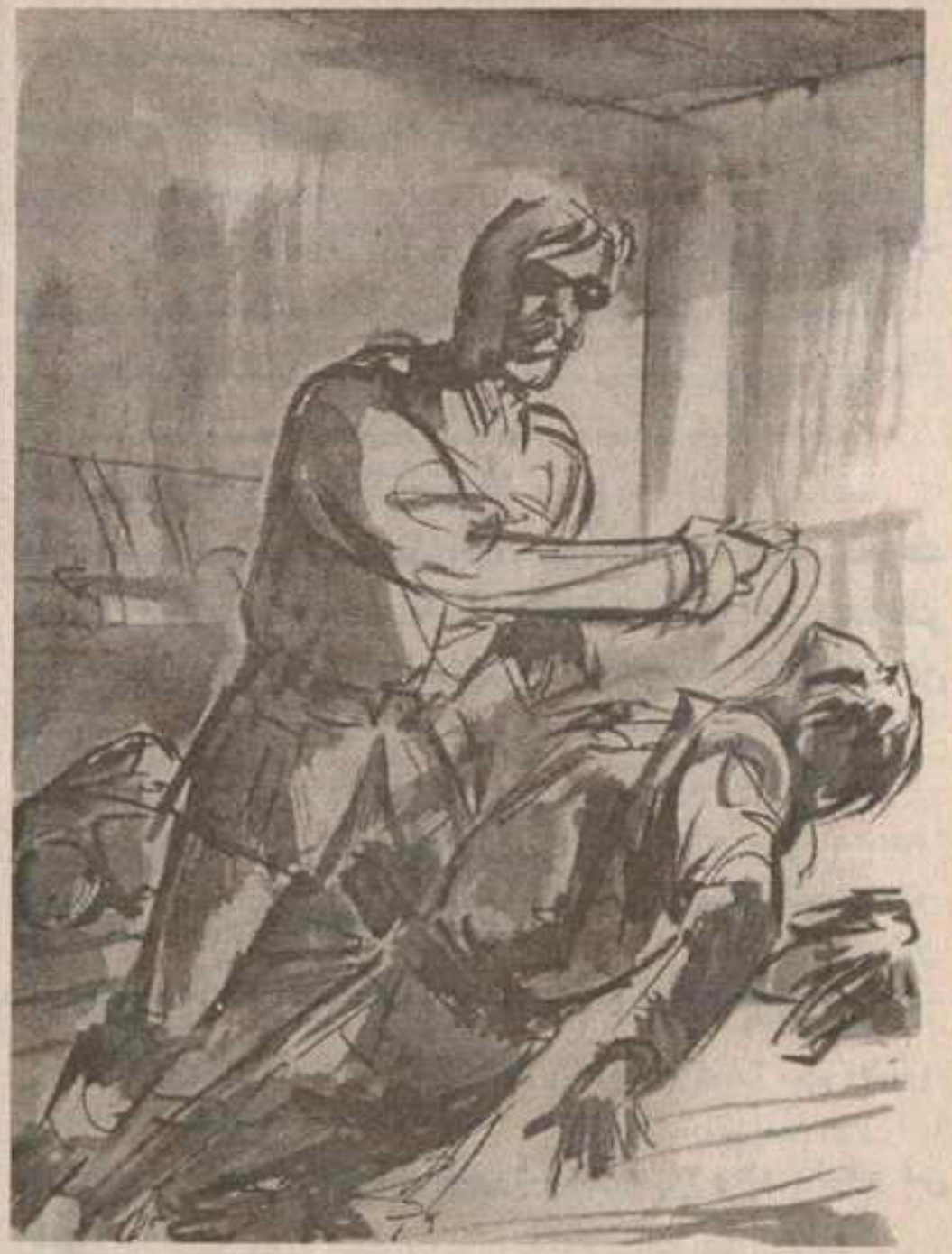

هوى «أكرم» بقبضته على فك الرجل

كان يشعر بضيق شديد ؛ لأنه اضطر لضرب رجل أعزل ، ولكن ضروريات المهمة كانت تحتم عليه ألا يترك الرجل خلفه ، خاصة وهو يدرك جيدًا أن ما فعله سينكشف حتمًا ، خلال نصف الساعة ..

وعلى أقصى تقدير ..

★ ★ ★

« مفاجأة يا سيادة المدير .. »

هتف رجل المخابرات الإسرائيلى بالعبارة ، وهو يندفع إلى حجرة مدير المخابرات ، ملوحًا بورقة كبيرة فى يده ، ومستطردًا :

ـ بصمات النقيب (شارون ليفى) لا تتطابق قط مع سجله لدينا .

قفز مدير المخابرات من خلف مكتبه ، هاتفًا :

ـ ماذا ؟!

وامتقع وجهه بسرعة مدهشة وهو يسأل الرجل :

ـ هل راجعت الأمر بنفسك ؟

أجابه الرجل فى توتر شديد :

ـ مرتين يا سيدى .. الأمر لا يقبل الشك .. ذلك الرجل ، الذى يراجع الآن إجراءات الأمن ، فى مبنى (درع القادة) ، ليس النقيب (ليفى) ، الذى نعرفه .

اتسعت عينا المدير عن آخرهما ، وارتج عليه بضع لحظات ، فلم يستطع نطق حرف واحد ، على الرغم من خبراته السابقة ، ثم لم يلبث أن هتف فى حنق ، وقد تحول وجهه من الامتقاع إلى الاحتقان الشديد :

ـ أسرع يا رجل .. اتصل بمبنى (درع القادة) ، وأخبرهم أن يلقوا القبض على النقيب (ليفى) مباشرة .

اختطف الرجل سمَّاعة الهاتف ، وبدأ يطلب الرقم بالفعل ، والمدير يتابع فى عصبية :

ـ لا تجعلهم يقتلونه .. أريده حيًّا بأىّ ثمن .. لا بد أن نعرف من هو .. من أرسله ، وما الذى أتى ليفعله بالضبط .

أتمّ الرجل الاتصال ، وقال فى اهتمام :

ـ (درع القادة) ؟ هنا مكتب مدير (الموساد) .. الكود السرى هو (عفرتوف) .. هناك أوامر جديدة .. ألقوا القبض فورًا على النقيب (ليفى) .. (شارون ليفى) ..

ثم اعتصرت أصابعه سمَّاعة الهاتف بغتة ، وهو يهتف :

ـ ماذا ؟! ماذا تقول يا رجل ؟!

سرت قشعريرة باردة ، فى جسد مدير المخابرات ، وهو يهتف به :

ـ ماذا حدث هناك .. ماذا حدث ؟!

ولكن الرجل لم يجب مباشرة .

لقد شمله ذهول عجيب ، جعله ينسى ما ينبغى فعله ، عندما يلقى عليه رئيسه سؤالاً كهذا ، وهو يستمع إلى محدِّثه ، على الجانب الآخر ، فصاح به المدير فى غضب :

ـ ماذا حدث يا رجل ؟!

أدار رجل المخابرات عينيه إلى المدير ، وهو يقول فى ذهول :

ـ النقيب (ليفى) غادر المبنى ، منذ خمس دقائق .

صرخ المدير فى غضب هادر :

ـ غادر ماذا ؟!

ثم اختطف سمَّاعة الهاتف من يد الرجل ، صائحًا :

ـ أى قول سخيف هذا ؟! من جرؤ على مخالفة الأوامر .. ألا تدرك أنه من المحظور تمامًا أن يغادر أحد المبنى ، مهما كانت الأسباب ، قبل موعد النوبتجية الرسمى ؟!

أجابه العقيد ، من مبنى (درع القادة) ؛ بصوت يشف عن آلام شديدة :

ـ القانون يستثنى حالات الطوارئ يا سيِّدى ..

صاح به مدير المخابرات فى غضب هادر :

ـ وأية طوارئ تلك ، التى استلزمت هذا الاستثناء أيها الغبى .

أجابه العقيد فى سرعة :

ـ الطوارئ الطبية يا سيِّدى .. يبدو أن الرجال قد أصابهم نوع من التسمم ؛ فقد انتابتهم آلام معوية شديدة ، وراحوا يفرغون ما بجوفهم فى عنف ، على نحو استلزم الاتصال العاجل بقسم الإسعافات الطبية ، الذى أرسل قافلة من سيارات الإسعاف ، التى حملت عددًا من الرجال إلى المستشفى العسكرى ، كان من بينهم النقيب (ليفى) .

احتقن وجه المدير أكثر وأكثر ، وكادت أصابعه تغوص فى سمّاعة الهاتف ، وهو يقول فى غضب ساخط :

ـ القهوة .

سأله رجل المخابرات فى توتر :

ـ هل ترغب فى قدح من القهوة يا سيِّدى ؟!

التفت إليه المدير فى حركة حادة ، هاتفًا :

ـ لهذا كانوا يبحثون عن المعلومات الخاصة بالقهوة .

قالها ، وأنهى اتصاله بالمبنى فى عنف ، ثم أجرى اتصالاً آخر ، وصاح عبر الهاتف ، بكل غضب وصرامة الدنيا :

ـ حالة طوارئ قصوى يا رجل .. لقد نجح جاسوس بارع فى التسلُّل إلى مبنى (درع القادة) ، وخرج منه منتحلاً شخصية النقيب (شارون ليفى) ، فى طريقه إلى المستشفى العسكرى ، والأرجح أنه لن ينتظر ، حتى يصل إلى هناك .. أريد هذا الرجل بأى ثمن .. هل تفهم ؟! بأى ثمن .. انشروا فرق التفتيش والمراقبة فى كل الشوارع والطرقات .. راجعوا بطاقات الجميع .. جوازات السفر .. رخص القيادة .. كل ما يمكن فحصه .. راقبوا كل مخارج ومداخل (تل أبيب) ،

وألقوا القبض على كل ما تشتبهون فى أمره ..

اعتقلوا أى مخلوق ، عند أوّل بادرة شك .. المهم أن تمنعوا ذلك الجاسوس من مغادرة المدينة ، مهما كانت الأسباب ..

ثم أنهى ذلك الاتصال الثانى ، وعيناه تشتعلان بكل غضب الدنيا ..

وفى أعماقه ، وبكل الغضب الذى يسرى فى عروقه ، أقسم أن يلقى القبض على ذلك الجاسوس المجهول ..

وبأى ثمن ..

★ ★ ★

« آنسة ميرينا .. »

انتفض جسد (ميرينا) فى عنف ، عندما فاجأها ذلك الصوت الرصين ، فالتفتت إلى صاحبه فى حركة عنيفة ، جعلته يشير بيده ، قائلاً :

ـ رويدك يا آنسة .. إنه أنا .

حدّقت لحظة فى وجه الرجل ، قبل أن تطلق من أعمق أعماق صدرها زفرة حادة ، قائلة فى عصبية :

ـ إننى أنتظرك منذ سبع دقائق .

أجابها بنفس الهدوء والرصانة :

ـ المرور ليس يسيرًا الليلة .. الإسرائيليون يفتشون المارة والسيارات ، ومن الواضح أنهم يبحثون عن شخص ما .

انقبض قلبها ، وهى تغمغم :

ـ أعتقد أننى أعرف ذلك الشخص .

صمت الرجل لحظة ، قبل أن يجيب :

ـ وأنا أيضًا .

غلّفهما الصمت بضع لحظات ، بعد أن ألقت قولها هذا إلى أن قطعت هى أيضًا حبل الصمت ، قائلة فى توتر :

ـ قلت : إن لديك وسيلة للخروج من هنا .

أجاب فى سرعة :

ـ بالتأكيد .

ثم ألقى نظرة على ساعته ، مستطردًا :

ـ ولكننا فى انتظاره .

ردّدت مبهوتة :

ـ فى انتظاره .

ولهثت أنفاسها ، وهى تسأله :

ـ هل تعنى أن ...

قاطعها صوت هادئ رصين ، يقول :

ـ نعم .. هذا ما يعنيه .

خفق قلبها فى قوة ، لم تشعر بها فى حياتها كلها ، وهى تلتفت إليه بكيانها كله ، وعيناها تتألقان بفرحة غامرة ..

كانت ترغب فى أن تصرخ باسمه ، بكل ما يغمر كيانها من مشاعر ..

ولكنها لم تفعل ..

انفعالها الجارف ألجم لسانها ، وكتم صرختها فى حلقها ، وجعلها تتطلّع إليه فى حب ولهفة وسعادة وصمت ، فى حين هتف الرجل الآخر فى دهشة :

ـ رباه ! كيف وصلت إلى هنا ؟! إننى لم أشعر بك قط .

أجابه الشاب فى هدوء ، وكأنما أتى من نزهة لطيفة :

ـ لا عليك ..

ثم سأله فى اهتمام ، وهو يناوله حقيبة من البلاستيك :

ـ هل أعددت كل شىء ؟!

أجاب الرجل فى سرعة ، وهو يلتقط الحقيبة فى عناية :

ـ (القاهرة) أعدَّت الأمر بكل دقة كالمعتاد .. سنتسلّل الآن إلى هذا الميناء ، حيث سينتظركما زورق آلى ، له محرّك مزوَّد بكاتم محدود للصوت .. إنك تجيد قيادة هذا النوع من الزوارق أليس كذلك ؟!

أومأ الشاب برأسه إيجابًا ، مغمغمًا :

ـ بالتأكيد .

تابع الرجل ، وهو يناوله ورقة صغيرة :

ـ عظيم .. انطلق به مباشرة إلى هذه النقطة ، خارج حدود المياه الإقليمية الإسرائيلية ، وفى البقعة المذكورة بالضبط ، وتحت جنح الظلام ، ستنتظركما غوّاصة مصرية ، لديها أوامر بالتقاطكما فور ظهوركما ، والعودة بكما إلى (القاهرة) .

تمتمت (ميرينا) مبهورة :

ـ غوّاصة ؟!

تجاهل الرجل قولها تمامًا ، وهو يربّت على كتف الشاب ، قائلاً :

ـ هيا .. لا تضيعا الوقت .. انطلقا على بركة اللّه (سبحانه وتعالى) .

صافحه الشاب فى حرارة ورصانة ، وهو يقول :

ـ أشكرك على كل ما قدّمته .

غمغم الرجل فى خفوت :

ـ إنما فعلت ما فعلت ، من أجل (مصر) .

ابتسم الشاب ، مغمغمًا :

ـ حسنًا فعلت .

وصافحته (ميرينا) بدورها ، وهى تقول فى صوت مبحوح :

ـ أشكرك .

أومأ الرجل برأسه ، وهو يقودهم إلى داخل الميناء ، حيث وقف الزورق الآلى ، الذى أشار إليه ، متمتمًا :

ـ هاهوذا .

وثب الشاب فى خفة إلى الزورق ، وعاون (ميرينا) على الانتقال إليه ، ثم أدار محركه فى مهارة ، واستعدّ للانطلاق به ، فهتف الرجل :

ـ وداعًا .. أتعشّم أن نلتقى مرة أخرى .. فى (القاهرة) .

ابتسم الشاب ، مغمغمًا :

ـ أتعشّم هذا .

تردّد الرجل لحظة ، ثم قال فى تأثُّر واضح :

ـ ولا تنس إبلاغ سلامى للسيِّد (عبد المحسن) .

أجابه الشاب ، وهو ينطلق بالزورق الآلى :

ـ سأفعل بإذن اللّه .

ضمّ أدون (بيتون) شفتيه فى قوة ، وهو يمسك الحقيبة البلاستيكية فى عناية ، متابعًا بعينيه ذلك الزورق الآلى ، وهو ينطلق مبتعدًا ، ويغيب وسط الظلام ، ثم تمتم فى تأثُّر شديد :

ـ على بركة اللّه (سبحانه وتعالى) .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان مدير المخابرات الإسرائيلية يدور فى حجرته كالضبع الجريح ، وهو يقول لمساعده ، فى توتر بالغ :

ـ سيحاول الخروج من (إسرائيل) بأقصى سرعة حتمًا .. ولكنه لن يتجه إلى المطار ، لثقته بأننا سنراجع أوراق المسافرين بمنتهى الدقة ، وسنكشف أىّ تزوير محتمل .. والطريق البرية كلها مراقبة .. كما أن التوغُّل فى (إسرائيل) ليس مأمون العواقب .

وأدار عينيه إلى خريطة (إسرائيل) الكبيرة ، المعلّقة على جدار حجرته ، وراح يدرسها ببصره فى اهتمام ، وهو يتمتم :

ـ ماذا يتبقّى لنا إذن ؟!

قال مساعده فى حماس :

ـ ألا يمكن أن يستقل طائرة خاصة إلى (الأردن) أو (لبنان) .. أو حتى يحاول عبور (سيناء) بها ؟!

هزّ مدير المخابرات رأسه ، مغمغمًا :

ـ المصريون ليسوا بهذا الغباء .

ارتفع حاجبا مساعده فى دهشة ، وهو يقول :

- المصريون ؟! ومن قال إنه مصرى ؟!

أجابه المدير فى صرامة :

- ومن سواهم يمكن أن يلعب بهذه البراعة ؟!

ثم أشار إلى الخريطة إشارة عامة ، مستطردًا :

- إنهم يعلمون حتمًا أن وسائلنا الجوية والدفاعية ستكشف الأمر حتمًا ، ولن تسمح لأية طائرة بالفرار ، أو الـ ...

بتر عبارته بغتة ، وهو يتطلّع إلى الخريطة ، فى اهتمام بالغ ، جعل مساعده يسأله فى حذر :

- أو ماذا يا سيدى ؟!

هتف المدير بغتة :

- البحر .

ارتفع حاجبا مساعده فى دهشة ، عندما لم يجد أدنى ارتباط ، بين سؤاله وجواب رئيسه ، وغمغم فى حيرة :

- أى بحر ؟!

أجابه مدير المخابرات فى انفعال :

- البحر الأبيض المتوسط .. إنه أفضل وسيلة للفرار ، مع كل ما أحطنا به المدينة من وسائل الأمن والتفتيش والمراقبة .. إنه سيسعى إلى الفرار بحرًا بالتأكيد .

هتف مساعده فى حماس :

- يا للشيطان ! هذا صحيح يا سيدى .

التفت إليه المدير فى حدة ، قائلاً :

- أبلغ حرس السواحل ، والقوات البحرية بالأمر .

أجابه مساعده فى حماس :

- سأفعل على الفور يا سيدى .

صاح به المدير :

- هذا لن يكفى .. أريد منك أن تستقل بنفسك هليوكوبتر بحرية ، وتنطلق بها بحثًا عن زورق آلى ، ينطلق فى قلب الليل .. استخدم مناظير خاصة للرؤية الليلية ، واحمل مدفعًا آليًا قويًا .

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

- وانس كل الأوامر ، الخاصة بالإبقاء على ذلك الجاسوس حيًا .. انسفه فور رؤيته .. المهم ألا ينجح فى الفرار أبدًا ..

ودق سطح مكتبه بقبضته ، مستطردًا بكل غضب الدنيا :

- هل تفهم ؟! أبدًا .

★ ★ ★

« إننى لست إسرائيلية »

نطقت (ميرينا) الكلمات فى خجل خافت ، والزورق البخارى ينطلق وسط البحر ، فى قلب الليل ، فالتفت إليها (أكرم) بابتسامة هادئة ، وهو يقول :

- لقد أخبرتنى هذا من قبل .

ازدردت لعابها ، قائلة :

- هناك ما لم أخبرك به بعد .

سألها :

ـ وما هو ؟!

صمتت لحظة ، وهى تداعب خصلة من خصلات شعرها ، قبل أن تجيب بالعربية :

ـ أنا مصرية .

التفت إليها بدهشة حقيقية ، هاتفًا :

ـ مصرية ؟!

بدا وكأن دهشته قد أسعدتها للغاية ، وهى تقول :

ـ نعم .. أنا مصرية أبًا عن جد .. اسمى الحقيقى ليس (ميرينا) ، وإنما (لبنى) .. (لبنى وجدى) .

تطلع إليها لحظة فى انبهار ، قبل أن يبتسم فى إعجاب ، قائلاً :

ـ رباه ! إننا ننتمى لجهاز مخابرات فذ بالفعل .

قالت فى سعادة :

ـ بالتأكيد .

ثم جلست على طرف الزورق ، وقالت بلهجة صافية ، وكأنما أراحها أن تلقى ذلك الحمل عن كاهلها ، بعد كل هذه السنوات :

ـ لقد تم زرعى هنا منذ خمس سنوات ، بعد أن صنعت لى المخابرات المصرية تاريخًا متقنًا ، اعتمادًا على كون والدتى يوغسلافية الأصل ، وعلى إتقانى التام للغة اليوغسلافية ، بلهجة أبناء (زغرب) .. ولقد نجحت اللعبة على نحو مدهش ،

وأصبحت مهاجرة جديدة ، فى المجتمع الإسرائيلى ، ثم لم تلبث الأمور أن تطوّرت فى سرعة ، لأجد نفسى سكرتيرة عسكرية ، فى وزارة الدفاع الإسرائيلية ، وتحت يدى كومة من الأسرار والمعلومات ، أقوم بنقلها إلى (القاهرة) ، أوّلاً فأوّلاً .

ثم زفرت مرة أخرى فى حرارة ، قبل أن تقول :

ـ ولكن هل تصدّقنى لو أخبرتك أننى كنت أتمنى العودة إلى (مصر) طوال الوقت ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وغمغم :

ـ أصدّقك بالطبع .

ابتسمت فى ارتياح أكثر ، وهى تقول :

ـ الهاجس الوحيد ، الذى ظلّ يطاردنى فى شراسة ، طوال السنوات السابقة ، هو أن أموت ، وأدفن بعيدًا عن (مصر) .. لا يمكنك أن تتصوّر كم كان يؤلمنى هذا ، حتى صارت أمنيتى الوحيدة هى أن ...

لم تكن قد أتمّت عبارتها بعد ، عندما دوت تلك الرصاصات ..

رصاصات قوية ، انطلقت من المدفع الآلى ، الذى يحمله مساعد مدير المخابرات الإسرائيلى ، داخل الهليوكوبتر البحرية ، التى برزت فجأة ، بمحركاتها الكاتمة للصوت ..

واتسعت عينا (لبنى) عن آخرهما ..

وانطلقت من حلقها شهقة قوية ، تجمع ما بين الدهشة والذعر والألم ، وهى تهتف :

وقبل أن تكمل عبارتها ، كانت تسقط جثة هامدة بين ذراعيه . . .

ـ رباه ! (أكرم) .. إننى ..

وقبل أن تكتمل عبارتها ، كانت تسقط جثة هامدة بين ذراعيه ، فى نفس اللحظة التى دوت فيها رصاصات مدفع الإسرائيلى مرة أخرى ، لتخترق جسم الزورق الآلى ..

وبكل غضب الدنيا ، انتزع الشاب مسدسه ، صارخًا :

ـ أيها الأوغاد .

ولكن الهليوكوبتر دارت حول نفسها دورة كاملة ، ثم عادت تنقضّ على الزورق الآلى فى شراسة ..

وانطلقت رصاصات المدفع الآلى نحوه ، فى غزارة رهيبة .. وبلا هوادة .

★ ★ ★

٨ـ النهـــاية ..

ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتى مدير المخابرات العامة المصرية ، وهو يقف أمام الرئيس (السادات) ، قائلاً :

ـ المهمة نجحت يا سيادة الرئيس .

تألّقت عينا الرئيس فى فخر وإعجاب ، وإن حافظت ملامحه على نفس الهدوء ، الذى أظلّ من صوته ، وهو يقول :

ـ إذن فقد فعلها ابن (صدقى) .

أشار مدير المخابرات بسبّابته ، وهو يقول فى حسم فخور :

ـ وببراعة منقطعة النظير يا سيادة الرئيس .

نفث الرئيس دخان غليونه ، وابتسامته تتسع أكثر وأكثر ، وعيناه تشردان فى الفراغ ، وكأنما يسترجع ذكرى قديمة ، قبل أن يهزّ رأسه ، متمتمًا :

ـ حقًا .. هذا الشبل من ذاك الأسد .

ثم أدار عينيه إلى مدير المخابرات ، متسائلاً :

ـ وهل عاد الفتى سالمًا .

أجابه المدير فى سرعة :

ـ لقد اتخذنا كافة الإجراءات اللازمة لإعادته يا سيادة الرئيس .

ثم ابتسم ، مستطردًا :

ـ ولكن الشريط فى أمان تام الآن ، وسيصل إلى (ألمانيا) صباح الغد ، حيث سيتسلّمه مندوبنا هناك ، ويعود به ، على أوّل طائرة إلى (القاهرة) .

لوّح الرئيس بسبّابته ، قائلاً فى حزم :

ـ المهم ابننا يا رجل .. عودته سالمًا أكثر أهمية بالنسبة لى ، من استعادة ذلك الشريط .

وافقه مدير المخابرات بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ بالتأكيد يا سيادة الرئيس .. بالتأكيد .

هزّ الرئيس رأسه مؤكّدًا ، قبل أن يسأل :

ـ ومن سيخرج الشريط من (إسرائيل) ؟!

أجابه مدير المخابرات :

ـ واحد من أهم عملائنا هناك يا سيادة الرئيس ، وأحد أبرز رجال المجتمع الإسرائيلى ، وأكثرهم بعدًا عن الشكوك .. لقد ساعد رجلنا على الفرار ، عن طريق البحر ، بعد أن تسلّم منه الشريط ، وسيسافر به غدًا إلى (ألمانيا) .. ومن سخرية القدر أن رفيق رحلته هو أركان حرب وزارة الدفاع الإسرائيلية شخصيًا ، فهو أحد أصدق أصدقائه ، ومن الطبيعى ألا يتطرّق إليهما أدنى شك .

ابتسم الرئيس فى إعجاب ، وهو يهزّ رأسه ، متمتمًا :

ـ عظيم .. عظيم ..

ثم رفع رأسه ، مستطردًا :

ـ المهم أن يعود ولدى سالمًا .

التقط مدير المخابرات نفسًا عميقًا ، وهو يقول :

ـ بإذن الله يا سيادة الرئيس .. بإذن الله .

ولكن عقله كان يتساءل فى قلق ...

ترى أين (أكرم) الآن ؟!

أين ؟!

★ ★ ★

كانت لحظة دقيقة رهيبة ، تلك التى يواجهها (أكرم) ، فى قلب البحر ..

لقد انطلقت رصاصات المدفع الآلى نحوه فى غزارة ، واخترقت جسم الزورق الآلى ومحركه ، الذى اشتعلت فيه النيران ، والشاب يقف فى ثبات مدهش ، ويطلق رصاصات مسدسه الصغير نحو الهليوكوبتر ..

ولم يكن القتال متكافئًا أبدًا ، فى ذلك الموقف ..

فمساعد مدير المخابرات الإسرائيلى كان يرتدى منظارًا خاصًا للرؤية الليلية ، ويحمل مدفعًا آليًا قويًا ، يطلق منه النيران كالمطر ، فى حين لم يكن (أكرم) يملك سوى مسدسه الصغير ..

وإرادته الكبيرة ..

وفى زهو منفعل ، هتف مساعد مدير المخابرات الإسرائيلى :

ـ لقد ظفرنا به .. لقد ..

قبل أن يتمّ عبارته ، اخترقت رصاصة من رصاصات (أكرم) ، منتصف جبهته تمامًا ، فاتسعت عيناه عن آخرهما ، وسقط المدفع الآلى من يده ، فهتف قائد الهليوكوبتر فى هلع :

ـ ما .. ماذا حدث ؟!

قبل حتى أن يكتمل هتافه ، كان الإسرائيلى يهوى من الطائرة إلى البحر ..

وفى نفس اللحظة تقريبًا ، دوّى الانفجار ..

انفجر الزورق الآلى فى عنف ، بتأثير النيران ، التى اشتعلت فى محركه ، وأضاء المنطقة كلها ، وشظاياها تتطاير ، فى دائرة واسعة رهيبة ..

وبحركة آلية ، جذب طيّار الهليوكوبتر ، عصا القيادة ، فارتفعت به الطائرة عالية ، وهو يهتف ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى :

ـ من (هـ ـ ١) إلى القيادة .. من (هـ ـ ١) إلى القيادة ..

كانت الشظايا تتساقط فى البحر ، عندما أتاه صوت قائده ، يقول :

ـ من القيادة إلى (هـ ـ ١) .. ماذا يحدث عندك ؟!

دار الرجل بالهليوكوبتر ، حول حطام الزورق ، وهو يجيب :

ـ رجل المخابرات الذى يرافقنى ، لقى مصرعه ، وسقط فى البحر .. أرسلوا زورقًا لانتشال جثته .. أما الجاسوس الذى كنا نطارده ، فقد انفجر به الزورق الآلى ، ولقى مصرعه على الأرجح .

مرَّت لحظة من الصمت ، قبل أن يأتيه صوت قائده ، قائلاً فى صرامة آمرة :

ـ حدِّد الموقع ، وعد على الفور يا (هـ ـ ١) ، وسنرسل زورقًا ، وعددًا من رجال الضفادع البشرية ، لانتشال جثة رجل المخابرات ، وفحص المنطقة .

قال الطيَّار :

ـ عُلِمَ وسينفَّذ .

ثم دار دورة أخيرة بالهليوكوبتر ، حول حطام الزورق البخارى ، قبل أن يغمغم :

ـ نعم .. لقد لقى مصرعه بالتأكيد .

نطقها ، وانطلق مبتعدًا ، وعائدًا إلى قاعدته ..

وعندما تلاشى أزيز الهليوكوبتر ، برز رأس (أكرم) من تحت الماء ، وهو يحمل جثة (لبنى) ، التى فحصها مرة أخيرة ، وقال فى حزم :

ـ اطمئنى .. سيتحقق ما تمنيته .. مهما كان الثمن .

وأمسك جثتها فى قوة ، وتطلَّع لحظة إلى النجوم ، ليحدِّد موقعه واتجاهه ، ثم راح يسبح ، متجهًا نحو نقطة اللقاء بالغواصة المصرية ..

ويسبح ..

ويسبح ..

ويسبح ..

★ ★ ★

ازدردت لعابى فى صعوبة ، عندما توقَّف (ا . ص) عن الحديث ، وقاومت فى صعوبة دمعة كبيرة ، تكوَّنت فى عينىَّ ، ولاحظت أنه هو نفسه يقاوم انفعالاً جارفًا ، وهو ينهض ، مغمغمًا بصوت خافت مجروح :

ـ معذرة .. سألقى بعض الأوامر لخادمى ، وأعود على الفور .

تابعته ببصرى فى تأثُّر ، وهو يبتعد فى خطوات سريعة ، حتى لا نشهد لحظات حزنه وتأثُّره ، ثم التفتَ إللى السيِّد (لبيب) ، وسألته فى خفوت :

ـ ماذا حدث بعد هذا ؟!

هزَّ رأسه ، قائلاً :

ـ ملحمة حقيقية .. لقد كانت المسافة ، التى تفصله عن موقع الغوَّاصة كبيرة ، والماء بارد كالثلج ، وجثة (لبنى) ثقيلة للغاية ، فى مثل هذه الظروف ، وكان من الطبيعى أن يتخلى عنها ، حتى يمنح نفسه فرصة للنجاة ، و ..

توقف لحظة ، ليزدرد لعابه بدوره ، ويهزَّ رأسه فى بطء ، قبل أن يكمل :

ـ ولكنه لم يفعل .

سألته مبهورًا :

ـ هل أعادها إلى (مصر) ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال بصوت متهدِّج :

ـ قال فـى تقـريره : إن هـذا حقهـا .. لقـد وهبـت حياتهـا لـ(مصر) ، ومن حقها أن تُدفن فى تراب (مصر) ، كما كانت رغبتها دائمًا .

تراجعت بانبهار أكثر ، وأنا أتمتم :

ـ يا له من رجل !

هزَّ (لبيب) رأسه ، مغمغمًا :

ـ بل قل : يا له من أسطورة !

حاولت أن أقول شيئًا ..

أى شىء ..

ولكن لسانى انعقد فى حلقى ، ولم أستطع النطق بحرف واحد ، حتى عاد (ا . ص) إلى المجلس ، وقد استعاد هدوءه ورصانته ورباطة جأشه ..

عندئذ انتزعت نفسى من سجنها ، وقلت بصوت مختنق مبحوح :

ـ الآن علمت لماذا تحتفظ بصورتها ؟!

سألنى فى حيرة :

ـ صورة من ؟!

أشرت بإبهامى إلى ما خلف ظهرى ، وأنا أجيب :

ـ صورة (لبنى) التى تحتفظ بها فى فيلتك فى (فايد) .. تلك الصورة الكبيرة على الجدار .

أطلَّ حزن عميق من عينيه ، وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ آه .. إنك تقصد تلك الصورة .

ثم اتسعت ابتسامته قليلاً ، وهو يضيف :

ـ إنها ليست (لبنى) .

كان هذا الجواب مفاجأة مدهشة بالنسبة لى ، فهتفت :

ـ ليست (لبنى) ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، فتابعت بسرعة :

ـ من هى إذن ؟!

صمت لحظات طويلة هذه المرة ، وشرد ببصره وأفكاره ، على نحو لم أعهده فيه من قبل ، ثم لم يلبث أن انتزع نفسه من كل هذا ، وهو يقول :

ـ هذه قصة أخرى .

قلت فى لهفة :

ـ كلى آذان مصغية .

ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتيه ، فى حين هبَّ السيِّد (لبيب) من مقعده ، هاتفًا :

ـ لا .. ليس الليلة .

سألته معترضًا ومستنكرًا :

ـ ولماذا ؟!

أشار إلى ساعته ، مجيبًا فى حزم :

ـ لأنها الثالثة والربع صباحًا الآن .

اتسعت عيناه عن آخرهما ، وأنا أهتف :

ـ إلى هذا الحد ؟!

أشار (ا . ص) بيده ، قائلاً :

ـ أنتما هنا على الرحب والسعة .

شعرت بالخجل ، وأنا أنتزع نفسى من مقعدى فى صعوبة ، وأنهض ، قائلاً :

ـ ولكن الوقت متأخرٌ بالفعل .

تصافحنا فى حرارة ، ثم قادنا الرجل إلى الخارج ، وصاحبنا حتى بلغنا السيَّارة ، ثم صافحنى ثانية ، وهو يقول :

ـ إنه لمن دواعى سرورى أن ألتقى بك ثانية .

هتفت بكل حرارة :

ـ ومن دواعى فخرى أن التقيت بك يا سيِّدى .

ثم أمسكت يده ، مستطردًا فى لهفة :

ـ ولكننى أريد وعدًا منك بأن تروى لى يومًا قصة صاحبة الصورة .

تبادل نظرة صارمة ، مع السيِّد (لبيب) ، قبل أن يشدّ على يدى ، قائلاً :

ـ بإذن الله ..

وكان هذا آخر ما سمعته منه ، قبل أن تنطلق بنا السيارة ، عائدة إلى (القاهرة) ..

وطوال طريق العودة ، لم أتبادل كلمة واحدة مع السيِّد (لبيب) ..

لقد أغلق عينيه ، وترك جسده يسترخى فى مقعده ، كما لو أنه سيغيب فى نوم عميق ..

أما أنا ، فقد رحت أسترجع كل تفاصيل اللقاء ، وأتوقَّف عند بعض اللحظات لأراجعها ، وأدرسها ، وأفحصها ، وأمحِّصها بمنتهى الدقة .

وفى أعماقى ، أخذت أستعيد حديثنا كله مرة ..

ومرة ..

ومرات ..

وفى كل مرة ، كان شعورى بالانبهار والفخر يتضاعف ..

ويتضاعف ..

ويتضاعف ..

وفى كل مرة ، كنت أزداد إيمانًا بأننى لم أكن أجالس شخصًا عاديًا ..

بل أسطورة ..

أسطورة ، سيتوقَّف عندها القرَّاء حتمًا ، عندما تصدر سلسلة كاملة عنها ..

ومن المؤكَّد أن أحدًا لن يستوعب هذا الأمر فى سهولة ..

سينبهر به البعض ، ويهاجمه البعض الآخر بمنتهى العنف والشراسة ..

ولكن من المؤكد أيضًا أنه سيجذب انتباه الجميع ، كما جذب انتباهى ، وأنا أستمع إلى مغامراته المستحيلة ..

وكما امتلأت نفسى بكل الفخر والاعتزاز والسعادة ، ليس لأننى قد فزت بشرف لقائه شخصيًا فحسب ، ولكن لأن القدر كان من السخاء ، حتى إنه ربط اسمى بذلك الاسم ، الذى أطلقته عليه فى سلسلة رواياته ..

إلى الأبد ..

ويا له من شرف !!

بلا حدود ..

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

حلول اختبر معلوماتك

١ ـ ١٩٥٤ م .
٢ ـ رفعت الجمّال .
٣ ـ زكريا محى الدين .
٤ ـ أمان .
٥ ـ المنزل الآمن .
٦ ـ ضابط الحالة .
٧ ـ حدائق القبة .
٨ ـ دموع فى عيون وقحة .
٩ ـ كى . جى . بى .
١٠ ـ سمير الاسكندرانى .
١١ ـ شين كونرى .
١٢ ـ إيلى كوهين .

★ ★ ★

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

٢٢٨٩

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثار

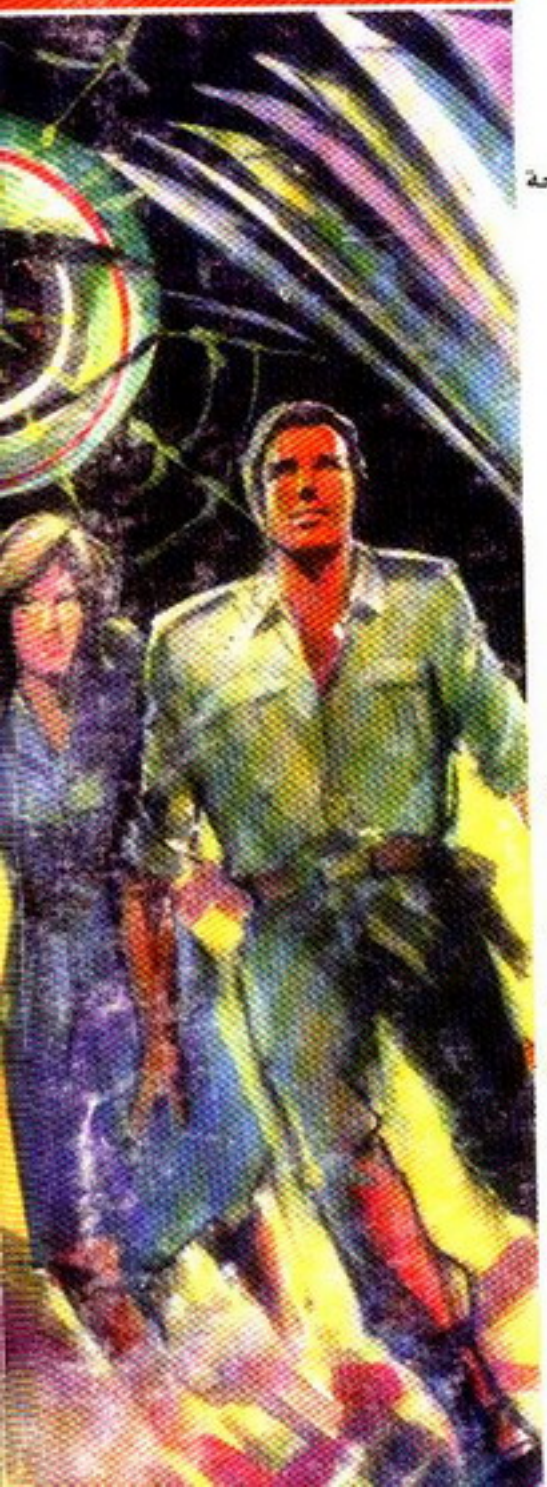

فى هذا الكتاب

	صفحة
قبل أن تقرأ	٥
كل رجال الرئيس (لمحة)	٩
اختبر معلوماتك	٢٥
سرى للغاية -١ (C.I.A)	٢٩
الجاسوس (١٠٠١) (بطولة واقعية)	٣٧
صفر .. صفر .. سبعة .. (دراسة)	٦٥
سرى للغاية -٢ (K.G.B)	٨٢
الأستاذ (من تاريخ الجاسوسية)	٨٧
سرى للغاية -٣ (الموساد)	١١٨
قصة العدد :	
(الملحمة)	١٢١
عزيزى القارئ (١)	٢٩١
عزيزى القارئ (٢)	٣٠٨
حلول اختبر معلوماتك	٣٤٦

الثمن فى مصر ٢٠٠
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم